رواية

محمد الأشعري

القوس والفراشة



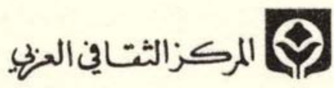
المركز الثقافي العربي

محمد الأشعري

القوس والفراشة

رواية





المركز الثقافي العربي

محمد الأشعري

القوس والفراشة

الكتاب
القوس والفراشة
رواية
تأليف
محمد الأشعري
الطبعة
الثانية، 2011
عدد الصفحات: 336
القياس: 14.5× 21.5
الترقيم الدولي:
ISBN: 978-9953-68-422-7

الناشر
المركز الثقافي العربي
الدار البيضاء - المغرب
ص .ب: 4006 (سيدنا)
٤٢ الشارع الملكي (الأحباس)
هاتف: 303339 522 212+
فاكس: 305726 522 212+
Email: markaz@wanadoo.net.ma
بيروت - لبنان
ص .ب: 5158 - 113 الحمراء
شارع جاندارك - بناية المقدسي
هاتف: 01750507 - 01352826
فاكس: 01343701 961+
cca_casa_bey@yahoo.com

ليس شيئاً بالنسبة لي

ما لا يمكنه أن يكون لي كلّاً إلى الأبد.

هولدرلين

الورطة حسب الفرسيوي

– 1 –

عندما قرأت الرسالة بسطرها الوحيد، وخطها المرتبك اخترقتني قشعريرة باردة، ونأيت عن نفسي لحد لم أعد أعرف معه كيف أقطع الذهول الذي أصابني، وأعود إلى نفسي. وعندما عدت أخيرا بعد جهد قاهر، لم أجد شيئا. كنت قد أصبحت شخصا آخر يخطو لأول مرة في أرض خلاء. وفي هذه الأرض الجديدة بدأت أستقبل الأشياء بنوع من اللاّإحساس، يجعلها سواء بالنسبة لي، لم أعد أحس بأي أثر للألم أو للذة أو للجمال، لم تعد لي سوى رغبة واحدة هي أن تتحرك دواخلي لشيء ما، ولم يعد لي سوى عجز واحد هو أن أحصل على ذلك.

كان ما انتابني يشبه إلى حد بعيد فقدان الصوت، حيث لم أعد أوصل أي شيء للآخرين، لا فكرة، ولا تعليقا، ولا مزحة ولاتعبيرا من أي نوع. كنت أجيب أحيانا على الأسئلة التي تلقى علي، وأنا أفكر بما كان سيجيب به شخص آخر لو طرحت عليه هذه الأسئلة، وكنت عاجزا تماما عن إبلاغ شيء له علاقة بالإحساس، لأنني ببساطة لم أعد أحس بأي شيء.

ثم انتقل هذا الأمر تدريجيا كما يخفت الضوء إلى أن تطبق العتمة، من مجال المشاعر والعواطف، إلى مجال المادة. هكذا وبينما كنت أتوجه نحو مكتبي متعرفا على ملامح الناس وحكاياتهم من روائحهم فقط، أحسست فجأة أن جدارا قد ارتفع بيني وبين العالم، وعندما دققت في الأمر أدركت أنني فقدت بشكل كامل حاسة الشم.

لم يكن ذلك نتيجة لخلل صحي، أولتضاؤل تدريجي، بل كان شيئا صاعقا ودونما إرهاصات مباشرة أو غير مباشرة. كنت أمرُّ قرب حديقة التجارب، فلاحظت أن جهاز التقاط الناس لم يتحرك لدي إطلاقا منذ ابتعدت عن ساحة بورغون، ثم تبين لي أن جسما ثقيلاً وباردا قد حشر نفسه بيني وبين العالم، لذلك قضيت ما تبقى من اليوم أعدِّد التمارين التي تثبت لي أن الأمر لم يكن سوى توهم عابر، فشربت كل ما تمنحه مقاهي وحانات الرباط من مشروبات ساخنة وباردة، والتهمت عشرات الأطعمة، وسكبت على نفسي كل قوارير العطر التي وقعت تحت يدي، واقتربت من كل الكائنات التي صادفتها في طريقي، لعلي أعثر خلفها على بقايا عبير أو رائحة طائشة، وقضيت ساعات طويلة في «الباخرة»، حانتي المفضلة، وعندما خرجت منها منهكا، ثقيل الصدر، أسوق ما تبقى من الليل إلى البيت الذي أسكن عنفه السري منذ ربع قرن، توقفت عند سور الجسر الذي يعلو سكة الحديد، وأطلت التأمل في اللمعان المعدني الذي ينبعث منها دون أن تنتظر مرور قطار آخر، قبل أن أفرغ ما في جوفي دفعة واحدة، وكأنني في نفس الوقت أتقيأ الرجل الذي كنته حتى اليوم.

ولم يكن في كل هذه الكيمياء المعقدة أي رائحة.

منذ هذا اليوم، انقطعت عن سماع الموسيقى ومشاهدة الأفلام وارتياد المعارض والمتاحف إلا لماماً، وكان يحصل لي أن أحضر في إطار مهنتي حفل استقبال، فكنت أقضي وقتا طويلا في الاستماع إلى ثرثرة الناس، محاولا أن أتذكر طعم النبيذ الذي كنت شغوفا به في بداية شبابي، ولكني لم أكن أعثر عليه إلا في ذاكرتي، معزولا عن السوائل التي أشربها، والتي لا أفرق بينها إلا باللون، أو بدرجة الحرارة.

في هذه الفترة من حياتي وقد بلغت الخمسين، لا أعرف كيف حصلت

لي قناعة مفاجئة أن امرأة ما قد ضاعت مني. بذلت جهودا مضنية لاتذكرها فلم أنجح في ذلك، ولكنني تذكرت شيئا كثيفا كان يجمعني بها، تذكرت جهدا مضنيا بذلته لاستعادتها، وخيبات كثيرة جنيتها من ذلك، وتذكرت خصوصا أنني لم أتوقف أبدا عن ملاحقتها، لم أتذكر تفاصيل هذا الأمر، بل الحالة التي تدل عليه، مما جعلني أقع فريسة هوس قاهر، أن أتذكر وجهها أو السبيل التي توصلني إليها، وكلما استحال ذلك صرت أكثر هوسا بها، دون أن يكون لذلك أثر في مشاعري، كما لو كان مايحركني في هذه الحكاية وظيفة ميكانيكية مستقلة عن وجودي ومحركة له في نفس الآن.

وأظن أن هذه الحالة وهبتني سحرا غامضا، أفسره باتقاد الذهن المتوثب دوما للعثور على امرأة ضائعة- فأصبحت لي قدرة خارقة على إغواء النساء، دون أن أجد لذلك أي متعة خاصة. فقد أدركت في يوم ما أنني ما إن أتبادل جملة أو جملتين مع امرأة، حتى أصبح رهينة قصة حب لا علاقة لي بها من قريب ولا من بعيد. وسيكون علي فيما بعد، أن أسعى بجهود كبيرة إلى الفكاك من الرهن، مخلفا في جل الأحيان بعضا من ريشي وجلدي في الحكاية. ولم يكن يخالجني أي زهو أو ارتياح جراء ذلك، بل ولم أجن منه أي ملذة. فكرت في الأمر مليا ووضعت خطة محكمة لتفادي الوقوع في فخاخ من هذا النوع، مبتسما في قرارة نفسي من هذا العبث الذي جعلني أخرج عن الطوق، بعد أن قضيت زهاء ربع قرن مع امرأة واحدة، تعرفت عليها صباح يوم شتائي من سبعينات القرن الماضي، وتزوجتها في مساء اليوم نفسه، وانتبهت قبل منتصف الليل، إلى أنني قد وضعت قدمي في ركاب خطإ قاتل لا منقذ منه.

قبل أن أفقد حاسة الشم، كنت أتعرف على تفاصيل هامة من حياة كل

امرأة أصادفها، فقط من خليط الروائح التي تصلني منها، والتي أستطيع التمييز بين التباساتها ومستوياتها بدقة متناهية. كنت أعرف مثلا على وجه التقريب سنها ولون بشرتها، وكل مواد التجميل التي تستعملها، وطبيعة شعرها وأستطيع أن أحدس حتى الأطباق الأخيرة التي هيأتها، وأحيانا أستطيع أن أعرف أنها خرجت للتو من ممارسة جنسية، وأنها راضية جدا بذلك أو غير راضية على الإطلاق. أعرف ذلك كله دون أن أراها.

أما الآن فيحتم علي وضعي الجديد أن أستعمل يدي لأتعرف على هذه التفاصيل، وهو أمر يحتاج إلى أناقة باذخة لتجنب فجاجة اللمس وعنفه، مما استدعى مني مجاهدة كبيرة لم تخل من حوادث مؤسفة.

لست في حاجة إلى التأكيد على أن هذا الميل الطبيعي للتعرف بالرائحة لم يكن تقنيا فحسب، بل كان عاطفيا أيضا، حيث كان المحرك العميق لهذه الخبرة هو نوع من العشق المجرد، الذي لايضع لنفسه مضمونا له إسم وملامح. إنه إحساس شبيه بعشق الرياضيات، لا أثر فيه لشيء حسي. شيء يمر في أقاصي الذهن المتوقد، حيث الذكاء وحده يحسم في مايتوجب أن يكون أو لا يكون. ولست في حاجة للتأكيد أيضا أن حياتي الجنسية، بالمعنى الذي تعنيه هذه العبارة من مغامرات وتقلبات، فقيرة جدا، وأن الحالات القليلة التي يمكن أن أحسبها على هذا المقام، جعلت المرأة دائما تنتقل من الأيقونة إلى السرير، ضمن تحول تراجيدي لا مكان فيه لخط الرجعة. يجب مع ذلك أن أشير إلى أن ما حدث لي عند عقد قراني على بهية مهدي لم يكن نزوحا من الأيقونة إلى السرير، بل إقامة أبدية في العجز عن الفهم. وأن هذا الأمر مهما حاولت، ومهما اجتهدت فلن يمكن لي أبدا أن أعدله أو أؤثر في مآله.

في بداية عهدي بفقدان الإحساس باللذة، كنت أقاوم الإعاقة التي

تنشأ عن ذلك، باستعراض نوع من القدرة على الإنجاز التقني الكامل والمصفى، بطريقة تجعل ما أنجزه تعبيرا عن شعور باللذة دون أن يكون كذلك.. وسعيا وراء هذا التحقق المتواري، ولعت بالطبخ، واكتسبت معرفة موسوعية بالأنبذة وأنجزت احدى أهم الدراسات الفنية عن النحت الروماني وكتبت «رسائل إلى حبيبتي»، وهي عبارة عن تأملات في الحب واليأس، على علاقة بالمرأة التي فقدتها واسترجعت غرامي بها تذكرا دون أن أستطيع تذكرها، وهي التأملات التي نشرتها على حلقات في الجريدة التي أشتغل بها قبل أن تصدر في كتاب أعتبره أحد النقاد أهم كتاب في الحب صدر بعد «طوق الحمامة».

في كل هذه الإنجازات كان يحصل لي الأثر الذي أتوخاه، أي الإيهام الكامل بأنني أحس بأدق المتع وأكثرها تعقيدا، تلك التي ترتبط في جوهرها بإدراك الجمال، ليس فقط في جوانبه المتحققة، بل كذلك في جوانبه القابلة للتحقيق. وقد مكنني المراس على هذا الإيهام، من الاقتناع أنا نفسي بأن الأهم في اللذة هو التقاط تفاصيل تشكلها، أو إذا شئنا الدقة هو تأبيدها في مسار لانهائي، فالأهم مثلا في لذة نبيذما، ليس هو الوقع الحسي الذي يحصل للمتذوق المتمرن، بل الكيمياء المركبة التي جعلته يكون كذلك، وأن المتعة في نهاية الأمر توجد في الشمس، أو في شذى التربة، أو في مطرمًا، قبل أن تكون في الفاكهة ثم في السائل السحري القادم منها.

عند حصولي على هذا الاقتناع أصبحت أكثر إقبالا على الحياة وأكثر غزارة في الانتاج، كنت أكتب عمودا يوميا، وأنشر عملا أدبيا على حلقات. وأنجز تحقيقات وروبورتاجات كل شهر، وأنشر مقالا نقديا فنيا كل أسبوع في مجلة متخصصة، وبموازاة مع ذلك بدأت حياة صاخبة لا علاقة لها بالسنوات الرمادية التي قضيتها أدبج مقالات مضجرة عن الكتب التي

أتوصل بها مجانا كل يوم، ويجب أن أعترف بأن هذه الحياة الجديدة كانت بعثا حقيقيا جعلني أعود لنفسي وأهتم بها، وأستعيد صداقاتي القديمة، وأزرع حدا أدنى من النظام والصرامة في حياتي المهنية، وفي حياتي الخاصة، الشيء الذي أربك زوجتي وجعلها تتردد كثيرا في موقفها من هذه التحولات المفاجئة، وتعتبر أن ما أتحدث عنه حول فقدان الطاقة على الاستمتاع بالحياة ليس سوى قناع أخفي به خجلي من الإقبال على اللذة بعد كل ما جرى لنا.

قلت لأصدقائي إنني لا أحب شيئا على الإطلاق.. وكدت أقول لهم ولا أحب أحدا كذلك. لا أتذكر متى بدأ ذلك، ولا أعرف ما إذا كان قد وقع لي دفعة واحدة، أم حصل على مراحل محتشمة حتى وصل إلى ذروته في تلك اللحظة المشؤومة. أتذكر فقط ذلك الشعور الذي لازمني بسبب ما حدث ولفترة طويلة بأن لا أحد يملك شيئا لأحد، وأن كل شخص في هذا العالم مهما كانت له من علاقات صلبة وحميمية فإنه لايواجه مصيره إلا وحيدا ومعزولا، وباستعداد فطري للاكتئاب والبكاء على النفس، وأن لا أحد، أبدا، لا أحد، يحقق سعادته بسبب الآخرين مهما كانوا قريبين منه، وأحباء. لا تتحقق أي لحظة سعادة كثيفة أو هشة إلا من خلال التفاصيل التي نعثر عليها في دواخلنا.

ثم وطنت النفس على قبول ما حصل لي كنوع من الموت الجزئي، لأنني عندما أتذكر نفسي مستمتعا، شغوفا، متذوقا أو معجبا، فكأنما أتذكر شخصا آخر توفي قبلي، وعلي أن أقبل بما تبقى مني حتى ألحق به، وعند ذلك سنعود كما كنا، شخصا واحدا عادت عقاربه إلى دورتها العادية. لذلك لم أقاوم، ولم أبحث عن علاج. كل ما فعلته هو أنني رتبت نفسي وفق ما أتوقعه لرجل يحب الحياة وأدرت دفة هذا الوجود المصادر دون

أن أملي شروطا على أحد.

اختلّت حياتي لهذا الحد، عندما قرر إبني الوحيد الذي كان يتابع تكوينا لامعا بإحدى أكبر المدارس الهندسية الفرنسية أن يذهب إلى أفغانستان ويجاهد مع مجاهديها إلى أن يلقى الله. وقد لقيه فعلا، في الأيام الأولى، وفي ظروف غامضة لم أستطع استجلاءها ولما يبلغ العشرين من عمره.

في صباح يوم ما، وجدت وأنا أتأهب للخروج رسالة سربت تحت الباب. تقول الرسالة.

«أبشر أبا ياسين، لقد أكرمك الله بشهادة ابنك».!.

ثم رن هاتفي، فاستقبلت على الخط صوت رجل عرفت من لكنته أنه من شمال المغرب، فكرر على مسمعي نفس الجملة الباردة، مؤثثة بعبارات التعزية المسكوكة. وضعت الورقة فوق الطاولة لأرى زوجتي ترفعها نحو وجهها، وتعبرها برأسها ذهابا وإيابا في ما يشبه ترنح الذبيحة، قبل أن تطلق صرخة زجاجية حادة وتسقط على الأرض.

وقد بذلت جهدا كبيرا لأحملها وأجر نفسي معها إلى سرير غرفة النوم، لكنني في أي لحظة من هذه اللحظات لم أحس بوخز الفجيعة، كنت أعرف أنها هنا، ولكنها لم تكن تصلني، كنت أراقبها وهي تتمدد أمامي مثل بقعة زيت تأخذ كل وقتها في الانتشار، وكنت أراقب انهيار زوجتي كما لو كان شيئا جسديا فحسب، إلى أن فهمت أنها قد اعتنقت تراجيدية لا حدود لها، كأنها تنتقم بذلك من سنوات طويلة من الصرامة العاطفية التي لم تسمح لها أبدا بإذلال نفسها بأي تأثر. جلست أحدق في أصابعي التي تعبث بورقة النعي، وأنظر من حين لآخر إلى وجه ياسين في الصورة التي تتصدر غرفة الجلوس، وجهه الطفولي، البريء، الهش، القاسي، العذب، وفي لمح البصر تتالت أمامي مشاهد من حياته السريعة، منذ صباح ذلك

اليوم الذي أعلنت فيه زوجتي وهي تقوم من فراش النوم، وترفع شعرها إلى الأعلى بيديها المفتوحتين، أنها متأكدة من إخصاب بويضتها إثر تلك المضاجعة الطويلة والهادئة لليلة أمس، إلى لحظة صراخه بين يدي الطبيب ثم كل ما تلا ذلك من نمو سريع أو بطيء، وما تخلله من هلع وحبور وقلق، ومشادات ضارية حول لباسه وأكله وتعليمه وألعابه ودخوله وخروجه، حتى وقفة المحطة التي أقله قطارها إلى المطار ثم إلى باريس ثم إلى العتمة، ورسالته الأولى والأخيرة: «الدراسة أسهل بكثير مما توقعت، والمدينة أشرس بكثير مما توقعت، وأظن أنني أعيش قصة غرامي الأولى متأخرا عن المعدل في آل الفرسيوي، لست متأكدا بأنني أفضل الأبناء، ولست متأكدا كذلك أنكما أفضل الآباء. لاترسل نقودا حتى أقول لك.. من هذه المسافة أكاد أقول إنني أحبكما ولكنني اتهيب من ذلك!».

استمعت ساعات لفريق الشرطة وهو يحقق معي ومع زوجتي حول رسالة النعي والمكالمة، وكنا نجيب ببلاهة تامة على أسئلة تتعلق بأصدقاء ياسين، ومعارفه، وعاداته، وقراءاته، وموسيقاه، وأفلامه، وناديه الرياضي، ومسجده المفضل، بما يشبه إعادة تركيب حياة بأكملها، وتسليمها جثة هامدة للضابط الذي لم يجد شيئا يضيفه سوى أن يسألني، هل توافق على موته هكذا؟، عفوا، أقصد هل كنت تتعاطف مع قضيته؟ عفوا، عفوا، لم تكن تعرف: صحيح لم تكونا تعرفان شيئا هل أنت حزين لما حدث؟ قلت صادقا: لا، لست حزينا.

من اللحظة الأولى لمعرفتي بالخبر، ملأت كياني فورة غضب عارمة منعتني من الألم والحزن، ولو قدر لي أن التقي ياسين في تلك اللحظة لقتلته. لماذا يفعل بي هذا الشيء القبيح والساخر والمتجبر والمهين؟! لماذ يدفعني في الهوة التي وقفت على شفيرها طوال حياتي؟، ثم متى

حصل ذلك، متى نبتت تلك البذرة المسمومة؟ قبل أن يولد؟ أو بعد ذلك؟ أيام كان طفلا أو مراهقا، هل كان يلعب بيدين مضرجتين بالدماء ولم نكن نرى ذلك، هل كنا نعيش ونحن نمشي خلف نعش بيننا.؟؟؟

كانت هذه الأسئلة وغيرها تدفعني إلى اعتبار حياتي كلها خطأ فادحا، إذ لايمكن أن يحدث لي ما حدث إلا إذا كنت كل هذا العمر في وجهة مغلوطة، وكان ذلك يدفعني إلى التفكير اليومي في قرارات تصحح شيئا في هذا الخطأ الكامل، وعندما تتبين لي استحالة ذلك تجتاحني نوبة غامضة يغادرني بها جسدي، فأظل معلقا بين شخص غائب وآخر يتأمله بفضول، كأنه محتار بين وجهتين.

والحال أنني عشت حتى الآن حياة هادئة إلى حد ما، فباستثناء علاقتي المعقدة مع والدي، ورحيل والدتي التراجيدي، وسنوات السجن التي قضيتها بالسجن المركزي بالقنيطرة دون أن أعرف لماذا، كانت حياتي عبارة عن حلقات متصلة يفضي بعضها إلى بعض بدون عناء.

انخرطت أولا في مجموعة يسارية متطرفة عندما كنت أعيش بفرانكوفورت، قادتني إلى جماعة يسارية مغربية منشقة عن الحزب الشيوعي، ثم سرعان ما تعبت من الجهد الذي كان يتطلبه مني البقاء في أقصى الأشياء، فانخرطت في حزب يساري معتدل، لم يمنع أحد رفاقي القدامى من الاحتفاظ باسمي في مذكرته، الشيء الذي قادني إلى اعتقال أسطوري في درب مولاي الشريف، ثم إلى محاكمة لم أفهم منها حرفا واحدا، ثم إلى السجن الذي التهم ثلاث سنوات من حياتي دون مقابل.

وبينما ارتمى جل أصدقائي في حكايات غرامية باهرة اكتفيت ذات يوم وأنا أتحدث إلى زميلة في الجامعة، باختتام حديثنا المقتضب سائلا:

-هل يمكنك أن تتزوجيني؟!

فقالت بعصبية واضحة:

- لم لا؟ ما دمت تطلب ذلك دون حتى أن تبتسم!.

ثم اكتشفت غداة هذا الزواج أنني في توافق تام مع بهية. كأننا كائنان متطابقان، أوآلتان تشتغلان بنفس البرنامج. حيث نحب بنفس المقدار والكثافة أصنافا واحدة من الأكل والشرب والموسيقى والأفلام والكتب واللوحات والمدن، بل ونعيش من الناحية الجنسية تماثلا في الرغبة والإنجاز، يصل إلى أدق التفاصيل. كل ذلك في نوع من الإنسجام التقني الكامل، الذي لا مجال فيه لخلل، ولا لاضطراب عاطفي أولتوجس أو لمفاجأة. انسجام يبدأ بحركات محسومة منذ الأبد، وينتهي بحركات محسومة منذ الأبد ليتبقى في نهاية المطاف رماد لا أثر فيه لجمر اللحظة. رماد بركاني من عصر سحيق، بارد ومتحجر، لايخرجه من وهاده السحيقة سوى تنفسنا البطيء الذي يشبه تنفس مومياءات هامدة.

وقد فاجأني هذا التطابق المربك، كما فاجأني بشكل أكثر إثارة ويأسا، إدراكي بما لايدع مجالا للشك، بأنني وخلاف ما توقعت، لن أحبها أبدا.

ومنذ اللحظة التي وصلت فيها إلى هذا اليقين، استقرت علاقتنا في توتر مزمن. كانت تعتبرني قانعا بالحد الأدنى في كل شيء، وكان ذلك يغيظها، ويجعلها سيئة المزاج في أغلب الأحيان، وكنت أعتبرها ندما يخزني باستمرار، ويجعلني دائم الإحساس بالخسارة.

عندما قتل ياسين تسارعت وتيرة انهيار العلاقة، مع ما صاحب ذلك من احتداد وعراك ورغبة في القتل، وشعور بالذنب. كانت بداية هذا التدهور الجديد هو انتباهها إلى أنني لم أتألم إطلاقا لهذا الفقدان المفجع. لا أعرف كيف أصف الحالة. كنت أعرف على وجه الدقة ماذا يعني مقتل ياسين في ظروف لها علاقة بالطالبان، كنت أتصوره مضرجا بدمائه، ملقى في

مكان ما بعد غارة أو اشتباك، ينتظر من سيجمعه من غبار الطريق، وكنتُ أتساءل هل فكر بي قبل أن يسلم الروح، وهل ظل مصمما على المضي إلى النهاية، أم أن ندما مفاجئا ساوره وأفسد عليه رونق الشهادة. وكنت أعجز عندما أستحضره أن أتصور ولو للحظة واحدة أنه تحت الأرض، أو أنه يرتع في ظلال الفردوس، ولكن بالرغم من كل هذا لم أقع فريسة لألم لايطاق. حتى أنني فاجأت نفسي ذات يوم مقتنعا بأن ياسين لم يقتل، وأن لا شيء يدل دلالة قاطعة على أن النبأ الذي تلقيته بهذا الشأن قد جاءني من أفغانستان، فالرسالة كتبت في المغرب، والمكالمة قد تكون من أي مكان، وتصورت أن الحكاية مقصودة للتمويه فقط، وأن ياسين قد يظهر في ما بعد للقيام بعمليات إرهابية هنا، دون أن تشوش عليها هويته القديمة.

قلت ذلك لبهية.. وقلت لها محاولا تفسير ما يحدث لي، إن الآباء الذين يتوفرون على حدس عاطفي نفاذ، لا تنطلي عليهم مثل هذه الحيل، لذلك فإن قلوبهم ترشدهم إلى الحقيقة، وتجعلهم يرفضون الشكل المزور.. لكن زوجتي فقدت صوابها، وأقامت مأتما جربت فيه كل أنواع الهسترة، لكوني لم أكتف بإنكار مقتل ياسين، بل جعلت منه سفاكا مؤجلا. أما أنا فقد كدت أومن أن خلف هذه الحكاية توجد معجزة ما، ربما تجعل ياسين يعود مرة أخرى، ويدخل حياتي وليدا جديدا. وعند ذلك تذكرت أن المعجزة لو حدثت، فإنما لتسلمه إلى قدر ليس أقل همجية. فظهرت رسالة النعي مرة أخرى في خاطري دون أن يكون هناك مايكذبها.

ثم ذات يوم سألت بهية.

-لماذا لا نبني قبرا لياسين؟ إنه أفضل ما يمكن أن يجمعنا! فحدجتني بنظرة قاسية، وقالت وهي مستمرة في جمع أغراض مختلفة من غرفة النوم.

-ينبغي أن يبني كلانا قبرا للآخر، ويدفنه فيه حيا، ويهيل عليه كل تراب الدنيا. هذا هو الذي يستطيع أن يجمعنا، هل فهمت؟!.

وكان يمكن أن أخرج من البيت، ولا أعود إليه أبدا، ولكنني لم أفعل. لأن الخسارة التامة والكاملة لن تتم لو فعلت!.

- 2 -

لم أحتفظ من كل الصداقات التي اكتسبتها إلا بصداقتين أساسيتين، مع أحمد مجد، وابراهيم الخياطي، وكانت لي نظرية في الموضوع، أننا في هذه السن لا يمكن أن نبني صداقات جديدة، لأننا لانتوفر على الطاقة، ولا على الوقت الضروريين لذلك. ومع ذلك فقد تعقدت علاقتي مع هذين الصديقين لأن كلاهما طور إزائي نوعا من الآصرة الأبوية، جعلتهما يتدخلان في أدق شؤون حياتي، خصوصا خلال مرحلة الاضطراب التي دخلتها، مقتنعا أن أفضل طريقة للتخلص من شخص لايعجبك، هو أن تعوضه بشخص آخر، الشيء الذي يجدر بنا أن نفعله بأنفسنا قبل أن نفعله بالآخرين. وكان هذا في مرحلة أصبحت فيها بدون أوهام تجاه خساراتي الحقيقية. وصرت أدرك بسهولة أن الخسارة ليست ما نفقده، ولكن ما يتبقى في نفوسنا من شعور بالعجز عن فعل شيء لم نفعله، وقد قرأت لم أعد أعرف أين، أننا عندما نولد، تكون أمامنا احتمالات لانهائية لحيوات مختلفة، ولكن عندما نموت، لا يفضل من هذه الاحتمالات سوى الاحتمال الوحيد الذي تحقق منها. وعند ذلك فإننا لانخسر الاحتمالات التي فقدناها الى الأبد- فهي لم تكن بين أيدينا في أي وقت من الأوقات. ولكن نخسر بطريقة تراجيدية تلك الإمكانية التي كانت لنا: أن نكون غير ما كنّاه.

كان ابراهيم الخياطي يخاف جدا من النوبات التي تعتريني، ويحاول تجنيبي قيادة السيارة بوضعه سائقا تحت تصرفي كلما احتجت إلى ذلك،

ولم يفهم أبدا أن النوبات لاتفاجئني، بل تداهمني تدريجيا كنوع من الانطفاء البطيء، يبدأ بما يشبه الاكتئآب، ثم أفقد الرغبة في القيام بشيء محدد، حتى ولو كنت في حاجة موجعة لتلبيتها، فأجوع ولا أستطيع أن أشتهي أكلة واضحة، وأذهب إلى «الباخرة» ولا أعرف ماذا أطلب لعطشي، وتتحرك أحشائي برغبة حيوانية ولا أعرف كيف ألبيها.

كان الأمر يشبه نوعا من الاضراب عن الحياة لمدة يومين أو ثلاثة أفيق بعدها على إنهاك وجودي يعود فيحشرني في نوبة أخرى، أما الإغماء بمعناه الجسدي فمسألة أستطيع التحكم فيها إما بالكلمات أو بحركات أصابعي.

ذات صيف من هذه الفترة الحرجة، خرجت باكرا ومشيت في شارع النصر، ثم اخترقت حديقة التجارب، وتوجهت عبر ساحة بوركون الى اجتماع حزبي من تلك الاجتماعات التي تتمنى في قرارة نفسك أن تكون قد أجلت دون أن يكون لك علم بذلك، وبعدما قضيت نصف يوم تحت ضغط تلك الأجواء القانطة قررت أن أذهب. لم يكن ذلك لسبب وجيه يمكن أن أدافع عنه، لم يكن حتى بسبب ياسين الذي انحدر من صلب اشتراكي مصفى ومات في أحضان الأصوليين. ذهبت لأنني لم أعد أطيق اللغة المستعملة في هذه المحافل. كانت الجمل المسكوكة المتكررة التي لا مكان فيها لشعرة واحدة من الخيال أو السخرية الذكية، أو العاطفة الصادقة، أو حتى التركيب المتقن، تخدشني وتجعلني أشعر بانسحاق تام تحت وطأة هذا الموات في التعبير الذي يفضح موتا آخر أكثر خطورة.

وقد ذهبت هذه المرة بالذات لأنني لم أترك الفرصة لنفسي لتضع أسئلة، أو لتشعر بالذنب، أو لتستبق ندما مؤكدا. غادرت القاعة مسرعا ولم ألتفت خلفي حتى وجدتني أخترق مرة أخرى حديقة التجارب، وأتبادل ابتسامات

خفيفة مع نساء ورجال يسفكون دماء يوم الأحد في معبد الرياضة.

وفي اليوم الموالي، لم أحتج الى جهد كبير لأقنع رئيس تحرير جريدة مستقلة معروفة بالتعاقد معي، فدخلت قاعة التحرير كما أدخل أرضا مذعنة، وشرعت فورا في كتابة عمودي اليومي متصورا بغير قليل من المكر رجة ظهوره غدا في سوق النميمة.

لم تكن زوجتي تعير أدنى اهتمام لما يقال عن غرامياتي المزعومة كانت تعرف أنني التقي بعدد كبير من النساء في الوسط الصحفي وفي الوسط الفني، ولكنها تعرف أيضا أنني خارج لعبة الإغراء والرفقة الممتعة، لا أفهم كثيرا في شؤون النساء، ولا يسعفني خجلي المزمن في الذهاب إلى أبعد. وفضلا عن ذلك لم نعش أبدا تلك التوترات المرتبطة بالغيرة والشك والميل إلى تملك الآخر، لم تكن أسفاري تثير لديها تساؤلات من أي نوع. والمرة الوحيدة التي نشب فيها بيننا نزاع من هذا القبيل، كان بمناسبة نقاش نظري بحت، ونحن في السيارة في بداية عطلة ما.. كنا نتحدث عن أحمد مجد، والقصة الرائجة عن زوجته السابقة بخصوص علاقة محتملة بينها وبين مهندس معماري معروف في العاصمة، فقد كنت أعبِّر عن استهجاني للطريقة التي تظهر بها في أماكن عمومية، عندما ثارت ثائرة بهية وراحت تدافع عن حق هذه المرأة في أن تعيش حياتها كما تشاء. تساءلت هل يعني ذلك أن الخيانة الزوجية هي أيضا فضيلة من الفضائل. أجابت زوجتي. نعم، هي أم الفضائل. لأنها تقود إلى لحظة صادقة، بينما الوفاء المزعوم ليس سوى أكذوبة فجة، وعندما سكت لأنني أعرف أنها لاتؤمن بما تقول، بل تقوله فقط لتشحذ عدوانيتي أضافت متوترة.

-حتى إزاء الله فإن المرء يكون أكثر صفاء وهو يعيش هذه اللحظة الصادقة.!

قلت

- هل حصل لك ذلك؟

قالت

- وهل تعتقد أنني كنت سأقول لك لو حصل؟!

بعد ذلك قضينا المسافة بين الرباط وأكادير في جدل مسموم ومدمر حول من فعل ماذا، دون أن نجني من ذلك سوى غيرة جوفاء لا مضمون لها، بل ولا علاقة لها بنا كشخصين، مع كل ما تحمله من مشاعر الغبن والظلم والكراهية. بينما ياسين يصخب في المقعد الخلفي بلعبه الألكترونية ويصرخ من حين لآخر لتخفيض حدَّتنا.

لكن عندما توطدت علاقتي بفاطمة بدري أصبحت بهية منتبهة لكل ما له علاقة بالنساء في حياتي، ثم اتخذ اهتمامها شكلا عدائيا ضد كل ما أقتنيه من ألبسة وكتب وأفلام وموسيقى اعتقادا منها أن هذه الأشياء الجديدة لايمكن أن تنزل علي من السماء، وأنها وصلتني بكل تأكيد عن طريق امرأة، وفي أغلب الأحيان ربما عن طريق فاطمة.

ولم تفهم بهية لا من خلالي، ولا من تلقاء نفسها، أن انسحاب إحساسي الشخصي بالأشياء، وانتفاء أي لذة فيما استهلكه، هو الذي جعلني ارتاد مناطق غير معهودة في حياتي، لقد كان الشخص الذي كنته يكره الموسيقى الأندلسية، لكن بما أن الأمر أصبح سيان أن أستمع إلى موسيقى الجاز، أو إلى «غريبة الحسين» فقد أقبلت على ما كنت أكرهه بحثا عن ذرة متعة تفاجئني هنا أو هناك. أو فقط لأنني لا أعرف ما أريد مثلما أن نجاحاتي الغرامية فيما لو حسبناها كذلك، هي ليست تعبيرا عن خفة داهمتني، أو عن مراهقة متأخرة، لقد حشرت رغما عني في قصص لم أشارك في نسجها ودون أن أكون طرفا حقيقيا في أي طور من أطوارها،

كما لو أن ذلك الموات الحسي الذي أصبت به قد جعلني مثل هوة سوداء، لايقترب منها جسم مضيء حتى تبتلعه، وكنت أدرك كلما حصل لي ذلك أن السواد الحالك الذي يهيمن في دواخلي، هو الذي يمنحني هذه الإثارة وتبعا لذلك كنت أرتب أموري بدقة صارمة تسمح لي بالإبحار في حدود ما يتيحه لي بصري في هذه اللجة المظلمة.

عندما ظهرت فاطمة في حياتي، كان ذلك تتويجا لمعرفة قديمة. ظلت على مسافة رغم المهنة التي تجمعنا، والشغف بالمسرح الذي تورطنا فيه منذ أخرجت لي نصا بسيطا لفرقة «اللعبة» البيضاوية.

ذات زوال قائظ التقينا في مطعم الشاطئ، كنت محاطا بعمال المطعم الذين هرعوا لنجدتي بعد أن سقطت من طولي وأنا أعبر الصالة عائدا من دورة المياه. يجب هنا أن أشير إلى أنني منذ فقدت حاسة الشم، أصبحت لي قدرة خارقة على تخيل الروائح، بل وعلى التأثر البالغ بها بطريقة عديمة التناسب أحيانا، لهذا السبب أغمي علي في المطعم، لأنني لمحت الطباخ، يسلق سرطانا بحريا ضخما، ورأيت البخار المتصاعد من الإناء يكاد يكون ورديا هو الآخر، وتوقعت أنه يغمرني بسحابة عطنة. فاستجاب جسدي بطريقة مبالغ فيها وأغمي علي. لكن هذه الحادثة المؤسفة قادتني إلى غذاء عذب مع المرأة التي سلق من أجلها السرطان. ومكنتني هذه الفرصة من التفرج على مشهد قتالي، استعملت فيه فاطمة ملاقط ومباضع، لإستخراج قطع اللحم البيضاء المتمترسة خلف حراشف الكائن المسلوق، والتهامها بشهوانية تبذل بسببها جهدا يرفع وتيرة تنفسها، ويجعلها تمضغ من خلال ما يشبه لهاثا متقطعا، وهي تهرش الأذرع الطويلة للحيوان وتمصها مغمضة العينين، ممسكة طرفيها بأنامل دقيقة بيضاء، تكاد لاتلمس القشرة الوردية الشائكة.

سألتني عما إذا كان سيغمى علي مرة أخرى بسبب الرائحة، قلت إنني لا أشم أصلا، فلم يبد عليها أنها اندهشت لذلك، بل علقت دون أن تتوقف عن العراك.

-أنا أيضا أتخيل الروائح وأشمها، بل استطيع أن أشم، الروائح في التلفزيون، وفي السينما!. ضحكت، فأكدت أنها لاتمزح مطلقا.. وأن الأمر يحدث لها مرارا وبدون تكلف.

بعد ذلك سأصف لها بتدقيق وضع رجل فقد حاسة الشم، إن الأمر طبعا لايتعلق بفقدان ذاكرة الشم، فالروائح التي نشمها ولو لمرة واحدة، منذ رائحة الأم الأولى إلى رائحة الموت لاتغادر ذاكرتنا أبدا، لذلك يظل التذوق واردا، كل ما هنالك أنه يتطلب وقتا أطول حتى يتعرف اللسان على المادة، ويرسل بذلك إشارة واضحة إلى المخ الذي يفك شفرة الرسالة، ويحيل على حاسة الذوق معلومة قابلة للقراءة، قلت لفاطمة.

-تعرفين أن لهذه الإعاقة جوانب إيجابية فما أكثر الأشياء التي تقتحم خياشيمنا دون إذن وتفرض علينا تخزين روائح إلى الأبد!.

ثم اعترفت بأن الأمر الأكثر إزعاجا هو استحالة التعرف على الكائنات من خلال روائحها. إنها ملذة لاتعوض أن يصلك الشذى أولا، ثم تدرك أن العطر يمشي، يلتهم المسافة التي تفصلك عنه، وينأى أو يدنو، مستقلا بذاته، يمنحك اللقاء الذي تتوقعه، أولا تتوقعه، يمنحك إمكانية استثنائية لتخزين امرأة بكل تفاصيلها في تلك العلبة الرائعة... أحيانا يتهيأ لي أن الحرمان بمعناه العميق والكامل هو هذه الاستحالة، فأسعى إلى استنفار حواس أخرى للتغلب عليه، استعمل بنوع من الاستغراق الرياضي أصابعي وحدها للتعرف على جسد لايقتحم كياني بعبيره، في أقل من أسبوع مضى على فقداني لحاسة الشم، أصبحت أميز الروائح بالألوان والأشكال التي

ألبستها لها. فالتبغ له رائحة بنية. أسطوانية، والسمك له رائحة صفراء مستطيلة، والشاي له لون قرمزي مربع، والقهوة نصف دائرة أزرق... قالت فاطمة وهي تغسل أناملها في صحن الماء والليمون:

- لماذا لاننام معا هذه الظهيرة، ثم نرى فيما بعد ما الذي سيحصل لنا.

صمتت مندهشا فأضافت:

- اسمع، لا أريد أن نسجن أنفسنا في قصة معقدة، ستكون مجرد مضاجعة. نستمتع فيها بأنفسنا ونذهب بعدها، كل واحد إلى حال سبيله. هل فهمت؟.

-نعم فهمت ولماذا أنا بالذات؟

-لأنك لن تشم معمل السمك الذي صرته بعد هذه الوجبة!

ولكنني لم أضاجع فاطمة أبدا. شربت عندها، وتكلمت كثيرا، وقرأنا عشرات الصفحات من شعر الهايكو، وكتابا كاملا عن مواليد برج العقرب، ثم غادرت المبنى الحزين الذي تسكنه مفعما بمشاعر طيبة تجاه العالم.

هكذا استقرت فاطمة في تفاصيل كثيرة من حياتي، كأنها دخلتها منذ سنوات. تعرف كيف تثرثر معي دون أن تنتظر شيئاً محددا، تتحدث عن المسرح والصحافة والرجل الذي تنتظره دائما في رصيف ما. تجئ بدعوات الحفلات الموسيقية والمعارض إلى بيتي وتحاول إقناع بهية بتلبية إحداها، فإذا ما اقتنعت تذهبان معا، وأجلس أنا في الأريكة السوداء الكبيرة أخطط بفتور لمستقبل لايهمني.

ليس في وسعي أن أحدد طبيعة العلاقة التي تربطني بها، إنني أعرف فقط أنها ضرورية، أعرف ذلك بنوع من الإحساس البارد، آخذا بعين الاعتبار أنها تملك هي الأخرى من الأسباب ما يجعلها تعتبرني في غاية الضرورة. وأنا أثق في أسبابها حتى وأنا لايمكن أن أدعي أن العالم يختل

من حولي عندما لاتكون هنا. إنني فقط أشعر بأن هناك نقصا في أداء الآلة، كما لو كنت أرى ذلك في لوحة للقيادة وهي تقول لي ما ينقص أو يزيد في شروط ملاحتي الداخلية.

لم نتكلم بهية وأنا أبدًا عن فاطمة، باستثناء ما يقال عادة من تسَقُّط للأخبار، أو تساؤل يدعي البراءة. وأظن أن بهية تبعت مرة واحدة سبيلا غير موصل، عند ما سافرت فاطمة إلى أمريكا وطلبت منها أن تبعث لها حلقات «رسائل إلى حبيبتي» تباعا بعد صدورها. لم تقل أي شيء يدل على ذلك، ولكنني خمنت انزعاجها، عندما سمعتها ذات صباح وأنا في الحمام، تبعث الفاكس المطلوب وتشعرني بذلك وهي تتهجى جهرا أرقام هاتف الفندق الأمريكي.

وقد أعقب ذلك صمت كامل، إلى أن سمعتها تقرأ بصوت عال:

«لعلني اقتربت من وجهك الحقيقي مساء أمس، ذلك أنني منذ بدأت أرسم لك وجها قريبا من إحساسي لم يحدث لي أبدا مثل هذا الاهتزاز، شيء ما شبيه بنبض المراهق الذي يرى محبوبته تقف فجأة في الشرفة التي يترصدها. لكن هذا الأمر لم يدم سوى ثوان معدودة، لم يكن بمقدوري استرجاعها. لا أستطيع كما تعلمين أن استرجع شيئا. لا يبقى في ذاكرتي سوى الإحساس بالفقدان. أما مضمونه فتبتلعه العتمة. مع ذلك فقد كان لظهور وجهك النسبي أثر مذهل على كياني برمته، حتى أنني كدْت أتذكر قبلتنا الأولى، وتلك الجملة التي سبقتني إلى شفتيك، لم أعد أعرف، لعلي تكلمت عن الحب، أو الحر، أو الحلم، لم أعد أعرف، ظل حرف واحد عالقا بلساني، أتذكره ممتزجًا بشفة ممتلئة، شفة من كانت؟ ممتزجا بأنفاس ساخنة. من كان يقبل من؟ هل كان ذلك في غرفة غريبة؟ نعم.. نعم... كان ذلك في غرفة فندق لم تستطيعي مغادرتها.. وكنت في البهو

انتظرك وما أزال، ولكنك كنت قد أحكمت إغلاق الغرفة ووضعت وسادة أخرى فوق رأسك، وأطفأت كل شيء، بما في ذلك القبلة التي اشتعلت ثم أعقبها ظلام دامس. بودّي أن أقول لك شيئا، فقط لو أعرف ما هو. اخرجي إلي من خلف هذا الستار الأبكم. إنني في الشرفة حيث كنتُ دائما. ولو مررت الآن في الحديقة فسأفعل شيئا بسيطا، سأمد يدي التي ستطول من تلقاء نفسها وترفعك إلى أعلى فأعلى فأعلى حتى تستقري مرة أخرى بين شفتيك والجملة التي تسبقني».

عاد الصمت من جديد للغرفة، فاخرجت رأسي من الحمام وتطلعت إلي بهية حذرا. كانت جالسة تمسك الورقة بيديها معا، وتبتسم ابتسامة من يفهم ولا يفهم. وعندما استدارت ورأتني أحدق فيها، طوت الورقة بسرعة، وقالت بنبرة مستاءة.

-عجيب هذا الهراء!

Twitter: @ketab_n

- 3 -

لأسباب كثيرة أصبح إبراهيم الخياطي حجر الزاوية في علاقتي بالعالم، عندما كنت في التنظيم كان قريبا منا وبعيدا في نفس الوقت، موّل إصدار مجلتنا الثقافية، وساهم في إدارة شؤونها دون أن يتسقط بعضا من تلك الأمجاد الصغيرة المرتبطة بالمرحلة. وعندما اندلعت اعتقالات السبعينات لم تشمله، لكنه ظل سندنا الأكثر صلابة. وبصفة عامة لم يكن هناك شيء في حياتي له علاقة بالجوانب العملية لم يكن إبراهيم طرفا فيه، وأكاد أقول إنني لم أقرر أبدا في أي شيء يحتاج إلى بصيرة نفاذة، دون أن يكون ابراهيم عنصر الحسم في قراري. لذلك كان طبيعيا أن يكون الشخص الثالث الذي قرأ رسالة النعي، والرجل الذي وضع ثقل هذه القضية الجديدة برمتها على أكتافه. كان عليه أن يدبر علاقتنا بالتحقيق الذي فتح حول تنظيم القاعدة بالمغرب. وهو أمر حشرنا فيه بمنتهى البساطة، ذلك أن رسالة النعي التي توصلنا بها كانت محلية، مما يوحي بأن الطرف الأول الذي تلقى النعي هو التنظيم المحلي وهو ما يوحي ضمنيا بأن ياسين كان على علاقة بهذا التنظيم قبل أن يسافر، بل وربما كان موفدا من قبل التنظيم نفسه للمشاركة في الجهاد الأفغاني. وعند ذلك فإن المعنى البديهي لهذه العلاقة هو أن هناك مرشحين آخرين يرتاحون في خلية نائمة إلى أن تصدر الأوامر بترحيلهم، أو باستعمالهم في تفجيرات على التراب الوطني.

وعندما اعتقلت مجموعة فاس على إثر اغتيال سائحة فرنسية، اتجه

الاعتقاد إلى أن شخصا من المجموعة هو الذي حمل الرسالة إلى بيتي.
وابتداء من هذه اللحظة التي بدأ فيها ابراهيم ينقل لي معلومات عن هذه العلاقة المباشرة بين ياسين، وبين ارهابيين من لحم ودم، مواطنين من بيننا، وليس أشباحا من قندهار، أصبحت فريسة لتوتر مدمر، إذ لم أكن أستطيع أن أتحمل فكرة أن يكون ياسين انخرط في القاعدة عندما كان يواصل حياته معنا، مولعا باللعب الالكترونية، متبرما من مناقشاتنا السياسية، مستعدا على الدوام للسخرية منا ومن كل شيء. كانت هذه الخديعة المحتملة تدفعني للشك في كل شيء، وكان ابراهيم يبذل جهدا استثنائيا لإخراجي من منطق الخديعة، مؤكدا أن كل واحد منا يمضي إلى قدره غير قادر على التمييز بين ما يخدع به نفسه وما يخدع به الآخرين.

في السنوات الأولى لعلاقتنا كان إبراهيم يلعب دور الخيط الرابط في شلتنا، رسول حب قادر على حل أكثر الإشكالات الغرامية تعقدا، وكانت حظوته البالغة لدى النساء تجعله باستمرار مؤتمنا على أسرارهن وحكاياتهن، ولم يعرف عنه أنه عاش علاقة نسائية خاصة، إلا أن الإشاعة نشرت أخبار مترددة عن مثليته، الشيء الذي لم يغضب له ولم ينفه. وعندما كان يصطحب معه إلى سهراتنا صديقه عبد الهادي فنان العيطة الذي يغنيها في ملهى «المرساوي» بالدار البيضاء، كانت الابتسامات العابرة تحتفي به قبل أن تنسحب في نوع من التواطؤ المتسامح الذي تشجع عليه شخصية ابراهيم اللامعة والمتواضعة في آن واحد، هو الذي استطاع بعد دراسة باهرة في الرباط وباريس أن يبني أكبر مكتب للمحاماة المختصة في المال والأعمال، وأن يجني من ذلك ثروة هائلة سمحت له باحتضان عدد كبير من الفنانين في الرسم والنحت والسينما.

اختار ابراهيم الحياة مع أمه، وهي امرأة تقليدية خارقة الذكاء متعددة

المهارات. واكتسب في المدينة الضخمة مفاتيح مكنته من ترويضها وإخضاعها لميله الطبيعي للعيش في الفضاءات الكبرى والمعقدة. كنا قريبين جدا من بعضنا، وكان قارئا نهما لا أظن أنني قرأت كتابا أساسيا لم يكن هو الذي أشار علي بقراءته.

مر ابراهيم في السنوات الأخيرة بثلاث هزات خطيرة.

كانت المرة الأولى عقب انتحار رفيق حياته. عبد الهادي، فقد أحس أن العالم قد انهار فجأة تحت قدميه وأنه سيظل يهوى بلاقرار إلى أن يفقد الصلة بكل ما حوله. وسيظل في سقوط مستمر لايكاد يلمس شيئا شبيها بالأرض حتى يبتلعه الخواء من جديد، والسبب كما سيقول لي فيما بعد، بعد مقتل ياسين، ليس الموت في حد ذاته، ولكن كونه لم ير شيئا مما وقع على وشك الوقوع. لم يشعر ولو مرة واحدة بعذاب شخص قريب منه.

كانا قد وجدا صيغة لنوع من المصالحة الاجتماعية مكنتهما من التعايش بدون تنازلات جوهرية، وبدون عناد مجاني، فقد رتب ابرهيم لصديقه حياة مستقلة وزوّجه من قريبة له، وفرح فرحا لا حدود له بميلاد توأميه عصام ومهدي، فاستمرت علاقتهما وثيقة ودافئة رغم بعض الحزن الناتج عن هذا الترتيب العاقل لحياة مستعصية على الترتيب، كان يمر في آخر الليل على ملهى «المرساوي» الذي يغني فيه عبد الهادي وصلات من العيطة البيضاوية، فيجلس في ركن قصي يحلق في سماء صوته الرخيم، متعجبا من كل هذا الشجن الذي يسكن شخصا لايكف عن الضحك والسخرية من كل شيء كأنما يصعد من أحشائه نفس داكن من تراجيديات سحيقة بمجرد ما يفتح فمه بالغناء، ثم ينسحب إلى دواخله البعيدة بعد ذلك، في نهاية وصلته كان عبد الهادي يقطع الصالة الغاصة بعشاقه، بخطوات عريضة وضحكة مجلجلة ويتجه نحو طاولة ابراهيم، ليقضي معه فترة

الاستراحة يتحدثان فيها عن أشيائهما الصغيرة، ويعلقان بجمل مقتضبة وأنيقة على الملابس، والأشياء المفيدة للبشرة، وأطباق الموسم، يتحدثان عن التوأمين، وأمهما هنية، الصامتة دوما والمستغرقة في أداء واجبات البيت بتفان يشبه العبادة، يتبادلان كلمات رقيقة عن الغياب والوحشة، ويتفقان أو يختلفان على موعد سهرة قريبة. وفي اليوم الموالي يمر عبد الهادي على الحاجة. لأنه وجد «الكرنينة» قد دخلت إلى سوق الخضر المركزي. ويجلس معها في الباب الخلفي للمطبخ المطل على الحديقة.. وإذا حدث له وتحدث عن إبراهيم أمام أمه فإن وجهه يشرق بذلك، كأنه يقوله بدمه وليس بلسانه.

كيف يمكن لهذه الغلالة الشفافة أن تنفجر ذات يوم فيتدلى منها شخص، مشنوق، ويكون الشخص هو عبد الهادي دون غيره من بني البشر؟!

كنت أنا بدوري أحاول إقناع إبراهيم بأن عبد الهادي كان سيفعل ما فعله في كل الأحوال، بغض النظر عن علاقتهما البسيطة أو المعقدة، فكان يتظاهر بقبول ذلك بينما تظل نظرته يائسة ومغلقة.

أما الهزة الثانية فكانت عندما تعرض لاعتداء شنيع كاد أن يودي بحياته. كان قد غادر مبنى المحكمة التجارية بالدارالبيضاء عندما استوقفه شخصان، قال أحدهما إنه يريد أن يتحدث معه في أمرمهم وعاجل، وقال الآخر وقد وضع ذراعه حول خصره وضمه إليه بقوة «في أمر عاجل وشخصي». ولم يكن حتى تلك اللحظة خائفا ولاحتى متوجسا، لولا أنه أحس بجسم حَاد في جنبه قبل أن يدرك أن الشخص الذي يضمه قد وضع بيده الأخرى سكينا مفتوحا أسفل جنبه الأيسر. وعند ذلك جرت الأمور بسرعة خارقة، فقد انتفض ابراهيم محاولا التخلص من الشخص الملتصق به، ثم أحس بشيء بارد يخترق بطنه ثم بشيء ثقيل يتهاوى على الأرض،

ثم بشيء صلب يتلقف وجهه قبل أن يلمس الاسفلت وجسما آخر يتلقف صدره ورأسه قدَّرَ أنها أقدام وأحذية تتقاذفه، وكلما استمر ذلك أحس أنها تدفعه نحو ضباب كثيف إلى أن أصبح الضباب عتمة ونجوما وألوانا فاقعة. ثم سمع صوتا يطلب عصا، وأحس بالعصا تلمسه أو تخترقه، لم يستطع تحديد ذلك، قبل أن تعلو حوله قهقهات صاخبة ويحس إحساسا بعيدا بلزوجة تلف كل جسده ثم تتحول شيئا فشيئا إلى إفاقة مضطربة في غيمة بيضاء، شديدة البياض، غيمة قاحلة.

قضى إبراهيم خمسة أسابيع في المستشفى كنا والدته وهنية وتوأماها، وأحمد مجد وفاطمة وأنا، نزوره كل يوم، ونتابع وضعه الحرج إلى أن تجاوزه بستّ عمليات جراحية. وأثناء غيبوبته نشرت إحدى الصحف المعروفة صورته مع عنوان فاضح: المحامي ابراهيم الخياطي يتعرض لمحاولة اغتيال على يد شخصين يدعيان أنهما ينتميان لمنظمة تحارب الشذوذ الجنسي في المغرب. وعندما تماثل إبراهيم للشفاء، حققت معه الشرطة طويلا حول ميولاته الجنسية، فأكد لها بكل ما يملك من قوة أنه شخص سوي، مثلما فعل عندما خضع للتحقيق إثر انتحارعبد الهادي.

ثم تفتقت عبقرية الحاجة عن فكرة خارقة، هي التي مافتئت تردد أنها صنعت إبراهيم وتعرف جيدا ما في دواخله، جلست ذات مساء على سرير المستشفى وحدقت طويلا في عيني ابنها الجريح قبل أن تفاتحه في مشروعها بمقدمة طويلة وكلمات مبطنة، وجمل باكية، كان ابراهيم يرد عليها بإشارة تهدئة من يده وجملة واحدة إنني أوافق على ذلك. نعم أوافق، لا تعذبي نفسك، أفهم تماما، أوافق. والحاجة تقول توافق على ماذا يا ولدي، لم أقل شيئا بعد، وعندما قالت أخيرا، أريد أن تتزوج هنية ليعيش عصام ومهدي في كنفك. وتغلق أفواه الناس وأطمئن عليك قبل

أن أموت، كان ابراهيم يعرف جيدا ما ينتظره، ويشير بيده للتسليم بالأمر. والإذن للحاجة للتصرف حسب ما ترتئيه.

كان إحساس إبراهيم أن هذا الترتيب ينسجم تماما مع باقي الأشياء، ليس هناك أفضل من هذا للانتقام من انتحار عبد الهادي، ليس هناك شيء في حياته لم يكن يعني في كل يوم أنه لا يفعل سوى الاقتراب من هذا المصير خطوة خطوة وبتسليم لا مرد له.

وعندما أوصد الباب بعد شهور ولأول مرة عليهما معا، كان مضطربا وخجلا من نفسه، ويكاد يختنق بما يجيش في صدره، حتى التفت نحوها. كانت جالسة على حافة السرير، مائلة بوجهها قليلا نحو الجدار. فخفق قلبه لأنها لم تكن في عزلتها تلك سوى عبد الهادي، خارجا لتوه من شجن المرساوي.

كانت الدارالبيضاء ماتزال تتندر بهذا الزواج عندما هز ابراهيم زلزال عنيف بوفاة أمه. عاشه مثل بتر مؤلم ومعيق إعاقة دائمة. كان نائما بعد ليلة هادئة عندما انتشله من سباته صراخ هنية وعصام ومهدي في ضحى اليوم التالي. ورغم أن الجواب الذي وجده خلف الباب كان واضحا وحاسما: رحم الله الحاجة، فإنه استمر في وضع أسئلته عن الحاجة؟ هل أخبرتم أمي؟ ولماذا الحديقة؟ لماذا لاتقفون لأفهم أولا؟ إلى أن وقفت هنية في وجهه وقالت بنبرة حرصت على أن تكون في غاية الوضوح.

- اسمع، استحضر الله، الحاجة أمك توفاها الله.

كانت تلعب مع مهدي وعصام في الحديقة فوقعت من طولها. هي الآن، جثة هامدة، رأسها في ماء المسبح، وجسدها مشبوح على عشب الحديقة.

قال ابراهيم متأففا، لا يموت أحد هكذا. الحاجة تلعب، فقط تلعب.!

لذلك عندما رفع رأسها المغمور بزرقة المسبح ابتسمت، فاستعد لانتفاضتها مقهقهة كما كانت تفعل لتسلية التوأمين غير آبهٍ بتصلبها وبرودتها. وعند ذلك أقدمت هنية والخادمات على رفعها وسط عويل حاد، وسحبنها من الحديقة وسجَّيْنها في غرفتها بدقة،كأنهن تدربن على ذلك من فترة، بينما وضع ابراهيم وجهه بين يديه، واستقبل مثل مطر غزير منتظم كل تفاصيل الحياة التي استهلكاها معا، حليبها، خوفها عليه، بكاءها، فجيعتها بوفاة والده، صمتها، لعبها، سعادتها، شقاءها، جلوسها عند رأسه حتى ينام، حكاياتها، أحلامها، مهارتها في مقارعة الفقر والزمن، ظل مستغرقا في ذلك إلى أن نجح في إغضاب هنية فرفعت صوتها تذكره بأن الموت فرض علينا، ولو كانت تدوم لدامت لسيدنا محمد، فرد عليها متحسرا، ولكن سيدنا محمد ليس أمي!

ثم انتهى طقس الجنازة، ودخل ابراهيم في علبة سوداء فقد فيها القدرة على التصالح مع الحياة، فكان أن انكب على نفسه مستخرجا كل ما يعزز اقتناعه بعبث العيش في الأوهام، كان ذلك قبل أن يخضع إلى الاستسلام المهيمن على الساحة والذي أصاب جيلنا كله نصيب منه، مزيج من دزوشة، وتصوف علماني، وروحانية حديثة. كنت ألازمه في هذه الفترة العصيبة وأستغل استعداده النفسي، لأعترف له بأنني ألتقي بياسين، طفلا يحدثني في كل شيء، كأنه لم يذهب إلى الضفة الأخرى، فأراه يتقبل ذلك ويؤمن عليه بالتأكيد على أن الأرواح تتلاقى في استقلال تام عن أجسادنا الفانية.

وعندما كانت الشرطة تستدعينا لاستئناف التحقيق كلما جد جديد له علاقة بالتنظيمات الإرهابية، كان يرجوني ببالغ الجدية أن لا أقول شيئا لياسين. لاداعي لإزعاج الأرواح بما نفعله أو لانفعله!

- 4 -

التقيت بليلى لأول مرة، صبيحة يوم هادئ في بهو فندق هيلتون. اقتربت منها متأكدا أنها هي. كانت غارقة في كتاب، بينما الناس يجرون حقائبهم وهم يدخلون أو يخرجون من الفندق. وعندما رفعت رأسها مستشعرة دنوي منها، لم تدع لي فرصة للكلام أو لتقديم نفسي بل انطلقت متدفقة:

لاشك أنك الصحفي الذي انتدبته الجريدة لموضوع ساراماغو، جميل، جميل جدا أن تأتي مبكرا، إنه فال طيب أن أقع على صحفي يأتي مبكرا، الحديث؟ تقصد الحديث الصحفي مع ساراماغو؟ اِنس الموضوع تماما!، إنه من ذلك الصنف الذي يعتبر أن ما يكتبه هوكل مايريد أن يقوله، لاداعي للالحاح: أو انتظر، استعمل تقنيات الصيد والترصد والانقضاض على الطريدة، أو ربما يقرر من تلقاء نفسه أن يمنحك هذا الحديث، جرب أن تتحدث معه، أن تستدرجه أو أن تخادعه، لاشك أنك قرأت كتبه. أتمنى أن تكون قد قرأتها، لا أظن أن شخصا كهذا يمكن الحديث معه عن أي شيء آخر. إنه ليس متحدثا جيدا عن الطقس! أنا أقرأ «الانجيل حسب المسيح» أقرأه للمرة الألف. صدقني لايوجد كتاب آخر من كل ما قرأت يجعلني أشعر بهذه المتعة. هل تعرف؟ لايهم موضوع الكتاب إطلاقا، كيف ولد المسيح، وكيف نشأ وكي واجه أسئلة الحياة، وكيف التقى بالله، وكيف التقى بالموت، ما هي القصة ليس كما في الانجيل ولكن كما يحتمل أن يكون المسيح قد عاشها، وماهو الانجيل، هل هو الكتاب أم المسيح كما

عاش، أو كما يحتمل أن يعيش، كل هذا لايهم إطلاقا المهم، هو الكتابة، هو هذه الطريقة التي تصبح بها الكلمات والجمل أهم من الحكاية، شيئا خالصا، يمنحك إحساسا بجمال مجرد، لامضمون له، أو هو مضمون نفسه هل تفهم ذلك؟.

قلت لأول مرة وأنا أجاهد لوضع كلماتي في زحام تدفقها: - نعم، نعم، أفهم ذلك تماما. أنا قرأت أيضا «العمى» لأسباب شخصية تتعلق بوالدي، لكن هذه الرواية أصابتني باكتئاب جعَلني أضرب عن القراءة لعدة شهور! قالت وهي تجمع أغراضها متوترة.

-هل رأيت؟ ها هو قد خرج من المصعد دون أن ننتبه لذلك. إنه هناك، انظر إلى حركته، أقسم لك، لاعلاقة لهذا البطء بالسن أو بأي شيء آخر، لنتجه نحوه بسرعة، إنه نوع من التؤدة الذهنية، من هنا أفضل، هيا، نوع من التوقف عند كل تفصيل، يجب أن تكون لك قدرة خارقة لتفعل ذلك. عندما أفكر أنني مثلا أقضي جل وقتي في محاربة التفاصيل! يا لها من حماقة!.

ياسيد ساراماغو، أرجوك، لاتجعلنا نَلْهث خلفك، إنه الصحفي الذي حدثتك عنه لم أعرف اسمه بعد، سنتعرف عليه معا.

-يوسف الفرسيوي سمعت صوتي ينطق باسمي. ورأيت لذلك وقعا غريبا على محيا المرأة التي لم أرفع بصري عن وجهها منذ بدأت في الكلام.

قلت لخوسي ساراماغو ونحن في الطريق إلى فاس:

- وإذا في نهاية المطاف، الانجيل حسب المسيح، أو الانجيل حسب الوحي، وجهان لعملة واحدة. لأن الخيال ضروري في الروايتين، والرواية ضرورية في الحالتين. ابتسم وهز رأسه بطريقة لاتفهم منها أنه موافق أو

غير موافق، عند ذلك قالت ليلى.

- إنما الرواية تسمح بتعدد الاحتمالات بما في ذلك تلك المتضمنة في الوحي، أما الوحي، فلا يسمح بغير روايته.

ضحك ساراماغو، ولم يعلق بشيء. ونظرنا جميعا صوب الحقول المخضرة التي فاجأها مطر نونبر. وقلنا بطريقة متفاوتة الإخلاص إنه صباح جميل، قبل أن تعلن ليلى أنها ستأكل الفطائر التي أحضرتها. هل نريد منها نحن أيضا؟ لا، حقا لا أريد، ولا يريد هو الآخر. كما لايريد أي حديث عن الأدب، يسألني عن الصحراء، وعن المفاوضة مع الانفصاليين، وهل يسير المغرب نحو ديمقراطية حقيقية أم أن هناك من يحن إلى الحكم الحديدي، وماهي قوة التيار الديني وماهي المصالح اليوم، وأين هي المصالح المضادة؟؟.

قدمت أجوبة باردة، تبرما من هذا الاستنطاق، ولأنني لا أملك أجوبة غيرها.

-إنكما تفسدان مزاجي بهذا الحديث. قالت ليلى. إنني لا أفهم كيف يمكن لشخص واحد أن يكتب بكل تلك الرقة عن علاقة المسيح بأمه، وبالمجدلية وبالشيطان، ويهدر وقتا ثمينا في الحديث عن حق تقرير المصير «للشعب الصحراوي»، هل تعرف ما يفعل البشر في الصحراء ياسيد ساراماغو؟ إنهم يسرحون في البراري، ويأكلون ويتوضأون ويقرضون الشعر على الطريقة الجاهلية، ويسمنون النساء، ويتناكحون وهم يتحدثون بأصوات عالية حتى لا يسمع الأطفال صنيعهم! هل تعتقد أن أحدهم سيغمى عليه من السرور إذا علم أنك مهتم بتقرير مصيره؟!.

ضحكنا كثيرا وعندما هدأ الوضع قالت ليلى:

- إن ما يدهشني حقا هو هذه القدرة السحرية التي تملكها أنت وأمثالك

على التعبير عما نعرفه كلنا في أدق تفاصيله ولا نستطيع التعبير عنه، فقط لأننا لانملك تلك الوسائل السحرية التي تملكونها، أحيانا أشعر بالغيظ لأنك تقول بالضبط ما أحسست به منذ زمان ولكن لم أعرفه على وجه الدقة إلا حين قرأته، لا أعرف ما رأيك في الموضوع، ولكنني شخصيا أعتبر الدقة هي أفضل تجليات الجمال.

لم تقع هذه العبارة على مسمعي، بل على عنقي وكتفي، ليس فقط لأنها جاءت من المقعد الخلفي للسيارة، بل لأنها كانت واخزة، ثقيلة الوقع، ومحركة لأسانة الموات الذي أقبع فيه منذ فترة. أحسست أن العبارة موجهة إلي، في نوع من المواساة غير المقصودة، وبالفعل فإن الدقة في العلم والطبيعة والفن هي الأقدر على تجسيد فكرة الجمال دون التشويش عليها بعاطفة مّا.

إن إدراك عناصر الطعم المتجانس والمتناقض لقطعة سمك نيء، دون أن يطغى أي منهما على الآخر، ودون أن يتوارى أحدها أو يتأخر أو يتقدم، وبزوغ الملح في لحظة محددة، قبل البهار، وبعد الليمون بجزء من الثانية، ثم انسحاب المادة وبقاء الأثر، بكل تلك العناصر، مع إضافة عنصر جديد هو الزمن الذي يستغرقه الأثر في بسط نفوذه إلى أبعد نقطة في الجسد، ثم الانسحاب تاركا خلفه أثرا آخر للأثر، ثم أثرا آخر لأثر الأثر وهكذا، هذه الدقة في تركيب الشيء وفسخه، في انبثاقه وانسحابه، هي التي يمكن أن تلد تلك المتعة التي نسعى إلى تأبيدها بيأس كامل محاولين نقلها من المحسوس إلى المدرك أي من اللادقّة إلى الدقّة ونحن ندرك هول التراجيديا الكامنة في الجمال لأنه خارج هذه الدقة، الذهنية لايمكن أن يكون إلا عابرا.

عندما وصلت إلى تحديد هذا الأمر كما أوحت لي به عبارة ليلى.

توقعت أن أنتشي لذلك، لكن اكتئابا شبيها بما كان يحدث لي في نوباتي السابقة داهمني فجأة، فغالبت ذلك بمكابدة فوق طاقة الإنسان، بينما استمر الحديث في المقعد الخلفي وكنت أسمع فيه صوت ليلى يظهر ويختفي، وهمهمات ساراماغو.

-أعترف لك، أنني في البداية وجدت روايتك تنويعا على منتوج قديم، ثم قادتني الكتابة إلى الإحساس بأن الشياطين هم مرايا الأنبياء، وأن الخير لكي يكون خيرا، لابد أن يتضمن أيضا جذوة الشر. لكن الموضوع لايهم، مهما يكن فنحن لا نبحث عن قناعة، ونحن نقرأ الرواية. إن المسيح الذي جعلته يخرج من عباءة الوحي، سرعان ماعاد إليها راعيا وصيادا وعاشقا ونبيا، يتألم ويشتهي ويخاف ويأتي المعجزات، ويمضي نحو صليبه حيث لن يجد في نهاية المطاف سوى الشيطان نفسه لاستقبال قطرات دمه، في الصحن الخزفي الذي انبثق من الأرض في اللحظة التي انبثق فيها المسيح من العدم.. إن هذه الحياة هي التي تحولت إلى إنجيل.. . أليس كذلك؟.

- همممممم...

- أقصد، هناك التباس دائم في موضوع الوحي! من يوحي لمن؟!

- همممممم...

- تقصد لا أم نعم؟!

- همممممم!

-لا ونعم إذاً! لايهم، صدقني الكتابة أهم من كل الأناجيل. ليست مسألة إيمان، أنا شخصيا مؤمنة. بذلت جهودا مضنية لسنوات كي أكون ملحدة ففشلت.

- ها.. ها.. ها.. ها!

مع ذلك، لا يزعجني أن تضحك. أنا مؤمنة، والله يحبني، أنا واثقة من

ذلك!.

ثم دار حديث هامس لم أتبينه، أولعلني أغفيت فخف الحديث في مسمعي ثم أحسست أن جسدي كله يؤلمني، وأن هذه السماء الزرقاء، والأرض اليانعة والإضاءة المغسولة ليست سوى تحايل لإخفاء تعاستي.

عندما وصلنا إلى الفندق، لم أستطع النزول من السيارة ولم يسألني أحد لماذا. كنت مخدر الأطراف، ونادما على المجيء، ومشغولا بالتساؤل عما إذا لم نكن جميعا في حاجة إلى إعادة كتابة حياتنا، وإخراجها من عنف القراءة الواحدة، وبالنسبة لي شخصيا، كنت أفكر فيما كانت ستكون عليه قصتي لو لم أفقد ياسين، وكيف كان ياسين سيستمر حيا لو لم أكن أنا كما أنا. ثم أخيرا أفقت على وجه ليلى وقد فتحتِ السيارة وانحنت علي متوترة خائفة:

- هل أنت بخير، هل تريد أن نذهب إلى مصحة؟ هل تقدر على المشي؟ يا إلهي، ماذا حدث؟.

كنت أراها بعيدة بينما أنفاسها تتردد على وجهي وكانت ملامحها تتغير باستمرار من امرأة أعرفها إلى امرأة لا أعرفها، ثم الى امرأة أتذكرها.

-إنه لشيء مقرف حقا، كيف غادرنا السيارة ولم ننتبه إلى أنك لم تكن على مايرام؟!.

- لا لا لا، إنني بخير. يحدث لي أحيانا أن أنسحب هكذا. أنا آسف.

-ولكننا صعدنا إلى غرفنا، وهذا السائق الأَخرق راح يدخن ويشرب قهوته أمام المسبح.. ولا أحد انتبه إلى أنك بقيت في السيارة. إنه شيء مرعب حقا!.

-لا تبالغي. هل مضى وقت طويل؟!

- حوالي ساعة، يجب أن تكرهني!

- آسف جدا لا أستطيع أن أكرهك.

ونحن ندخل بهو الفندق شعرت أنني استعدت كامل قدراتي وأن معنوياتي ارتفعت وأصبح بإمكاني أن أنسى ما جئت من أجله، وأتوقع أشياء أخرى لايمكن التنبؤ بمفاجآتها.

أخذت حماما طويلا، ونزلت إلى المطعم لأجد ليلى تنتظرني في طاولة لشخصين. ففهمت أن ساراماغو لايرغب في النزول من غرفته، ولابد أن ذلك أسعدني أو أنني بتعبير ما في ملامحي تركت انطباعا بذلك. لكن ليلى كانت حزينة، وربما بكت قبل أن أجيء لا أعرف لماذا، ثم سرعان ما استعادت حيويتها وتدفقها في الحديث، كان الكلام في فمها يكاد يكون سعيدا نظرا لذلك التدافع المرح للكلمات، ولتلك الطاقة على استباق الأفكار والصور، كأنها ترقص أمام جملها.

قلت: إنه لايعرف ماذا يخسر باعتكافه رأسا لرأس مع ذاكرته العجوز!.

ضحكت فكان لذلك وقع هواء بارد هب على طاولتنا. وتأملتها مرة أخرى بعين حائرة فرأيت ارتعاشة تعبر وجهها فَأَطْرَقْتُ، وقبل أن أرفع بصري نحوها من جديد قالت إنها كانت تسكن قبل سنوات هي وزميلة لها في نفس العمارة التي أسكنها بحي ابن سينا.

- كنت أراك يوميا وكان يغيظني أنك لم تبد أبدا ولو ذرة اهتمام واحدة بشخصي المتواضع!.

هكذا أسفر العشاء عن تقاطعات غريبة لذاكرتين نائمتين.

في العمارة التي كنت أسكنها لا أتذكر أنني التقيت امرأة تشبهها لكن إذا كنت قد رأيتها قبل سنوات فإن أغلب الظن أنني التقيت بها في درج هذه العمارة أو في الساحة المؤدية إليها. ثم لعلني التقيت بها في حياة

أخرى، وضيعتها كما ضيعت أناسا كثيرين، ربما أحببتها لفترة قصيرة أو طويلة، لم أعد أذكر، ربما انتظرتها عمرا كاملا ولم تصل، أو وصلت ولم تجدني. هاهي الآن أمامي في حياة أخرى، وليس لدي ما أسعدها به، غير حديث عابث عن هذه المحاولة اليائسة لبناء صرح ضخم، قصر بألف باب وبباحات لا تنتهي، وغرف في قلب غرف، قصر من الكلمات والرؤى، تسكنه رغباتنا المنسية، ومخاوفنا، وحذرنا من أن نعود منها إلى أكواخنا الصغيرة، حيث لايوجد أي تعارض ممكن بين الحال والاحتمال. قالت ليلى ربما كنت مغرمة بك. ولم تعرف، ولم أعرف أنا أيضا على وجه التحديد. كنت تعطيني انطباعا دائما بأنك غائب كأنك تصعد السلم أو تنزل وأنت تمشي في أرض أخرى!.

قلت: هذا إذا كنت أنا فعلا من كان يصعد السلم أو ينزله! ردت بحسم.

أنا متأكدة من ذلك. هناك شئ منطفئ في عينيك مايزال حتى الآن... لايمكن أن أخطئ في هذا الأمر.

تذكرت أنني في تلك الفترة بالذات، لم أكن منطفئا ولا مكتئبا، كنت في عز أوهامي أعتبر أن الأشياء تستجيب إذا أردنا منها ذلك، وبدا لي ذلك الزمن من علياء هذه اللحظة التي أعيشها الآن زمنا خفيفا، جذلانا وغير مستعص على الترويض، كما بدا لي أن كائنا مثل ليلى ممكن في كل الأزمنة، وأن علاقتي معها يمكن أن تتخذ شكل بناءٍ مرتدٍّ إلى الماضي، لم لا؟ أليست العلاقات التي نخطئها هي أيضا إمكانيات فعلية لرابط من نوع آخر، أليست كل علاقة احتمالا واحدا من عدة احتمالات وليس بديهيا أن نعثر على أفضلها في هذا الاحتمال. وضعت هذا التساؤل على ليلى فأجابت.

-وليس بديهيا أن نعثر على أسوإها في هذا الاحتمال. أيضا؟
قلت:
-في النهاية أكاد أجزم أن كل واحد منا وليس فقط مسيح ساراماغو يتوفرعلى بيوغرافيا إلاهية وأخرى تنبع من المسارات الملتوية لحياته.
ثم قلت لها: إنني لا أفهم لماذا تحب لهذه الدرجة رواية عادية جميلة ولكنها عادية، ولم أكمل جملتي حتى اكفهر وجهها فأمضينا وقتا طويلا نحاول الخروج من مأزق هذا الخلاف الناشب على حين غرة.. ثم بعد بضع جمل متعثرة عادت لتدفقها.
-اسمع، كلنا نعرف أن الشيطان منذ رفض السجود لآدم وهو ينفذ تهديده باغواء البشر ما استطاع، ودفعهم نحو الرذيلة والسقوط، والوقوف لهم في كل طريق، فجأة ونحن نقرأ هذا الكتاب نكتشف أن هناك احتمالا آخر للشيطان كما لو يكون الشيطان بفعل الزمن، وبفعل كل المآسي التي تراكمت على يديه أو وراء ظهره، قد تغير، وأصبح قريبا من حكمة ودودة لاعلاقة لها بالتهديد الذي نزل من أجله من الجنة.
قلت:
- كنا لا نحتاج إلى الرواية لنزعم ذلك! ردت: ولكن الرواية هي التي ابتكرت هذه الفكرة المثيرة أن يرى الأنبياء أنفسهم في مرايا الشياطين، في نوع من التعارض والتماثل، لأن تدبير البشر يقتضي هذا الائتلاف الضروري لاستمرار التأرجح الذي بني عليه العالم بين الضلالة والهدى.
منذ كان المسيح في بطن أمه، حضر الملاك العملاق في هيأة متسول حسب الرواية، وقال لمريم إن الطفل يظهر في عيني أمه بمجرد ما تحبل به، وابتداء من هذه اللحظة سيلازم الملاك العملاق المسيح منذ ظهوره في عيني أمه إلى حين موته. سيلازمه كأنه احتمال آخر له، كأنه صوته

الآخر المترع باليقين والشك والالتذاذ والشعور بالذنب، بل أكثر من ذلك سيخضع لنوع من التدريب على يديه سنوات خلف قطيع أغنام قبل أن ينصرف إلى قدره.

قلت: ولكنك قلت إن مايهمك في الرواية هو الكتابة وليست الصيغة الأرضية للمسيح، الكتابة كإنجيل جديد حسب مسيح آخر؟.

-نعم، إنها في النهاية مسألة شخصية، لقد بدا لي أن هذا التركيب يجيب على بعض أسئلتي. وأن أشياء بسيطة من حياتي الخاصة تطابقت تماما مع بعض الصور التي التقطتها من الكتاب، مما جعله يتحول بشكل مبالغ فيه إلى انجيلي الشخصي.. من ذلك مثلا أنني أحسست عندما حملت بابنتي بخواء كبير، وكان ذلك يضايقني، بل ويعذبني، لأنني لم استسغ الشعور بالخواء، وأنا ممتلئة حقا وليس مجازا. وعندما قرأت في الرواية أن مريم وهي حبلى بالمسيح قد شعرت بنفس الإحساس، جعلني تفسير الكاتب أقفز من مكاني، فقد زعم أن الخواء هو خواء كل ما حولها، فبدالي ذلك مقنعا بشكل معجز!

أكلت ليلى صحنا كبيرا من الطماطم والجبنة البيضاء والحبق وزيت الزيتون، ثم صحنا بكبد البط على الطريقة الفرنسية، أكلت بشهية دون أن تتوقف عن الحديث، وأكلت أنا صحنا من شرائح سمك السلمون المدخن مصاحبا بالبصل والليمون. وقطعة لحم سميكة شبه نيئة، دون أن أتبين في أي لحظة أيهما كان الآخر، لأنني لم أمتلك التركيز الكافي للإحساس بذلك، وعندما كنا على أهبة مغادرة المطعم كان وجه ليلى متوردا فوضعت يديها على وجنتيها وقالت:

-انظر إنني ملتهبة!

قلت دون أن ألمس وجنتي

- وأنا أيضا!

عندما لفظنا المصعد، كنت أنظر إليها كأنها تمشي في بهو الطابق الرابع بحي ابن سينا، وكنت ما أزال أتأمل جسمها المتحفز، وميله الخفيف يمينا وهي تمشي عندما استدارات قائلة، - كأننا نعبر بهو طابقنا القديم.

وكنت سأقول لها بأن ذلك ما كنت أفكر فيه بالضبط، عندما أضافت:

-ولعلك كنت تفكر بنفس الشيء!.

عند ذلك، تحركت وقد يئست من مجاراتها، وجعلني حدسها أشعر بكثافة حضورها ودقته، وقدرتها على أن تكون في الموضع المناسب الشيء الذي جعلني أتأكد من أن وجودها هنا والآن لايمكن أن يكون مصادفة عابرة، إنه إشارة قدرية نفاذة.

كنت أتلقى سحرها دون أن يغمرني شعور بجوهره، أو حتى بإمكاناته المرجوة. لم أستطع أن أتبين في هذه اللحظة مدى ما ستؤول إليه خطواتنا المضطربة في هذا الممر المعتم الذي لم نتمكن فيه من قراءة أرقام غرفنا، إلى أن وجدتني أحملها ولا أحملها، أتقدم بها في ممر لاينتهي وأحس بذراعيها حول عنقي مثل غصنين باردين، أجلستها على حافة السرير، ووضعت يدي حول وجهها، وتأملتها مغمضة العينين دون أن تقول دواخلي شيئا، كأنني ألمس كائنا من زمن سحيق.

-قبلني أرجوك!.

لم تكن هي. كما عبرت بهو الطابق قبل قليل ولا تلك التي حملتها ولم أحملها، كانت فتاة من تلك السنوات البعيدة، ذات يوم ممطر، وجدتها ترتعش قرب الصفصافة العارية، مبتلة، شبه زرقاء من البرد والخوف. ولم أتبين ما كانت تهذي به، لكنني فهمت أنها جرت من موقف الحافلة حتى هنا تحت مطر عاصف، ثم لم تعد تقوى على شيء.

-..«ووقفت هنا تحت الشجرة، لأن الماء غمر كل جسدي وأطرافي صارت جامدة»

-ولكن الشجرة عارية تماما، وهي أيضا غمرها الماء، وأصبحت أطرافها جامدة!

-لم أنتبه لذلك.. حقا لم أنتبه لشيء، كنت أنتظر سقوطي جثة هامدة، وفضلت أن يحدث لي ذلك وأنا واقفة هنا، لتجدني زميلتي عند عودتها!.

أمضيت وقتا طويلا أحاول تجفيف شعرها ووجهها وأطرافها دون أن أفلح في ذلك قبل أن تقول من خلال ارتعاشها:

- أظن أنه من الأفضل أن آخذ حماما ساخنا وأغير ملابسي.

ساعدتها على التخلص من ملابسها المبتلة وعلى دخول الماء الدافئ، وعلى تدليك جسدها، كل جسدها من فروة رأسها حتى أصابع قديمها النحيلة الشفافة. تبعت بأصابعي دبيب الحياة التي اندلعت فيها منذ أول لمسة، ومشيت في صخبه المكتوم، كأن جسدي أصبح كله حركة تخترق نبضها كأنني أفعل هذا الذي أفعله، ليس لأنني عثرت عليها في الحالة التي كانت عليها، بل لأنني كنت سأفعل ذلك حتما مهما كانت الظروف تنفيذا لرغبة غامضة في أن يحدث هذا، بالوداعة التي حدث بها وتعبيرا عن إمكانية أخرى لوجودنا، غير تلك التي تصنعها الرغبات المدروسة، إمكانية مقرونة بالاستحالة والنسيان.

في إحدى حلقات «رسائل إلى حبيبتي» كتبت مايلي:

«كنت تجلسين على حافة السرير عندما لمستك. وضعت وجهك الدقيق بين يدي، لا أتذكر هل كان ملتهبا، أم باردا مبتلا. أتذكر فقط أنه كان يكاد يختفي بين يدي الكبيرتين وكانت شفتاك وحدهما تنبضان في هذه اللوحة. وتقولان قبلني أرجوك. ولا أتذكر أنني قبلتك. لا أتذكر ما

الذي حدث بيننا في تلك الظهيرة البعيدة. لا أتذكر وجهك. أتذكر أنني حملتك في درج عمارة ما، أو في شقة قليلة الاثاث بين السرير والحمام. وأنني لمحت ونحن نمر لوحة في الجدار، مائلة قليلا، تعبر سوادها الغامق حركة طائشة صفراء. قلت: سأرجع في ما بعد لضبط اللوحة، لايجمل بها أن تكون مائلة هكذا لأن الخيط الضوئي الذي يعبرها يصبح ثقيل الوقع. قلت دون أن تكوني غاضبة ولا محتدة: «جومونفيش دوطابلو..» متى كان ذلك؟ لم أعد أتذكر شيئا. هل حدث في حي ابن سينا، أم في غرفة بفندق ما؟ لم أعد أتذكر هل كان ذلك عندما كنا نخرج معا أم قبل ذلك أم بعده بأعوام؟؟ وما الذي حدث عندما حملتك وأجلستك على حافة السرير، أو عندما أجلستك، ثم حملتك، ثم حملتك ولم أحملك؟ هل وضعتك حقا في ماء دافئ ودلكت أصابع قدميك الصغيرتين؟ مستحيل! لايمكن أن أكون قد فعلت ذلك! ولكن، من أين تأتيني كل هذه الصور متأرجحة بين اليقين والوهم، بين التذكر والاستيهام؟ وكيف أقر على واحدة منها وأستريح؟ كيف أعرف أنك لم تكوني أبدا قبل هذا اليوم، أو أنك كنت دائما هنا في هذا الركن المعتم من ذاكرتي؟ ولماذا لا تقولين أنت؟ لماذا لا ترجعين وقد عرفت على عكس ما كنت أدعي، أنني أحبك أكثر من أي شيء آخر في الدنيا؟ هل عرفت حقا؟ من أين لي أن أعرف؟.

أكتب إليك وأنا حزين جدا، لأنني عثرت في مكتبتي على رسالة وصلتني منك في السنة الماضية ولم أقرأها. ذلك أنني لم أتذكر اسمك المكتوب على ظهر الغلاف، ولا المدينة التي بعثت منها الرسالة فوضعتها بين دفتي كتاب ثم نسيت أين وضعتها. وعندما وجدتها بعد شهور وتعرفت على مصدرها خفت أن يكون فيها شيء يجعلني أموت من الحزن لكوني لم أقرأها، فألقيت بها في المدفأة ولم أندم على ذلك لأنني نسيت ما

فعلت بها. وها أنا أتذكره الآن.. أتذكر الحكاية كلها في ارتباط لا أفهمه مع وقوفك مبتلة تحت شجرة الصفصاف العارية! إذا قرأت رسالتي اليوم أرجو أن تبعثي لي إشارة صغيرة لعلي أفهم منها أنك غير ناقمة عليَّ لأنني أحرقت الرسالة...».

في صباح اليوم التالي أفقت منهكا وأمضيت وقتا طويلا أبحث في ضباب إفاقتي عن برنامج اليوم، وعندما اتضح لي تحاملت على نفسي وذهبت مباشرة تحت الماء.

عندما كنت أغادر الغرفة وجدت ظرفا مدسوسا تحت الباب ووجدت داخله ورقة بيضاء فخفق قلبي لذلك وفهمت أن الأمر له علاقة بشيء انتظره لم أعد أعرف ما هو. وعندما وجدت ليلى وضيفها على مائدة الإفطار تمنيت أن أفك ارتباطهما في أقرب وقت لأتمكن من رؤيتها عارية من هذه الصحبة الأسطورية. كانت ليلى رائقة ومرحة، بينما ضيفنا الكبير غارق في صحن الفواكه، يمضغ بتأن مستغرق وينقل عينيه الدامعتين بين وجوه المطعم وأشيائه كأنه يتوقع لقاء شخص ما.

تبادلت مع ليلى نظرة كثيفة جعلتني أشعر بنوع من الصفاء الداخلي، صفاء من لم يعد يؤرقه شيء. قلت في نفسي مستسلما للسكينة التي منحها لي هذا الصفاء، ربّما وصلت إلى المحطة النهائية من حياتي حيث سأضع مثلما يفعل المسافر حقيبته على الرصيف، دون أن أعرف من شدة تعبي هل وصلت أم أنني على وشك الذهاب. في لحظة ما ينفصل الإنسان عن مساره ويصبح ورقة معلقة في الفراغ. وعند ذلك يتخلص من ضغوط هذا المسار، ويصبح قادرا على الانغمار بكل وجوده في أي مغامرة محتملة لأنه لم يعد مطالبا بتبرير أي شيء، ولا بإعطاء دليل قاطع على شيء، لأنه أصبح ببساطة شديدة متحررا من المستقبل، مثلما يكون مات من عهد سحيق،

وما يعيشه الآن هو مجرد مايتذكر جثمانه الطاهر في ذلك المستقبل الذي بلا ضفاف.

هبت ليلى واقفة فذعرت لذلك. قالت معتذرة:

-كنتَ ساهما؟

-قلت

- كنت جالسا على حقيبتي في هذا الرصيف الضخم.

وكنا في طريقنا إلى مدينة وليلي الأثرية عندما أعلنت ليلى فجأة أنها تكره الأنقاض، قلت إن الأنقاض لها روح، خلافا للأبنية. لكنها كانت مصرة على موقفها، وادّعت أن الخراب الأكثر جمالا هو الذي نراه حولنا كل يوم فيما يتهاوى من أحلام.

قلت: ولكن ما تقولينه ليس سوى صورة شعرية. أما الانقاض فهي الأرواح الحجرية التي نستخرجها من أحشاء الأرض، ردت ساخرة.

- أما ما تقوله الآن فعلم دقيق وليس صورة شعرية!.

فضحك ساراموغا لأول مرة منذ بداية رحلتنا. الشيء الذي أغاظني، فقضينا الوقت الفاصل بين فاس وزرهون عبر «زكوطة» نشتغل منفصلين على عالمين.

كنت أفكر في الفرسيوي. والدي الذي يختم حياته دليلا أعمى في أطلال المدينة. كيف سأقدمه. كيف سيستقبل ليلى. وكيف أنجو من هذيانه إذا قرر مرة أخرى أن يلعب لعبته الأثيرة؟!

وكانت ليلى في المقعد الخلفي تواصل الحديث عن مغامرة المسيح بزورقه في العاصفة البحرية. وقد بدا لي أنها تبذل جهدا متكلفا للفصل بين الإعجاز المقدس، والإعجاز الأدبي. والتأكيد مرة أخرى على أن المعجزة في صيغتها الأدبية تأخذ بعدا واقعيا يكسبها جمالا مدهشا، لايوجد في

الصيغة المقدسة. ربما لأن الإيمان في هذه الأخيرة هو أساس الاحساس بالمعجزة، وهو شيء لا ينبع من النص. ولم تنجح ليلى رغم إلحاحها في إخراج الكاتب من صمته حتى خيل إلي أنها تحدث نفسها، وأننا لم نصطحب الكاتب أصلا، بل روايته فقط، لنجعل منها تعلة لنسج نص حسب روايتنا.

كنت أفكر بالأطلال التي يجوبها والدي كل يوم، أطلال لاعلاقة لها بالرومان، ولكن به شخصيا، وبكل ذلك الجهد الذي يبذله ليهون على نفسه إذلال هذه النهاية، كنت أراه يستعرض فصاحته الألمانية متعمدا أن ينطق الحروف واحدا واحدا مبرزا كل تلويناتها الموسيقية، وأسمعه يحشر في شروحه تعليقات لاذعة عن المدينة التي أسلمته لهذه الخرائب في انتقام شرس من أيام مجده، وأراه في زورقه المتداعي يواجه أنواء لايراها تأخذه في زوبعة طاحنة يجذف بصوته لمواجهتها.

وكانت ليلى ونحن على مشارف المدينة تروي مشهد الزورق مأخوذا في الحضرة الربانية، والمسيح يجذف كأنه مازال لهذه الحركة معنى تحت وطأة هذا اللقاء، انظر كيف أن الإنسان يظل مشدودا إلى جسده، حتى عندما لايصبح لجسده أي معنى، وقد التقى بالله في غمرة ضياعه ويأسه.

وبما أن هذا الإلحاح على الرواية كان قد أوصلني إلى حد من اليأس، فقد استدرت على حين غرة نحو المقعد الخلفي وقلت:

-هل تريد أن تعرف ياسيد ساراماغو رأي شخصي المتواضع في روايتك؟.

فرد على الفور:

-لا.. لا.. لا.. أبدا، لاتتعب نفسك... لا أريد إطلاقا أن أعرف رأيك.

عند ذلك رجعت إلى نفسي، وسحبت هاتفي المحمول من جيب

سترتي، واتصلت بفاطمة. قلت إنني في أنقاضي القديمة، في بيت جوبا وباخوس والآخرين، في قصر فرعون، في العبير الترابي الذي لم يعد يستقبلني، في المشهد السحابي الذي ترتعش في مراياه كل تلك الأعمدة المنسية والأقواس، والمعابد والمعاصر والبيوت المشرعة للريح.

كانت ترد من حين لآخر أوه.. أوه... أوه... وتهم بالكلام فأقاطعها بما يشبه هذيان والدي.

-سأدخل قصر الانقاض مرة أخرى. كل واحد في هذه الدنيا يتصور أن بإمكانه أن ينقذ شيئا من تحت الانقاض.

-أوه- أنا أيضا أتصور ذلك.. هل تريد أن الحق بك هناك؟.

لا لا، سأعود هذا المساء، ونبدأ معا إذا شئت حفريات جديدة بالمناسبة!

قالت فاطمة: سأهيء حقل التنقيب!

عندما أنهيت المكالمة كان الصمت مطبقا في السيارة وكان ممر الزيتون المفضي إلى وادي «خمان» يستقبلنا كما كان يفعل دائما مع الغزاة والعابرين، بلا عواطف، ولا مزاج خاص.

في المبنى الخارجي للموقع الأثري، كان والدي يودِّع فوجاً من السواح الألمان، وسط صخب هائل من الضحك والمصافحات الحارة... وما إن نزلنا من السيارة بأصواتنا الخافتة، حتى تقدم نحونا، مدركا أن الأمر يتعلق بوفد جديد. حتى إذا اقترب منا، صدح بجملته القرآنية الأثيرة:

«إني لأجد ريح يوسف لو لا أن تفندون».

-قلت مغالبا تأثري:

-أنا يوسف، وهذه ليلى، وهذا خوسي ساراماغوا! هل ماتزال حيا ترزق؟!.

-طبعا.. طبعا، من يستطيع الإفلات من الحياة؟! لايمكنك أن ترجع إلى الوراء. ولايمكنك أن تهرب إلى الأمام، الحياة كما تعرف ياولدي ورطة حقيقية: أليس كذلك ياسيد... قلت من يا يوسف؟.

-سارامغو!

قال سارامغو لأول مرة بانخراط حقيقي وهو يستمع إلى ليلى تترجم له.

-نعم، نعم، فعلا! ورطة حقيقية!.

حجر «الزاوية»

- 1 -

دخل «الفرسيوي» رحاب «الزاوية» ذات صباح من أيام أكتوبر الباردة الجافة في بداية السبعينات، شهرين بعد رجوعه من ألمانيا، وقد اصطحب معه ثلاثة فقهاء من دوار بومندرة، وتوجه مباشرة إلى ضريح المولى ادريس الأول حيث أشرف بنفسه على قراءة ما تيسر من كتاب الله ترحماً على الولي الصالح، واستحضارًا لبركته، قبل أن يخرج في موكبه الصغير ويذهب رأسا إلى «قاعة الزيت» وسط السوق الداخل حيث كانت تجري سمسرة كرائها وسط اقتناع عام بأنها ستكون لامحالة وكما في كل السنوات الأخرى من نصيب الشريف الإدريسي مولاي عبد الله القري وشركائه، فما إن انتصف النهار حتى كانت قد رست وسط ذهول الحاضرين والغائبين على الفرسيوي، ابن بومندرة، وسليل أهل الريف، عقودا طويلة بعد وصولهم إلى هذه الأصقاع، وخضوعهم فرادى وجماعات إلى ازدراء السلالة الشريفة، فكان هذا الحدث التاريخي مقدمة لأحداث أخرى بعضها يمسك بتلابيب بعض، إذ لم يمض أسبوع واحد على هذه الصفقة المزلزلة، حتى كان الفرسيوي قد اشترى محطة الوقود الوحيدة التي تشتغل بمضخة يدوية، ودار القايد الغالي، ومنزل قطيرة، وسبع دور خربة بأحياء الحفرة وتازگة، وخيبر. فاتحا أمام أبناء جلدته من الريف طريقا واسعة معبدة لدخول المدينة دخول الفاتحين، لم يمض عام واحد، حتى أصبح الشرفاء الأدارسة وما كان يسمى بأثرياء البلد من أهل

فاس المتاجرين بالأثواب والمواد الغذائية والغلل مجرد خدام في شبكة الأغنياء الجدد بزعامة محمد الفرسيوي الذي يتكلم حسب المعجبين به سبعة ألسن، ويملك سيارة مرسيديس بجلال قـدرها، ويناقش زوجته الألمانية بحدة وهما يخترقان المدينة. أما الصبية الذين كانوا يتفرجون على هذا المشهد المدهش، فقد كانوا يتساءلون عما إذا كانت النصرانية تذهب هي أيضا إلى المرحاض وتأتي ما يأتيه الناس من مباذل رغم عينيها الزرقاوين.

وعندما كان الفرسيوي وزوجته يجلسان في المقهى ويطلبان الشاي كما في السينما حسب تأكيدات شهود عيان وصلت بهم المغامرة حتى سينما أبو لو بمكناس، كان عدد هائل من النساء الملفوفات في عباءاتهن الصوفية والرجال المتثاقلين، والأطفال المتوترين يتكدسون في الرصيف المقابل ويتزاحمون وسط ضوضاء هائلة ليتفرجوا على الريفي الممشوط «بالبريانطين»، وعلى زوجته المصبوغة الشفاه والعارية الساقين.

ثم سرعان ما تراجع هذا الفضول العام بتوالي الأيام والشهور وحلت محله قصص الصعود الباهر لهذا الرجل القوي البنية، الحاد النظرة، والذي لايترك لخصومه ولو هامشا صغيرا يتنفسون فيه.

هكذا استطاع الفرسيوي بعد ثلاث سنوات فقط أن يضم إلى امبراطوريته حقول الزيتون الممتدة من سفح بني عمار حتى مشارف سهل بورياح، حيث لم تُفلت من سطوته سوى أراضي الأوقاف والجموع التي كان يدخل في مزادات لكرائها السنوي فلا يزاحمه أحد في الفوز بها.

وبموازاة مع ذلك لم يترك أحدا في بومندرة، ولا في أي مدشر آخر من مداشر الريف، لم يشركه في بقرة أو نعاج أو ماعز، ثم تفطن إلى أهمية ومستقبل الخروب التي لم يكن لها أي شأن في السوق، فاستحوذ على

حقولها المتناثرة في باب الرّميلة وفي جبل زرهون برمته، حتى استحق جراء ذلك لقبه الجديد الحاج الخروبي، بمجرد ما أنشأ مع شركاء له معمل معالجة الخروب بمدينة فاس الشيء الذي رفع ثمنها إلى أزيد من ألف درهم للقنطار الواحد.

وتأكد جليا أن أهل الريف الذين كانوا أقلية مضطهدة قد أصبحوا بعد امتلاكهم لأحياء جديدة بأكملها في عين الرجال والمصلى، وبلاد بوشحمة، والقليعة، وواد الميت، وسيدي صابر.. سادة المنطقة، حتى أن بعض وجهائهم تزوجوا حرائر الأدارسة، وأصبحوا يستقبلون الزوار والوفد الرسمي لموسم المولى إدريس الأكبر. وهيمنوا على تجارة الذبائح والشموع والحلوى، ووصل بعضهم ممن توسعوا في البنيان إلى حد الإشراف المباشر على حفلات المديح والسماع رغم كل الضجر الذي يلحقهم من ذلك، متوسلين لخالقهم أن ينهي في أسرع وقت ممكن عويل تلك الكائنات الرخوة، التي تردد أشعارا وأنغاما ليس مفهوما فيها سوى الصلاة على النبي.

ثم عَنَّ للفرسيوي أن يدخل غمار تجربة جديدة، بعد معاصر الزيتون الحديثة، وشبكة التجارة، فأنشأ «فندق الزيتون» في الهضبة المطلة على أطلال وليلي.

وقد قضى الفرسيوي زهاء خمس سنوات يشيد هذه المَعْلَمة الرائعة، وخاض حروبا شعواء من أجل الأرض ثم من أجل الماء والكهرباء، ثم من أجل تعبيد الطريق المؤدية إلى الهضبة، حتى استوى الفندق شرفة مطلة على المعالم الأثرية لمدينة وليلي حيث تغرب الشمس كل يوم متوارية خلف أعمدة المعبد وقوس كراكالا.

وعند ذلك تربعت ديوتيما زوجته الألمانية على عرش الاستقبال، في

بهو أسطوري، تزينه فسيفساء على الطريقة الرومانية تمثل جد الفرسيوي وسط حوريات العين التحية، وبن عبد الكريم مستسلما للضباط الفرنسيين، والفرسيوي نفسه يصارع ثعابين الغابة الحرشة، وتؤثث أركانه منحوتات تقلد بشكل ساذج جوبا الثاني وباخوس وغيرهما.

وقد لزم أن يحارب الفرسيوي لمدة خمس سنوات أخرى ليقنع المسؤولين بالترخيص له ببيع المشروبات الروحية بالفندق حتى وهو على مقربة من ضريح مؤسس الدولة المغربية، فكان له ما أراد مقابل ترضيات وإكراميات فاقت كلفتها كلفة الفندق نفسه.

وما إن بدأت أصناف المشروبات الكحولية تتجاوز استهلاك الأجانب، وتسرح في رؤوس أبناء البلد، حتى بدأت ألسنتهم تلهج بما لم تسمعه أبدا هذه الأرض الوديعة، وعندها بدأت مرحلة النحس في حياة الفرسيوي، وسط اقتناع عام غير قابل للمراجعة بأن السبب الرئيسي لهذا التدهور السريع والشامل يرجع إلى إنشاء «الكانتينا» ومارافقها من فسق وفجور عند أقدام الولي الصالح.

وتأكيدا لهذه القناعة المشتركة راح الخيال الشعبي يؤلف قصصا عن المخمورين من الأجانب والمسلمين الذين ينهون سهراتهم في مسبح الحامة الروماني الأصل، حيث يتبادلون النساء، ويجربون اللواط تحت ضوء القمر، وعن تهريب أصناف مختلفة من أشربة الكانتينا إلى الأحياء البعيدة والدواوير المحيطة بالمدينة، ثم سرعان ما ابتكر الناس كرامة تناسب هذا الوضع، فجعلوا مولاي رشيد، مولى إدريس الأكبر وجار مدفنه يخرج ليلا، ويعترض السكارى وهم ينزلون من حانة الفندق الى المدينة عبر المقبرة فيوسعهم جلدا بقضبان الزيتون البري المسننة، الشيء الذي يترك على ظهورهم وجنوبهم وسيقانهم آثارا أبدية.

بدأ النحس بسنوات الجفاف التي منعت الزيتون من الإثمار لمواسم متتالية، ثم تدهورت أسعار الخروب، لتصير كلفة جمعه أغلى من مداخيل بيعه. ثم جاءت سنوات الجرب.

لم يعرف أحد حتى الآن كيف حدث ذلك، فقد رأى رواد «الحمام البالي» ذات صباح، رجلا يقعد القرفصاء قرب صهريج الماء الساخن، ويعوي راقصا من شدة ما يجده من بثور متهيجة تغطي كل جسده تقريبا، فتطوع أحدهم لصب الماء الساخن على جسده كما يفعل الناس عادة في حامة مولاي يعقوب. ثم ذهب الرجل إلى حال سبيله، فلم يمض يوم واحد على هذا الحادث، حتى بدأت تظهر هنا وهناك، في أجساد رجال ونساء وأطفال من مختلف الأحياء، بثور صغيرة ممتلئة بسائل لا لون له، ما أن يصل إلى جزء من الجلد حتى تنبت فيه بثور جديدة من نفس النوع، ولم يمض أسبوع واحد حتى كانت المدينة كلها والدواوير المجاورة والأسواق والمدارس والمساجد عبارة عن تجمعات مخيفة لأشخاص مخطوفين لايتكلمون مع بعضهم، ولايعرفون وجهتهم، يمشون وقد أدخلوا أيديهم تحت جلابيبهم وثيابهم وراحوا يهرشون جلودهم التي كستها طبقة صلبة من القشور المتهيجة، فاغرين أفواههم من الألم واللذة. وكان الرجال والنساء والأطفال يخرجون إلى الدروب والأزقة، فيكشفون ظهورهم، ويحكونها مع حيطان المدينة حتى تنزف، أويستعملون أدوات مختلفة كتلك التي تستعمل لتقشير الخضر أو جلو الأواني أو فرك الصوف أو تنظيف الأبواب، فيجلسون واحدا خلف الآخر ويبدأون هرشا جماعيا رتيبا تدمع له عيونهم.

وفي كل يوم تقريبا ترى جحافل الجربى ينزلون من أحيائهم ويعبرون السوق الداخل لايلوون على شيء، وهم يتجهون نحو ساحة خيبر، حيث

تعد السلطات مضخات كبيرة ترش بها أجسادهم في معازل بلاستيكية، فيرجعون بعدها وقد ملأت رائحة الكبريت خياشيمهم، ليناموا إلى أن تلسعهم البثور مرة أخرى بالحاحها المتهيج.

كل هذا أدى إلى عزل المدينة رسميا. فتوقف الأجانب عن زيارتها، وعن الإقامة في فندق الزيتون، الذي تحول إلى مجرد حانة رخيصة يقصدها كل ليلة جيش من الجربى، يشربون ويحكون حتى مطلع الفجر، وينامون وسط أنين جماعي، تعبيرا عن مزيج من الألم واللذة بسبب الهرش المستمر الذي يفتح الباب على مصراعيه لنشوة بالغة، قبل أن يصعد من أعماق تلك النشوة، ألم الجروح التي تفتحها الأظافر في الجلد المتقرح. في هذه الفترة اغتنم سكان «فرطاسة» ظروف النكبة التي حلت بالفرسيوي، خصوصا بعد انتحار زوجته ديوتيما، وإفلاس عدد من مشاريعه، فخربوا القنوات التي تنقل بعضا من ماء العين إلى فندق الزيتون، الشيء الذي أدى إلى نشوب معركة قضائية اضطر فيها الفرسيوي إلى بيع كثير من أملاكه ليغدق عائداتها على من يرجح كفته في هذا النزاع.

ثم لايدري أحد كيف حدث ذلك. فقد تزوج الفرسيوي فجأة من عاملة بالفندق لها إخوة غلاظ شداد يقطعون النفس في فرطاسة. فعادت المياه إلى مجاريها، وفهم الناس أن الفرسيوي قد كتب الفندق في إسم زوجته الجديدة وروجوا لذلك دون أن يرد عليه، مكتفيا بابتسامة ساخرة يوزعها على السكارى وهم يتناجون في أمره.

ثم باع الفرسيوي محطة الوقود. وأعلن عن إفلاس شركة «مطاحن المشكاة» العصرية. وفي صبيحة يوم جمعة من شهر ماي 1982 أغلقت السلطات فندق الزيتون وسط مظاهرة حاشدة للجربي الذين طاف الآلاف منهم مرددين شعارات مضادة للسلطة التي لاتفعل شيئا للتخفيف عنهم،

سوى رشهم بالسائل الأصفر اللاسع، وتطورت المظاهرة إلى عدوان عنيف على المحلات التجارية والمرافق العمومية، قبل أن تتجه إلى أبهاء الضريح وترابط فيه إعلانا عن احتجاجها.

-كل هذا لأن السلطة أغلقت «الكانتينا» ذلك المكان الموبوء؟

كان بعض الجربى يتطوعون للإجابة على هذا التساؤل فيؤكدون أنهم يحتجون على إغلاق المدينة وليس على إغلاق «الكانتينا».

وفي يوم السبت 9 ماي 1982 سرق تمثال باخوس من مدخل وليلي، حيث كان يقف منذ عقود بقامته الصغيرة، وسمرته الخفيفة، مراهقا في وضع واقف يتكئ على ساقه اليمنى، ويرجع بساقه اليسرى قليلا إلى الوراء، بينما تبتعد شيئا ما عن جسده ذراعه اليسرى المكسورة عند المرفق.

وقد اضطر اللصوص إلى اقتلاع التمثال من قاعدته الشيء الذي ترك عليها بعض أصابع القدم اليمنى، هي كل ما تبقى من المنحوتة الجميلة.

وخلافا لكل التوقعات فقد انطلق التحقيق في هذه النازلة باعتقال محافظ الموقع، ثم باعتقال دليلين سياحيين، ثم أخيرا باعتقال محمد الفرسيوي الذي لم يبق أحد في المنطقة لم يشهد أنه كان دائم التنقيب في الموقع عن شيء لايعرف أحد ماهو؟

- 2 -

أنا يوسف الفرسيوي وهذا أبي، أنجبني من ألمانية رقيقة، لم تجد طريقة أقل سوء لإنهاء حكايتها المضطربة سوى الإنتحار، في يوم مفتوح للصيد، قضته مع والدي تصيد الحجل والأرانب في الغابة الحرشة، حتى إذا أشرفت الشمس على المغيب، رتبت الطرائد والمعدات والألبسة وسلات الأكل، وعلب المشروبات، بعنايتها المعهودة التي تفجر أعصاب والدي، ثم صعدت إلى المقعد الأمامي، وربطت حزام السلامة في نفس الوقت الذي أرخت فيه عنان بتهوفن من تسجيلها الأثير.

في طريق العودة طلبت من والدي أن يمر من الطريق الجبلي الذي يطل في قسمه الأول على المدينة وفي ما تبقى منه على الأطلال.

قالت بوداعة إنها تود أن ترى غروب الشمس. فاستجاب لها الفرسيوي على غير عادته، بدون نقاش ولا مماحكة، مما جعله يؤكد غير مامرة بعد وقوع الحادث، أنها وحدها الإرادة الإلاهية كان يمكن أن تطمس بصيرته لهذا الحد، فلا يلاحظ أنها لأول مرة في حياتها تعبر عن هذه الرغبة، وأنه أبدا، لم يقف معها على مرتفع، ولا على منخفض، ليرى شمسا من شموس الله، تغرب أو تشرق أو تفعل بنفسها ماتشاء...!

طلبت والدتي من الفرسيوي أن يوقف السيارة، في آخر منعرج قبل الانحدار إلى وليلي.

-هاهي الشمس تمضي. قالت والدتي.

-في يوم ما ستذهب، ولن ترجع أبدا، أو ستشرق من الغرب، ثم لاتغرب أبدا!.

ردَّ والدي.

-ولماذا هذا البورديل؟!. سألت والدتي وهي تتجه نحو مؤخرة السيارة.

- لأن ذلك سيكون يوم القيامة! حيث لن نحتاج لا إلى عملة ولا إلى طاقة ولا إلى أسلحة، سنحتاج كلنا بغض النظر عن أصلنا وفصلنا إلى شيء واحد. شيء واحد فحسب!.

كانت والدتي قد فتحت صندوق السيارة فكرر جملته الأخيرة دون أن ينظر إليها.

سنحتاج إلى شيء واحد لاغير!.

-ما هو من فضلك؟!

- الظل ياعزيزتي. الظل!.

عند ذلك ساد الصمت تماما، وتصور الفرسيوي أنه أفحم الوالدة بعبقريته الريفية التي لا تضاهى.. ولم يعرف لماذا رأى في تلك اللحظة تحديدا، مسار علاقته بديوتيما في أدق تفاصيلها منذ اليوم الأول للقائه بها في مبنى البريد بديسلدورف. حتى أنه- والعهدة عليه- فكر أن يبوح لها بحبه هنا والآن!. لأنني لم أقل لها أبدا تلك العبارة المعروفة. فليس في عاداتنا نحن أهل الريف أن نهتم بهذه السفاسف!.

وعندما استدار والدي ليصرخ فيها تعبيرا عن مشاعره الفياضة، لم يجدها حيث توقع، وسمع الطلقة النارية كأنها تحت هيكل السيارة، فاندفع مذعورا ليرى والدتي ممدة بلاجمجمة تقريبا قبالة ضريح المولى إدريس الأول، وغير بعيد عن الأطلال الرومانية التي غربت الشمس قبل قليل في

وحشتها. ورغم كل ما رأيته في والدي من انهيار ويأس وعذاب وغضب فإنني لا أعرف حتى الآن لماذا تصورت بكثير من اليقين والألم أنه هو الذي قتلها. وحتى الآن لا أستطيع أن أستعيد هذا الحادث دون الميل إلى الجزم بأن الفرسيوي قد نظم جريمته بإحكام شيطاني جعله يفلت من العقاب البشري، أما العقاب الإلاهي فقد حل به كما يدعي خالي. في هذه الدار قبل الأخرى، إذ بعد ما تتالت خساراته المدوية انحدر إلى ظلمات الإفلاس والشماتة قبل أن يغرق في ظلمة مطبقة.

دخلت منذ الحادث الذي أودى بحياة والدتي في اضطراب كبير لم أبرأ منه حتى اليوم. فقد أقمت لمدة تزيد عن سنة عند خالي الذي كان يشتغل موظفا في السفارة الألمانية بالرباط. وقد أبلغته هواجسي، وأكدت له أن الفرسيوي كان يكره أمي، وأنني لا أستبعد أن يكون قتلها، مما دفع به إلى إبلاغ سلطات بلاده بهذه التفاصيل، فنتج عن ذلك تحقيق طويل لم يصل إلى شيء ولكنه انتهى بوالدي إلى الاعتقاد بأنني حملت دون ريب بذرة الشر من الدم الجرماني الذي داهم دمائي الريفية القحة، وانتهى بي إلى العيش في مؤسسة للرعاية بفرانكوفورت حيث قضيت أعواما رمادية من مراهقتي وشبابي متيقنا أنني لن أنجح أبدا في استعادة علاقتي بالفرسيوي ومحيطه.

إلا أن الجزم بشيء يتعلق بالطبيعة البشرية ليس سوى مجازفة. فقد مرت السنوات سريعا فذابت تلك النزوة الحادة التي جعلتني أعتبر دماء والدتي على عكس مايدعي الفرسيوي هبة من السماء، مما دفعني إلى الخجل في قرارة نفسي من الدماء الأخرى التي ستشوش لامحالة على الرأسمال الجيني الذي أهدرت فيه الأمة الجرمانية قرونا طويلة قبل أن يلحقني منه نصيب معجز.

وهذه الحكاية هي من الأشياء القليلة التي التقطتها زوجتي من حديث عرضي مر بيننا، واستعملتها مرارا لتفسر تعطل قدرات المواجهة مع محيطي بأنه تعبير عن شعور بالذنب جراء هذا الخجل القديم الذي ما أزال أحمله في دواخلي كعار أبدي.

كان اكتشافي للريف لغة وأمكنة وتاريخا وأشخاصا في قلب فرانكفورت هو الذي أسلمني مرة أخرى للبلد الذي تركته، فرجعت ممتلئا بفيض من التسامح تجاه الفرسيوي وتجاه زوجته الجديدة التي منحني منها نصف أخت لايسعدها شيء مثل التأمل في عيني الزرقاوين واشهارهما كقرابة مجيدة مع العالم المتحضر، وتجاه الوضع الذي صار عليه الفرسيوي بعد شهور السجن وإغلاق الفندق والقضايا المتراكمة أمام المحاكم، كان قد أصبح بعدما فقد بصره بشكل كامل تقريبا، رجلا صعب المراس، حاد الطبع، مستعدا للدخول في معارك ضارية لأتفه الأسباب. وكان ذلك يدفعني إلى اعتباره جزء لا يتجزأ من عودتي المعقدة أحاول أن أجنبه دورا مأساويا جديدا يدخل به على الخط، وأحاول أن أدمج نفسي تدريجيا في عالمه دون أتسلم منه بأي حال من الأحوال مفاتيح هذا العالم.

من كل المحن التي مرت بالفرسيوي كان اعتقاله في ماعرف بقضية باخوس، أقرب المحن إلى أسطورته الخاصة. فقد قضى بسببها ستة أشهر في السجن، وخضع أثناء استنطاقه لتعذيب لايجرؤ حتى على الحديث عنه، قبل أن تبرئه المحكمة.

يقول والدي عن هذه البراءة إنها أكبر دليل على حماقة القضاء، ثم ينطلق في تعداد ألف حجة ليس على تورطه في هذه الجريمة فحسب، بل وعلى نجاحه الباهر في القيام بسرقة عظيمة، لايستطيع أحد فك ألغازها، سرقة نظيفة، لايهدف من ورائها إلى تحقيق أي ربح مادي وإنما فقط إلى

إذلال الرومان وحلفائهم المعاصرين.

- وإذاً فإن ما يقوله الناس من أنك سرقت باخوس وبعته لثري ألماني لتواجه إفلاسك، شيء محتمل؟.

-هراء! أما أنني سرقته فقد سرقته. وأما البيع فلست تاجر أصنام.

- وماذا فعلت به؟

-دفنته؟

-يا الفرسيوي، ليس هناك شخص أكثر منك حمقا. هذا باخوس ظل مدفونا لقرون طويلة، حتى جاء علماء الاثار الفرنسيون، والأسرى الألمان. فاستخرجوا المدينة من أحشاء الأرض، واستخرجوا باخوس من أحشاء المدينة، تقوم أنت فتسرقه لتدفنه من جديد؟!.

- نعم، ولو قدرت لدفنت وليلي كلها، وزرهون أيضا!

ثم يضيف ضاحكا:

دفنته في باحة مسجد مغمور. وها أنا أتفرج من الآن على ذهول علماء الآثار بعد بضعة قرون، وهم يتساءلون عما يفعله باخوس، الاه الخمر الروماني في باحة مسجد مسلمين زراهنة من القرن الواحد والعشرين!.

استطاع الفرسيوي أن يحصل على ترخيص بممارسة مهنة دليل سياحي معتمد في مدينة وليلي الأثرية اعتمادا على محنته، وعلى البراءة التي حصل عليها، وعلى المعرفة الدقيقة التي اكتسبها عن تاريخ وليلي وعناصرها الأثرية، وهي معرفة سعى للحصول عليها بقراءة متأنية لنصوص قديمة وحديثة، ولتقارير الحفريات منذ بدايتها حتى اليوم، بحثا كما يدعي عن سبب مباشر أو غير مباشر يكون قد سبق في علم الله وجعله يقوم بهذه السرقة، إذا كان قد قام بها، أو يُتَّهم ظلما وعدوانا بارتكابها كما تقول براءة المحكمة، علما أن مساره الشخصي من خلال سيرة أجداده الأشاوس

بالريف، أو من خلال سنوات بومندرة المنكوبة، أو من خلال مرحلة ألمانيا التي توجت بالزواج من موظفة البريد الجميلة أو من خلال أمجاده الحديثة في مدينة مؤسس الدولة المغربية، كل هذا المسار العظيم لم يكن يؤهله للالتقاء بأمكنة وشخوص هذا الموقع. كيف يمكن لشخص رأى سقوط الريف بالحرب والمجاعات، وموت بومندرة بالفقر والهجرة أن ينتهي في خرائب وليلي دليلا في مكان مات منذ قرون؟.

وقد طور الفرسيوي تأسيسا على هذه التساؤلات نظرية مفادها أن الهجرة دودة تأكل الروح. إذ منذ فتح عينيه في بومندرة وهو يرى الناس معذبين بالمكان الذي تركوه وراءهم في الريف، ومعذبين بالمكان الذي يموت بين أيديهم، ومعذبين بالأمكنة التي يحلمون بالهجرة إليها. هو نفسه قضى عشر سنوات يحفر في الصخر من أجل الهجرة إلى ألمانيا، وعندما وصلها ذات صباح ثلجي، جلس في أريكة المحطة يحاول أن يتذكر للمرة الألف، إسم المدينة التي يقصدها، ديسلوتت، ديسلكورف، ديسلبوط، ديسلكو خط، ديسل.. ديسلدورف! هي والله، ديسلدورف، التي سيستقبله بها حمادي بورُّو، وفي نيته أن يزوجه أخته العانس التي يبس عظمها في هذا الصقيع، والله لن يحلم بذلك أبدا، انتظر حتى أقفل على الأوراق جيب المعطف العسكري، ثم ترى صولات عمك الفرسيوي تلعلع في سماء ديسلبون، ديسلطوزت، ديسلبوف ديسلدورف، أي نعم، ديسلدورف التي يكفيه أن يتلفظ باسمها ثلاث مرات حتى ينعظ مثل وحش.

الهجرة دودة نائمة، تمص وتنام. ومتى تفيق الدودة؟ تفيق ياسيدي، عندما تستقر الأمور، وتطيب الريح، وتنقاد الأشرعة، وينساب المركب. عندما يصل عمك الفرسيوي إلى أعلى عليين، يبيع ويشتري، ويقضي عشر سنوات في الجامعة الليلية، ويترجم في المحاكم، ويملك العقار، ويربح

كيف ما شاء، ويتزوج «شجرة الدر» الألمانية!.

هنا تستفيق الدودة، وتوسوس لصاحبنا، هل تريد أن تفني صحتك على هذا الجنس، هل تريد أن يكبر ولدك نصرانيا وأجداده كلهم إلى سيدنا ابراهيم يحملون القرءان في صدورهم هل تريد أن تترك «الشرفاء» يذلون من تبقى من أبناء قبيلتك، هل تريد أن تتحول مدينة تضم رفات بضعة نبوية إلى وكر للواطيين والحشاشين والمتسولين؟.

وبما أنها ستوسوس اليوم وغدا وبعد غد، فإن الفرسيوي سيتكل على الله ذات يوم وينظم هجرته المضادة، وبما أن ديوتيما قد احتفظت بدفتر جدها الذي شارك مع الأسرى الألمان في حفريات وليلي، فإنها ستعتنق هي الأخرى هذه السوسة.

وهانحن ياسيدي في رحاب الزاوية، نصعد من ساحة الضريح بالسوق الداخل، إلى ساحة خيبر حيث توجد الباشوية. وننزل من هذه الى تلك، نكتب العقود، ونروض السماسرة، ونرش الضعفاء ونراوغ العيون الحاقدة.

وها هي ديوتيما تعتنق المكان الجديد، تشيده في قلبها جنة مهجورة، تنام بأسرار جدها على مقربة من التراب الذي مشى فيه بأصابع يديه هادئا متوددا للأسرار الدفينة، كأنه لم يزحف محاربا ولو مرة واحدة في حياته.

ثم ها هي ديوتيما تريد أن تغرس نفسها في هذا الجبل الأزرق، فتنشئ في المدينة مؤسسات لمساعدة النساء، وتلقيح الأطفال، ومحاربة انقطاع الفتيات عن التمدرس، والتوعية الصحية، وتذهب إلى الدواوير المجاورة، لتقضي اليوم كله تطوف في تجمعات سكنية ينام أصحابها مع الأبقار والماعز، ويتغوطون خلف أفرانهم والكلاب والفئران الضخمة تتخطف فضلاتهم الساخنة من تحتهم. وهناك سترعى مشاريع لمعالجة النفايات،

ومحاربة الأوبئة، ومعالجة مياه الينابيع، وجمع البلاستيك، وتشجيع المحافظة على كروم المنطقة، وأصناف فاكهتها المهددة بالانقراض. سنة بعد أخرى تولد المشاريع وتموت، يدخل الماعز الجديد من شبه الجزيرة الايبيرية، والطاقة الشمسية من جمعيات المحسنين في ألمانيا، وتقام أحواض معالجة النفايات القابلة للتحلل الطبيعي، يستفيد من يستفيد، ويخرب من يخرب، ويحارب من يحارب، وديوتيما لا تريد أن تفهم أن هذه الأرض لن تقبل منها أبدا جذورا في أحشائها، إلى أن استسلمت في نهاية الأمر وهي تتربع على عرش بهو الاستقبال في فندق الزيتون إلى حزن قاهر محا كل أثر للطيبوبة من ملامحها، ذلك أن كل هذا الشغف الذي أغدقته على جغرافية الأمكنة ومنتوجاتها وكائناتها المعوجة، لم يفلح في إكسابها ولو ذرة واحدة من المودة الإنسانية. لا أحد سواء وصله بعض من خيرها أم لم يصل، حمل لها في قلبه شرارة محبة أو امتنان أو عرفان أو تقدير. كانت تجدف في نهر مضاد من التقزز والكراهية، يعبر عنه الناس بتعبيرات مختلفة، من الإشاحة بالوجه، إلى الاستعاذة بالله. حتى عندما كانت تساهم مع فرق الوقاية المدينة في حملة معالجة الجرب الذي عصف بالمنطقة، كان بعض الجربى يتعمدون مصافحتها بحرارة زائدة، بعد أن يكونوا قد هرشوا جلودهم لساعات حتى امتلأت أصابعهم وأظافرهم بالسائل والقشور لعل وعسى تشبط الجربة في جسد النصرانية، وكلما رأوها سليمة تخلط المسحوق بالماء وتساعد في معالجة النساء إلا وازدادوا غيظا، وصبوا جام غضبهم على هذا الجنس الألماني الذي أنتج هذه المناعة الاستثنائية في البشر والحديد على السواء.

حتى الفرسيوي الذي أبدى في مستهل علاقته مع ديوتيما نوعا من الصفاء الإنساني كاد يكون رومانسيا، سرعان ما تعكر صفاؤه وهو يجري

وراء الصفقات والمشاريع، ويدبر المكائد للشرفاء وحلفائهم، معلقا على ذلك كلما رأى في عيني زوجته إشفاقا من هذا الغل المربّى منذ أزمنة سحيقة.

-لاداعي للقلق، إننا نتبادل كراهية ضرورية لصحتنا النفسية والبدنية! إذا وجدت ريفيا لايكره الشرفاء فذلك دليل قاطع على أنه ابن حرام أباً عن جد! والعكس صحيح! ومع ذلك فليس بيننا قتلى ولا جرحى ولا معطوبو حرب!.

في بداية علاقتهما كان الفرسيوي ما يزال قادرا على إعطاء فضائل الاستقامة والجدية، والأمانة، والتفاني بعداً أساسيا في حياته جعله يتوفر على شيء فروسي في شخصيته، مزيج من التعالي والحياء والعفة، حتى الحب كان يمارسه بنوع من المسافة والصرامة والحرص على الإحكام والإتقان والدقة، مما يجعله منبعا لملذات ملتسبة لامكان فيها للعب أو الإغراء أو المجازفة، ملذات سريعة مزلزلة تكاد تشبه ما يحدث في غرام المحارم!. لكن بعد فترة الإقامة في هذه الزوبعة تلاشى كل هذا ليحل محله نوع من النفور الخالص الذي لايقبل حاجات الجسد ولا اندفاعات الروح. نفور يجمع بين الندم واليأس، والإحساس بأن كلاهما أصبح مربوطا بالآخر في حركة اندفاع نحو القعر، وكلما سعى أحدهما للنجاة، زاد بحركته العصبية والعشوائية في سرعة الاندفاع نحو أسفل سافلين.

وهذا النفور المكتوم وهبهما طاقة جبارة، مكنتهما من عبور الحياة المشتركة بحرص يومي على ابتكار شيء يجمعهما، شيء ينفقان فيه جهدا مضنيا يوصلهما إلى الليل منهكين، لايقويان حتى على النظر إلى بعضهما.

حرصت والدتي على تلقيني كل شيء تعرفه: اللغة الألمانية والتمييز

بين الفطر المأمون والفطر المسموم، والموسيقى والأكواريل. لكنها لم تكلمني أبدا عن الفرسيوي، لذلك فإن كل ما قلته أو سأقوله عن هذه العلاقة، هو مجرد تخمين شخصي لايلزم أحدا سواي.

كانت عائلتنا عبارة عن مربعات مغلقة. مربع يضمني وأمي. وآخر محكم الإغلاق يضم الفرسيوي وديوتيما ومربع فضفاض نلتقي فيه جميعا، أو التقي فيه وجها لوجه مع الفرسيوي.

فيما يخصني أعتبر أن أمي نجحت إلي حد بعيد في تنقية علاقتنا نحن الاثنين من كل الشوائب العاطفية الزائدة، كانت أمومتها بدون تعبير خارجي تقريبا، إذ أن أقصى ما يصل إليه هذا التعبير هو ابتسامة جد مقتصدة ولمسة يد سريعة. لكن هذا التباعد الحسي لم يصاحبه أبدا شعور بالتخلي أو الإهمال. كان حضورها اليومي، وشغفها بالحصول على أجود ما في داخلي يجسدان كثافة أمومتها ويعززان شعوري بأنها أم استثنائية.

عندما ذهبت إلى ألمانيا كنت أكره والدي وأكره البلد الذي قتل أمي، وأتوق إلى تشييد حياة بعيدة كل البعد عن هذه الأجواء المشحونة بالغموض والفتن النائمة. وقد قضيت تلك السنوات الأولى مأخوذا بهذا البناء الجديد، لاأحمل في نفسي أي حنين لأحد أو لمكان، إلى أن التقيت بجماعة الريف، ومعهم عثرت على خيط آخر، قادني إلى «التنظيم». فقررت ذات يوم وأنا أفكر بمستقبل الثورة، أن مكاني الطبيعي يوجد في الميدان، وسط الشعب الذي سينهض من رماده، ويقضي على اللصوص والقتلة.

وكذلك كان، على الأقل في مايخصني.

الحالمون.. . وغيرهم

- 1 -

بمجرد ما قتل ياسين، أصبح الطفل الأبدي الذي أحمله وأعيش به كل تفاصيل حياتي اليومية، فقد تحول الى كائن يلازمني، يخرج من عتمته كلما قرر ذلك، يجلس إلى طاولتي، أو يتربع على كتفي، أو يخزني فجأة ليسرّ لي بخبر أو تعليق، ويجلس أحيانا على حافة سريري ليستقبل يقظتي بمناقشة صاخبة. في ظهوره اليومي لايتجاوز عمر ياسين سنة واحدة، أما صوته فهو صوت الشاب الذي ودعني في محطة القطار. كنت أتحدث معه لساعات، وأنا أعبر المدينة من باب تامسنة، حتى مشارف النهر، مرورا بشارع النصر وشارع مولاي يوسف، وساحة العلويين، وسوق الزهور، إلى شارع الجزائر حيث يوجد مقر الجريدة التي أشتغل بها.

ولاشك أن كثيرا من الناس، -وهم طبعا لايرونه- قد شاهدوني مستغرقا في هذه الأحاديث، فأشاعوا أنني أمشي متحدثا إلى نفسي، وأن ذلك لابد أن يكون بسبب ياسين. فلم يكونوا يعرفون إلى أي حد كانوا على حق في ما يقولون.

كان حديثنا ينصب على ما نصادفه من أشغال في المدينة أو مظاهرات، أو نساء جميلات، وأحيانا كنا نغوص في أوراقنا القديمة فنتحدث حول الثورات، والخيانات وموت الأوهام.

جلست في مقهى «الحديقة» ساعة قبل موعدي مع ليلى، قلت لياسين إنني سأسجل في مفكرتي بعض الأفكار لرسالتي الأسبوعية، فضحك

لذلك، ومضى يسخر من انتباهي المتأخر إلى ضرورة الحب في بناء حياة ما. فلم أستجب لسخريته. وسجلت ضرورة الحديث في الحلقة المقبلة، عن فيلم لم أعد أتذكره، ولكنني أتذكر جيدا رقصة ارتبطت به، وخيل لي أنني رقصتها مع ليلى، لاأتذكر إن كان ذلك في حلم أم في ملهى صاخب في الشاطئ. وعن مشهد عنف أتذكره بوضوح، يشبه أجواء الفيلم، كما لو أن شخصا يصدم بسيارة بيضاء رجلا آخر ويرديه قتيلا، مشهد جرى في الواقع وليس في الفيلم، قرب سينما «الحمراء» على مشارف حي يعقوب المنصور، أتذكر العنف في جوهره بدون تفاصيل حادثة محددة.

مرت أمامنا رافعات ضخمة وآليات حفر، ومخلطات اِسمنت فاختنق الشارع ودبت فيه حركة متوترة.

تساءل ياسين عما إذا كنا نبحث عن كنوز في أحشاء العاصمة، فرحت أشرح له لماذا تعرف الرباط إنجاز مشاريع كبرى، مدنًا جديدة وساحات، ومناطق سياحية، ومتاحف وقاعات، موضحا أن هذا التحول الفجائي يرجع ربما إلى كون الملك الجديد يحس أنه ابن هذه المدينة وأن عليه أن يخرجها من بؤس ضاحية قروية.

قال ياسين إن الشعب يحتاج إلى الخبز والدواء وليس إلى عاصمة جميلة.

فحسبْتُ ذلك على الطالبان، وحاولت تصحيح الأمر بالتأكيد على ضرورة إنتاج أكبر ما يمكن من الجمال، لأن ذلك هو السبيل الوحيد للانتصار على اليأس، فضحك مرة أخرى وذكرني بالسهرات الطويلة التي كانت تجمعني في البيت بإبراهيم الخياطي وأحمد مجد والآخرين، وتلك المناقشات العصبية التي لاترى أملا في المستقبل بدون قطيعة مع الماضي. ماذا جرى لكم؟ سألني ياسين؟. رددت السؤال بعده كما لو كنت أسأل نفسي.

-ماذا جرى لنا؟.

-ماذا جرى لكم لتعتقدوا أن المستقبل يمكن أن يكون مثل عباءة المتسول، تجميعا لقطع من ألوان وأزمنة مختلفة؟!.

قلت:

- إننا كنا نتحدث عن المدينة، وليس عن المدينة الفاضلة! قال ياسين إنه يعتقد أن منتزه أبي رقراق، بعدما يتم إنجاز المرفإ الترفيهي، والأرصفة، والشقق المفروشة، والفنادق الكبرى، والمطاعم والمقاهي وصالات الألعاب والعرض، سيتعرض لغارات قبائل زعير وزموركما كان يحصل في الماضي، وستقفل المحلات بعد صلاة العصر كما كان يفعل الناس في ذلك الزمن البعيد خوفا من هذه الغارات!.

ضحكت من الفكرة فأردف قائلا:

-لن تبرأ سلا أبدا من حمق مابعد العصر!.

قلت جادا:

- بل بالعكس سيصبح المنتزه، مصنعا لانتاج حكايات أقل مأساوية، مرتعا للحب والمغامرات والثروات والخسارات وسهرات النجوم، وحفلات المجتمع الراقي، مخبئا للمتسكعين والهائمين، والباحثين عن شيء يعرفونه أولا يعرفونه.

سيصبح النهر نفسه سمكة تنام عند مطلع الفجر!.

قال ياسين: إذاً لن يضطر الرباطيون إلى الذهاب إلى مراكش لتصيد لحظة حرية عابرة.

- لا إلى مراكش ولا إلى الدار البيضاء، سنقضي قضاء مبرما على إبراهيم الخياطي الذي يدعي أن العشاء في الرباط يشبه عشاء في محطة طرقية.

- ولكن الرباطيين كلهم - أقصد أثرياءهم- اشتروا منازل في مراكش.

-سيبيعونها، وستصدر إليهم الأوامر بالانتقال فورا إلى العاصمة:

- حتى هذه بالأوامر؟!

-نعم، والحكايات أيضا ستتلقى التعليمات بالهجرة نحو العاصمة.

-لايمكن ذلك أبدا. مراكش لايمكن أن تعيش بدون حكايات. تعرف؟ كانت لي صديقة في باريس تقول عندما كادت حكايات جامع الفنا أن تضمحل ابتكرت مراكش لنفسها حكايات حديثة، نوعا من ألف ليلة وليلة مسرحها الرياضات، والملاهي، والمراقص لذلك اسمح لي أن أثير انتباهك إلى أنه بالأوامر أو بدونها لن تتنازل مراكش عن عرشها ولو بنيتم بغداد على النهر!.

- لم أعرفك متعصبا بهذا الشكل.

- بيني وبينك الرباط ليست سوى حيزبون أندلسية ناصعة البياض، متهدلة، لايسعفها التزويق بأي طعم!.

- تكرهها لهذا الحد؟

- لاأكرهها ولا أحبها، أجدها فقط «باسلة» كما تقول أمي.

- أما أنا فأجدها مدينة ساحرة، غامضة وحالمة، وبها نهر. لا أحب المدن التي بلا أنهار، كأنها مدن لاتبكي، لاأحب مراكش. أجدها متصابية، وتضحك بلاسبب!.

-كيف يمكن لكاتب -ياحسرة- أن يكره مراكش؟

-تعرف؟ أبا ادريس له نظرية في الموضوع. يقول إن مراكش مضادة للكتابة. إنها فقط مدينة «النّاب».

قال ياسين:

-سأقول لك شيئا ربما يغضبك!.

- قُل مع ذلك!

-يخيل إليّ أنك تغيرت للأسوء!

-ماذا يعني ذ لك؟.

يعني أنك أصبحت تطفح بالمرارة والحدة، لم تعد تنطلي عليك أي حيلة من حيل الحياة، لا تتوقع أي معجزة على الإطلاق؟ كيف تتحمل حياة بهذا الوضوح؟.

- لا أبذل أي جهد خاص. الحياة هي التي تتحملني!.

-ولكنك كنت تعيش دائما بالشغب، والشك، والخطأ، والقناعة العمياء. أقصد، كل هذه الأشياء لم تكن مجرد أقنعة.

-بل كانت كذلك في معظم الأحيان، كنتُ حينئذ أعتقد أننا لابد أن نقاوم اليأس بكل الوسائل.

-والآن؟!

-الآن، تصالحت إلى حدما مع اليأس. إن الذين لهم آمال غير محدودة يصيبونني باليأس أكثر من اليائسين!

-يبدو أنني لن أفهمك أبدا.

قلت.

-لا أحد يمكنه أن يفهم أحدا!.

وفي هذه اللحظة وصلت ليلى. وصلت بصوتها قبل جسدها.

-كأنك تحدث نفسك!.

- لا.. بل أحدث ياسين!

غام وجهها فجاة فتمتمت..

- أنا آسفة لمقاطعتك.

ثم جلست قبالتي. وبدأنا ننظر إلى بعضنا كأننا ننتظر انصراف ياسين.

وعندما انصرف فعلا، كانت ليلى تتحدث في هاتفها، وكنت أتفرس في ملامحها وهي تجيب بجمل مقتضبة لإنهاء المكالمة. كان وجهها كله مضاءً بابتسامة داخلية، الشيء الذي جعلني أشعر بألم لا يطاق لكوني لن أستطيع إسعادها بشيء مماثل!.

ولعل ظلال هذا الألم عبرت نظرتي، فقد سألتني قلقة.

-ما بك؟ هل كل شيء على ما يرام؟.

قلت: نعم، كل شيء تقريبا!.

ثم حدثتها عن الإبتسامة الداخلية، فطورنا بخصوصها نظرية طريفة مفادها أن علينا تركيب نوع من المصفاة في مدخلنا الروحي، تفرز ما هو ضروري لحياتنا حتى ولو كان مؤلما، وبين مالافائدة فيه حتى ولو كان في غاية الإغراء، وأن يكون هذا الفرز أبلغ تعبير عن توازننا، وقوتنا، وصحتنا النفسية والبدنية. أن يكون لذتنا القصوى، ومتعتنا الأكثر دقة، وكمياءنا السرية التي تنتج دون استشارتنا، ودون حتى أن نحس بذلك، ابتسامتنا الداخلية. وهذه الأخيرة، بما أنها بِنْت هذه المصفاة العظيمة، فإنها ستكون غلالة تحيط بأرواحنا وأجسادنا، وتمنحنا وقاية نورانية لايهزمها عارض من عوارض الحياة.

تحدثنا طويلا في هذا الموضوع بنوع من التسابق على الكلمات والأفكار، لانكاد نعرف من يقول ماذا وكانت ليلى تقود هذا التمرين في محاولة مخلصة لإشعاري بضرورة ترتيب مساحة أتحكم فيها بمفردي. لا أترك منها جزء مهما صغر لتدخل الآخرين، لأن هذه المساحة، مثلها مثل المجال الحيوي لكل كائن في هذا العالم، هي التي ستجعلني قادرا على التمييز بين الضرورة والرغبة. لأن الأمر يتعلق اليوم، تقول ليلى، بهذه القدرة بالذات. انظر إلى نفسك! إنك آلة سليمة، سليمة تماما! أقصد كل

الميكانيك الضروري لوظائفك يشتغل بشكل جيد. لايوجد أي خلل في أي نظام من أنظمتك، ومع ذلك فإنك في حالة عطب يشل حركتك!.

تحدثنا كذلك عن بهية، فأعطيتها فكرة عن وضعيتنا بعد مقتل ياسين. قلت إنها تعتبرني في قرارة نفسها مسؤولا عن ذلك. وتكرهني لهذا السبب. وأنا أكرهها أيضا لأنها تفكر بهذا الشكل، إنها تعتبر أن ياسين أخذ عني بذرة التمرد، ودفع ثمن اندماجي وتخاذلي بالوكالة. كانت تفضل أن أقوم بنفسي بتصفية هذا الحساب. وأن لا أجعله يصدق أحلامي، ثم يجد نفسه مضطرا لإنقاذي من مهانة انهيارها، ولإقناعي بأن الذهاب إلى أقصى مدى هو الحل دائما وأن هناك إمكانية أخرى غير النوم في فراش العدو!.

صرخت ليلى:

يا إلاهي إنه لشيء معقد حقا! كيف يمكن التفكير بهذا الشكل؟ الحياة ليست سلسلة من الانتقام وتصفية الحساب، لا يمكن لأي جيل أن يعيش أوهام جيل آخر. ثم إن ياسين في نهاية الأمر ليس هذا البطل التراجيدي الذي تدعي أمه... إنه مجرد ظلامي لقي حتفه.. ومع الطالبان فوق ذلك!.

قلت متألما: أرجوك. لا تتحدثي عنه هكذا!

فضغطت على يدي معتذرة ونظرت في عيني جيدا.

- هذه العلاقة ستدمرك، إن لم تكن قد فعلت ذلك من زمان. أُنْجُ بجلدك! لايمكن أن ترهن ما تبقى من عمرك في هذا الحقد الأهوج. هل فهمت؟!.

قلت مستدركا: لا..لا..لا، ليس الأمر بكل هذه الخطورة. إنني على مسافة كافية من كل هذه الأشياء. والكراهية التي حدثتك عنها لاتمسني من الداخل، في الحقيقة، لست مهتما بما يحدث، أو بما سيحدث، أو بما لن يحدث أبدا.

إنني أعيش بشكل مفصول تماما عن هذه الأشياء حتى عندما أقول إنني أكرهها، فإنني أستعمل كلمة تناسب الوضع، لكن الكلمة لاتعبر عن شيء أحس به، ثم اغتنمت هذه الفرصة لأقول لليلى: إنني لا أحس! لا أحس بشيء على الإطلاق!

وجمت قليلا. ثم اقترحت أن نذهب إلى المطعم الياباني فوافقت على الفور. وهناك تمكنت اعتمادا على وجبة «السوشي» من توضيح ما قصدته.

إن اللحوم النيئة بصفة خاصة، هي التي تجسد بشكل بليغ عدم إحساسي بالأشياء. فهي لاتقترح طعوما ذات هوية مصنوعة. بل تركيبة من طعوم أصلية في شكلها البدائي، قبل أن تتدخل الثقافة لتقترح عليها بعض الصيغ الطارئة، والمواد المصاحبة. فالأطباق المطبوخة هي صناعة عطرية أولا وقبل كل شيء. بينما الأطباق النيئة هي تحرر من التاريخ لفائدة المادة. ومعها يصبح الأكل علاقة بالعناصر مستقلة عن بعضها البعض، وليس بالذوق كما نسجته قرون من الحيل الثقافية.

لكن، يبدو أن ليلى لم يستهوها الموضوع، وفضلت أن تواجهني بحسم مؤكدة أن «السوشي» ليس شيئا بدائيا كما ادعي، وأن هناك فرقا كبيرا بين رجل يلتهم سمكة أخرجها للتو من النهر، وبين رجل يستمتع بوجبة السوشي في مطعم ياباني!.

- إن ما تلتهمه الآن اسمه «السوشي» وليس السمك!

انهمكت في التهام ما تبقى من صحني، متجنبا كل جدال في الموضوع إلى أن أخرجني صوتها من هذا الاستغراق.

-عندما تقول إنك لاتحس بشيء، هل تقصد مثلا أنك لا تستطيع أن تحب؟

-الأمر ربما أعقد من ذلك.

-هل تستطيع أم لا تستطيع؟!

- نعم، ولا!

-كيف؟

-هناك أشياء كثيرة تدخل في تركيبة الحب لا أعرفها، إلا على سبيل التذكر. كل ما يتعلق بالعواطف، الشوق، الخوف، اللهفة، الندم، الشعور بالذنب، الإغواء الحنان..

-والرغبة؟

-الرغبة في صيغتها الفعلية نعم، لكن ليس في مسارها. مثلا، أنا عاجز تماما عن الشعور بميلاد الرغبة، ثم تناميها عن طريق الكلمات والحركات والإيحاءات. أعرف فقط بمخي أن الوقت قد حان وعند ذلك أستعين بالذاكرة لأستمتع بتحقق الرغبة.

-تقصد أن المتعة لاعلاقة لها بما يفعل جسدك؟

-لا..لا، أبدًا أقصد أنني لكي أستمتع بما يفعل جسدي يجب أن أربط أجهزته المشغلة في تلك اللحظة، ببنك الأحاسيس، الذي يوجد في الأسطوانة الصلبة.

أغرورقت عيناها وقالت باكية.

-هذا فظيع جدا! أي ألم هذا، أي محنة؟!.

حاولت أن أهوِّن الأمر فادعيت أن المسألة كلها هي أنني مطالب بجهد إضافي للحصول على لذة ما. وأنني في نهاية المطاف ربما أحصل عليها بشكل أفضل، نتيجة هذا الجهد.

ابتسمت من خلال دموعها، وسألتني فجأة:

-ونحن؟

قلت ماذا؟

-ماذا سنفعل بحياتنا؟!.

- في المدى الفوري نذهب إلى شقتك ونغلق على أنفسنا حتى نعثر على قصة حب استثنائية!.

-لا،لا، أنت تخلط بين المدى الفوري، والمدى البعيد! نغلق على أنفسنا فقط حتى تعود البنت من المدرسة!.

وكذلك كان.

دخلنا مباشرة إلى غرفة نومها، وعندما انصرفتُ إلى تأمل عناوين الكتب المصفوفة بعناية في رفوف سوداء جنب السرير، انتشلتني من ذلك.

-دع الكتب. ليس أمامنا وقت طويل!.

تخيلت عبير جسدها أو تذكرته، لا أعرف على وجه التدقيق، كان ذلك منذ اللحظة التي امتزجت فيها شفاهنا وتلقيت لسانها مترددا مخاتلا مستكينا، ثم عندما رفعت ذراعيها لتطلق صدرها، ثم لما جست تفاصيل بشرتها البيضاء متنقلا من مساحات باردة راعشة إلى مساحات دافئة نابضة، ثم عندما ضممتها وأَفْلَتَّهَا، عندما استلقت، عندما استدارت، عندما انفرجت عندما التفتت، عندما أشاحت، عندما انكفأت، عندما استعصت، عندما لانت، عندما انتفضت. عندما أرسلت أصابعها إلى أقصى النداءات، عندما هدأت، عندما غابت، عندما تأوهت، عندما صرخت، عندما قالت نعم، نعم، هكذا. نعم أعرف بالضبط ماسيحدث الآن، أعرف، عرفت، انتظر، نعم هكذا.. بالضبط كما فعلت لا تفعل ذلك مع امرأة أخرى، أتوسل إليك.. أمنعك أن تفعل ذلك مع امرأة أخرى! عندما صمتت، عندما انفجرت. نعم، الآن، الآن، أرجوك، قل إنك تحبني.. ثم عندما بكت.. ثم انطفأت.

في كل لحظة تخيلت عبير جسدها، أو تذكرته. لم أقل أحبك. ولكن تذكرت جدار الحديقة التي تفضي إلى شقة حي ابن سينا. شجرة الأكاسيا، شذى ليلة صيفية. وانبثاق الفجر بعد عودة صامتة من ملهى الشاطئ.. ثم هي وفستانها القصير الأسود. ملقى عند قدميها، يداها بجدار الحديقة، وظهرها السحري مشاعا للإنارة العمومية. عبيرها. هي دون غيرها من الكائنات المحيطة بنا. نائمة أومستيقظة، حاضرة أو غائبة. عبير مفعم بالماء والنبات والتراب والفاكهة. عبير وجهها، تعبير وجهها وقد أصبح بفورة غضب ما عبيرا حديديّا جافا وموخزا.

كانت قد انحنت ورفعت فستانها من موطئ قدميها مرورًا بساقيها وفخذيها وصدرها حتى انحناءة كتفيها، ثم استدارت لتقول لي عبر نظرتها وشعرها الطائش.

- يجب أن تذهب فورا. لا أريد أن أراك مرة أخرى.

هكذا يقودك عبير مُخَزَّن في علبة العجائب إلى لذة خارج الزمن، لذة تعبر جسدك وتهز أغصانه اليابسة، لتنثر أوراقها في الريح، وأنت لا تعرف من يلتذ بماذا، ومن يستدرج من.

- قلت: هل يمكن أن أبقى قليلا؟

-طبعا، بل يجب أن تبقى. ولو أنك لم تقل أحبك!.

- ولكنك طلبت مني أن أذهب فورا:

انتفضت مذعورة:

-مستحيل! هل قلتُ ذلك فعلا؟!.

- نعم، وقلت لا أريد أن أراك مرة أخرى!.

-إنها كما لو كانت كلماتي ولكنني لم أكن في حالة تدفعني إلى قول ذلك.

-ربما قلتها في زمن آخر. أوفي حياة أخرى.. لي، أو الأفضل لرجل آخر!.

- كان يمكن أن تقول أحبك، حتى بدون مشاعر.. هكذا كما تقول أي شيء آخر، هل كانت ستجرحك لو قلتها؟!.

-لم أشعر بضرورتها. تصورت أن جملة بهذه القوة يجب أن تقال في سياق آخر.

- لكن يجب أن تعرف أنني أشعر بالمهانة إذا لم تُقلْ لي أثناء ممارسة الحب!.

-إنك تبالغين.

على كل، بالنسبة لرجل لا يحس كما تدعي، فإن هذه المضاجعة هي أفضل ما حصل لي منذ سنوات!.

- قلت:

- إنها جديرة بشخصين يعيشان قصة حب كبيرة!.

أجابت ساهمة: صحيح!

ثم ألقت بجسدها على جسدي، ووضعت يديها حول وجهي وقالت.

- أحب كيف تفعل ذلكَ!.

وكنتُ مستغرقا في تأمل وجهها كمن لا يقض مضجعه شيء، عندما انتفضت مذعورة:

-لقد خرجت البنت من المدرسة! يجب أن تذهب فورا.

قمت متثاقلا، لكنها هجمت علي بملابسي، وراحت ترتب الغرفة، وتلبس، وتلبسني، وتقفز هنا وهناك إلى أن وجدت نفسي في باب المصعد وهي تقول لي ضاحكة وقد هدأت قليلا.

- يالها من معجزة! رجل رقيق!.

في الشارع مشيت ببطء حتى محطة الأطوبيس، ثم بدا لي أن أستمر ما شيا، وعندما غادرت ساحة بورغون وانعطفت يمينا لألج الممر الحالم الذي يضم المدرسة العليا للأساتذة، وخزني ياسين بأصبعه الصغير وسألني:

-هل هي قصة حب جديدة؟

قلت محتدا: أنا لا أحب أحدا!

أجاب على الفور:

- مهلا، مهلا، إنني لست طرفا في الموضوع، في نهاية المطاف يمكن أن تعتبرني طرفا محايدا، أساعدك في أحسن الظروف على طرح الأسئلة الجيدة.

- إنني أحتاج أكثر ما أحتاج إلى الأجوبة الجيدة.

- أعرف، لكن الموتى لايعرفون الأجوبة!

-ما علينا، قل لي، كيف فهمت أن في الأمر قصة حب جديدة؟!

-عندما يذهب الرجل إلى موقف الحافلة، ثم يقرر الذهاب مشيا، ويفعل ذلك كأنما يضغط المسافة التي تفصله عن امرأة كان معها قبل قليل، فإن الأمر يدعوك للتساؤل عما إذا لم يكن قد وقع بالفعل في قصة حب!.

- يا لها من دلائل قاطعة!.

- أنت تسخر من أجل التمويه. لكنني سمعتك تقول وأنت تمشي.

- أنا أيضا أحب كيف تفعلين؟.

-قلت هذا وحدي؟!.

- نعم، عدة مرات!

- أظن أنني أعاني نوعا من عدم التزامن. كان يجب أن أقول ذلك جوابا على جملة قيلت لي قبل ربع ساعة. ليس لأني أشعر بذلك، ولكن فقط

للرد بطريقة لائقة!

-لا أعرف مرضا بهذا الإسم، ولكنك غريب العلل، من يدري، مثلما هناك زمن بين ما قيل لك وما قلته، ربما يكون هناك زمن بين وقوعك في الحب وبين شعورك أنك قد وقعت:

-إما أنك قلت أكثر من اللازم أو لم تقل ما فيه الكفاية!

- إنني فقط أحاول أن أفهم ما سميته بعدم التزامن.

-ولكنك وضعت يدك على شيء يعذبني!

- مثل ماذا؟

-مثل شعوري بأنني أعيش فصولا متأخرة من قصة قديمة.

- تقصد أنك أحببت هذه المرأة في حياة أخرى.

- لاتكن غبيا، إنها فقط قصة في زمنين.

- حب على دفعات!.

- أوشيء من هذا القبيل.

في مساء ذلك اليوم كتبت في «رسائل إلى حبيبتي»: «إنني أنتظرك، كل ما أفعله أنني أنتظرك، لست مستعجلا ولا قانطا. لست واثقا من شيء، ولست مرتابا ولا يائسا. كل ما في الأمر أنني أنتظرك، وأشعر أن ذلك يعطي لحياتي معنى. ولو أنني لا أعرف ما معنى أن تكون لحياتك معنى. انتظرتك كأنك ما تزالين في الملهى الصيفي، وأنا في الساحة المقفرة. لماذا بقيت هناك؟ ولماذا خرجتُ؟ هل ماتزالين تراقصين شخصا التقيناه هناك، فانفعلت كثيرا للقائه. وقلت إنه أحد أعز أصدقائك. أتصور أنك ما تزالين غاضبة من رقصتي المضحكة على موسيقى فيلم بولب فيكشيون. كنت أتعمد أن تكون رقصة سيئة ومضحكة لأفسد بذلك تناسق رقصكما.. لكنك كنت مصرة على أن نفعل ذلك بإتقان كامل كما يفعل ترافولتا وأوماتورمان في

الفيلم، بما في ذلك تلك المسافة التي يجب أن نحافظ عليها لتتمكني من تمرير أصابع يديك على عينيك ووجهك. ولكن الشخص الآخر هو الذي استفزني، كانت عضلاته تتحرك بتناسق أعمى، وأنت وحدك كنت قريبة من روح تلك الرقصة، ولو أنني كنت مشغولا عنك بإنجاز تلك السخرية الوقحة. في الفيلم أيضا كان هناك شيء ساخر، لم أعد أتذكر ما هو. وكان ترافولتا يرقص بجسده فقط، أما أنت، أقصد أوماتورمان فإنها كانت ترقص بروحها. كانت تقول: أريد الفوز بجائزة هذا المساء! ولكنها كانت تعني، أريد الفوز بك. وأنت؟ لمن كنت تقولين ذلك؟.

والآن ها نحن في الساحة المقفرة. في الحديقة المحاذية لمدخل العمارة. ها نحن نقتحم الفجر بعُرِينا، ها أنت تأخذين ما تبقى من حذري، وتضعينه فوق حجارة السور، حيث تضغطين بيديك المفتوحتين وترسمين بالخيط الأبيض لجسدك جرحا في الليل. ثم ها أنت تختفين تماما ولا يتبقى منك أي أثر في الرماد المحيط بي».

- 2 -

انتشلت بهية من قيلولتها مجازفا بهدوء ما بعد الظهيرة، قلت إن أحمد مجد يريد أن يكلمها في شيء عاجل يتعلق بالقضية، اعتدلت في فراشها، وبعد سيل من الجمل المتأففة، اختطفت الهاتف من يدي. كأنني أنازعها إيَّاه، ووضعته مباشرة على صوتها.

في كل مرة يجري فيها الحديث عن الأرض التي قامت الوكالة بنزع ملكيتها من زوجتي وإخوتها يتكهرب الجو، ويصبح الحوار مستحيلا بين الإخوة فيما بينهم. وبين الإخوة والمحامي، وبين كل المتدخلين في موضوع لايعرف أحد من يملك مفاتيحه.

خلال أزيد من خمسين سنة، عاشت عائلة زوجتي بأجيالها المتلاحقة أحلام ثروة نائمة، في عقار يمتد على ضفة أبي رقراق من المصب إلى تخوم عكراش، حيث لا مُزاحم سوى الأوقاف بملكياتها الشاسعة، وبعض العائلات السلاوية العريقة بقطع متناثرة.

عندما تربعت مزبلة عكراش بنفاياتها وحرائقها وأدخنتها وروائحها الزاكمة على هذا الجزء الشعري من العاصمة المهملة، نزلت أثمنة العقار إلى أدنى مستوياتها، فلم يصمد في هذا الجحيم العطن الممتد بمحاذاة النهر سوى أفران الخزف، وبعض المزارعين المنتجين لخضروات ملوثة، ثم لاحقا بعض «الدواوير» التي تكونت حول المزبلة، قادمة من بادية زعير، وقرية أولاد موسى، وهضبات عكراش والبراريك المتناسلة حول النهر،

في أماكن تعد أجمل ما انفردت به الرباط من ثروة طبيعية، بينما راحت بورجوازيتها عديمة الخيال تتمدد في الأراضي المنبسطة لطريق زعير في حرب حمقاء على البحر والنهر معًا.

ثم جاء العهد الجديد، وفي غمرة الأوراش الرمزية التي تحركت تحت لوائه، أنشئت وكالة تهيئة حوض أبي رقراق التي أصبحت سريعا الذراع الاستيتيقية لإعادة هيكلة العاصمة.

ومرة أخرى تحركت أحلام الثروة النائمة لدى جيل جديد هو جيل زوجتي وإخوتها، الذين حسبوا جيدا هكتاراتهم، والأثمنة المنتظرة للمتر الواحد، فوجدوا ببساطة أن العائلة التي عاشت منذ عقود على الكفاف والعفاف وأنفة العائلات العريقة، قد أصبحت من أثرياء العهد الجديد.

لكن الأثمنة لم تتحرك، لا صعودا ولا نزولا، لأن الأرض نفسها طارت في رمشة عين جملة وتفصيلا. أخذتها الوكالة كما أخذت كل الأراضي الأخرى لتجعل منها وعاء لمدينة الأحلام.

تقول زوجتي مغتاظة عقب كل مكالمة مع صديقنا المحامي أحمد مجد، إنها لاتفهم كل هذا التشدق بالديمقراطية والحداثة في بلد ليس له أدنى احترام للفرد، ولا للملكية.

فكنت أجيبها دائما على سبيل المماحكة: لقد نامت عائلاتكم على هذه الثروة لعقود، دون أن تقدم منها شيئا لنفسها ولا لبلادها. وعندما قررت الدولة إيقاظ هذا الخير وإغداقه على الشعب ظهرت لكم ثغرات في دولة الحق والقانون!

ودائما تجيبني بهية بأن الحداثة المزعومة هي السيبة لا أقل ولا أكثر، ثم تخرج على الموضوع بالتعريض بما صرنا عليه في اليسار التقليدي من التسبيح بحمد السلطة المطلقة لحد الانتشاء بالإذلال الجماعي للأمة.

ودائما أجيبها ساخرا.

- ولماذا اليسار التقليدي وحده ياعزيزتي، وهل هناك هتاف أعلى نبرة من هتاف اليسار الجديد؟

فلا ترد في أغلب الأحيان، مخافة الوصول إلى المحامي صاحبنا، وهو اليوم بعد تسلله تدريجيا إلى الحياة العامة، لايترك فرصة تمر، دون التباهي بأدواره الحاسمة في اتخاذ قرارات كبرى في الدوائر العليا، خصوصا في مواضع حساسة لها علاقة بحقوق الإنسان والمفاوضات السرية مع البوليساريو، مما يفجر لدي طاقة من السخرية أظل أنا نفسي ضحية لسوادها لعدة أسابيع.

لم تتحدث بهية وأنا عن الأرض موضوع النزاع خلال سنوات من علاقتنا. كنت قد عرفت من والدها بشكل مبهم قبل رحيله المفاجئ، أنه يملك أرضا شاسعة على ضفاف أبي رقراق مثله مثل عدد من العائلات الأخرى التي كانت تعتبر هذه المساحات السبخة ثروة شكلية لا تسمن ولا تغني من جوع.

لكن بعد مجيء الوكالة ونشوب هذا النزاع، بدأنا نتحدث في الموضوع بشكل متوتر، لأن نزع الملكية الذي تم بسرعة فائقة فجر لدى بهية شعورا بالظلم وجعلها تعتقد أن قدرا غريبا يلاحقها، وأنها إذا ربحت هذه المعركة فإن شيئا جوهريا سيتغير في حياتها.

وعندما كنت أقول لها إن أسوأ ما في الأمر هو أن تصبح هذه الثروة المحتملة بما تعنيه من ريع وعقار ومضاربات هي القضية التي ستختم بها حياتها كانت ترد علي محتدة بأن أسوأ ما يمكن أن يحدث في ختام حياة ما هو «القناعة». هو الشعور بأن ما حصلنا عليه هو أفضل ما يمكن أن نحصل عليه.

- ثم من قال لك إنني سأختم حياتي؟

عاشت عائلة زوجتي جيلا بعد جيل في قلب سلا، لم يغادر أسوارها أحد، ولم يدر في خلد أي فرد من أفرادها أن يذهب ذات يوم ويستقر في مكان بعيد عن أضرحة المدينة وزواياها ومسجدها الأعظم. شخص واحد لا يُعرف ما حدث له قرر تكرار تجربة الفردوس المفقود في تاريخ العائلة، فهاجر وسط اهتياج عاطفي لم يسبق له مثيل إلى الضفة الأخرى، واستقر بطريق زعير على بعد ربع ساعة من فردوسه. فكان لا يصل المساء، حتى ينصب طاولة الحنين في منزل هجرته ويمضي في رثاء سلا وأهلها والبكاء على نعيمها الزائل. وكأسا بعد أخرى كان الحنين يعلو به إلى مراتب من الوجد تخرجه عن أطواره، فيصب جام غضبه على الفطر الذي تناسل حول المدينة من بطانة إلى تابريكت إلى سوق الكلب إلى دوار الشيخ المفضل، إلى القرية والرحمة وما شابه ذلك، حتى أصبح النسل الأندلسي شعرة ضائعة في شعكوكة من الأخلاط! ذلكم هو والد زوجتي، أستاذ اللسانيات الحديثة في جامعة محمد الخامس الذي أودى بحايته الخوف من الفقر، والحنين إلى سلا، والحسرة على احتضار اللغة العربية.

كان إذا جن الليل يطلب من زوجته أن تعد الجلسة ويخرج في دورة رسمية جدا بسيارته، تأخذه حتى مفترق لوسكو وشارع الجزائر ثم يرجع مديرا ظهره لأضواء مدينته المستكينة خلف النهر. فإذا دخل بيته مرة أخرى لم يفتأ يردد شطرا واحدا من بيت للمتنبي:

«ومن نكد الدنيا على المرء أن يرى».

وعندما قلت له مرة إن المعنى لا يستقيم بدون عجز البيت، أجابني على الفور: بل يستقيم وزيادة!.

-هكذا، بدون تحديد؟!

- نعم هكذا في المطلق. لأن النكد كله هو أن ترى!.

لكن الرجل الأنيق الذي درس في باريس، وساهم في تحديث الجامعة المغربية، لم يتحمل ما كان يسميه بانهيار المغرب المستقل. لم يستسغ تشرذم العمران في مدينته التاريخية، ولا تآكل المدرسة المغربية، ولاتبدل القيم ولا هيمنة التسابق على المال. لم يستسغ تلاشي اللغة العربية، وصعود طبقة الأغنياء الجدد، تجار التجزئات والخمور السرية والمضاربات الذين أصبحوا وجهاء المدينة وأكابرها، أن تصبح سلا نقطة في بحر، وتعبيرا فصيحا عن تراجيديا التلاشي والاضمحلال التي فاجأت جيله.

كان الحاج التهامي يقضي اليوم كله في صراخ مستمر كأنه يريد أن ينظم هذه الفوضى المندلعة حوله بصوته المرتفع إلى أن ينام راضيا عن نفسه لأنه قام بما يتوجب عليه القيام به. إلى أن نام ذات يوم ولم يستفق أبدا.

لذلك لم تفهم بهية أبدا لماذا تعاقب الدولة هذا الرجل الوديع بحرمان أبنائه من إرث شرعي. وحاولت بكل ما أوتيت من قوة أن تجعلني أعتنق هذه القضية في وقت لم يتبق لي فيه أي حماس لأية قضية فكنت أرد عليها بشكل مبالغ فيه:

ألا ترين أن فلسطين نفسها لم تعد تحرك في شعرة واحدة، لا هي ولا سقوط بغداد، ولا حزب الله. لا أرض مغتصبة ولا شعب مسحوق.. كل هذا وغيره لم يعد يثير في النفس ما يجعلها تنزل للشارع وترفع صوتها ولو على مقام النهاوند! فكيف تريدين ياعزيزتي أن أجعل من أرضك المغتصبة على ضفة أبي رقراق قضية أجند لها الأنصار؟!.

ولاشك أن جوابي كان يؤلمها. فتصمت طويلا كأنها تجعل انحباس صوتها، علامة على انسداد كل شيء.

وذات يوم أجابتني كأنها تحدث نفسها: أنت لاتعرف أني قضيت يوما

كاملا مع ياسين قبل سفره، نجوب هذه الأرض، ونشيد فوقها مرابض للخيول ومسابح ومرافئ وغرفا صغيرة بيضاء، وملاعب للأطفال. فقلت:

- لكنه فضل أن يفعل ذلك في الجنة، على ضفاف لايغتصبها أحد!.

وعند ذلك حدث شيء رهيب لم أتوقعه. راحت تصرخ وتلطم وجهها، وتمزق ثيابها، وتشد شعرها حتى تملأ راحتيها بخصلات كاملة منه، ومن خلال هذا المأتم المروع كان يصلني صوتها عاليا، حادا، ممتلئا ببكاء جنوني.

- أنا أحدثك عن ياسين، ابني، روحي، فلذة كبدي، ابني، ابنك، ابنك وليس عن قطة داستها سيارة. لماذا تقتله هكذا؟ لماذا تغتصبه مني بالسخرية. اذهب، اذهب لا أريد شيئا، لا أريد قضية.. لا أريد أرضا.. لا أريد.. لا أريد..

كنت أمشي وأجيء في الغرفة، لا أعرف ما أفعل، لم أقترب منها. أصابني رعب شديد شل كل قدرتي على القيام بشيء. لم أستطع الكلام ولا الغضب ولا طلب الصفح. استسلمت لنوع من الذهول جعلني أنظر بحياد إلى ما ينهار حولي وأتأمل هذا الوضع الذي أصبح آلة لإنتاج الألم، حيث أستطيع بنوع من التلقائية القاتلة أن ألحق آلاما لاتطاق بزوجتي؛ وحيث تستطيع هي أيضا في أقصى وجعها أن تُعذبني متحررة من كل شعور بالذنب، كأنها لا تفعل سوى النزول عند رغبتي بتكبيدي أفظع ما أنتظره وما لا أنتظره من خسائر.

بعد هذا الحادث، مرت شهور كانت بهية تستقبل فيها كل يوم سبت إخوتها والمحامي أحمد مجد، وفاطمة في غذاء عائلي يجري فيه الحديث عن القضية، وعن جلسات الصلح التي يسعى المحامي إلى ترتيبها بكثير من الحذق السياسي. كنت أشارك بحضوري الجسدي ولا أنبس ببنت

شفة. وإذا ما حصل أن انتبهت بهية لوجودي، فإنها كانت تومئ لي برقة، علامة على أنها نسيت ما حصل، وأنني يمكن أن أتدخل، لكن ذلك كان يضع كرة ثلجية في حنجرتي. فيحتقن وجهي، وتغيم عيناي، وينتهي بي الأمر في الحمام حيث أقضي وقتا طويلا قبل أن أتخلص من مغصي.

في واحد من غداءات الأرض كما كنا نسميها، تحدث أحمد مجد باستفاضة عن المشروع الذي سيستغرق إنجازه أكثر من عشر سنوات، والذي سيضم المنطقة السياحية والمرافئ الترفيهية، والنفق تحت قصبة الأوداية وإعادة تأهيل منطقة شالة، بالإضافة إلى المناطق التجارية والأحياء السكنية الراقية، والفنادق الكبرى، والمطاعم، ومدينة الألعاب، والمقاهي والمؤسسات الثقافية والفنية والملاعب، مما سيجعل من النهر والمصب بؤرة حيوية جديدة في العاصمة، قالت بهية إن المؤمل هو أن يساعد هذا المشروع على إدماج الضفتين وإنهاء عقود من عدم التوازن بينهما، فأكد أحمد مجد بيقين من يعرف خبايا الأمور أن الأمر سيكون كذلك، وأن فلسفة المشروع قائمة على رؤية مستقبلية تعمل على تحويل النهر إلى وسيلة إدماج وليس إلى جدار يفصل بين مدينتين. وعند ذلك نشبت معركة كلامية بين فاطمة وأحمد مجد حول تدبير المشروع وإنزاله بمظلة السلطة على رأس المدينة، وأعربت فاطمة عن اقتناعها بأن مصالح كبيرة قد ولدت حول المشروع حتى قبل أن ينطلق، وأن قضية الأراضي المصادرة هي فضيحة حقيقية. لكن أحمد مجد أكد أن الأمر يتعلق بسياسة إرادوية تقفز على العوائق والمقاومات التقليدانية، وأنا إذا كان يضطهدني شيء وينهي لدي كل رغبة في المقاومة فهي صيغ الفعالوية والفعلانية، ما إن ينطق بها أحد حتى يصعد خراء الدنيا كلها إلى أسطوانتي الصلبة.

لذلك سارعت إلى وضع لساني في حالة إطفاء كامل، وتوجهت إلى

الشرفة. عند ذلك سمعت بهية تقول بتأثر بالغ إن ياسين كان يحلم بوضع قوس كبير من الفولاذ على ضفتي المصب، قوس يجعل النهر كما لو كان يمر بين أصابع المدينتين.

وكأنما أحس أحمد مجد بانفلات شعري وشيك لاقبل له به، سارع إلى العودة إلى الموضوع مرة أخرى، والتأكيد على ضرورة الصلح وفق ما اقترحه سابقا ورفضته بهية وإخوتها. يتعلق الأمر بأداء تعويض عن الأراضي التي حسم في أمر تحفيظها العقاري، وتأخير معالجة الأراضي الأخرى إلى حين استكمال مسطرة التحفيظ، على أن يكون التعويض نوعين، نوعا نقديا يتفق بشأنه مع مكتب الخبرة المنتدب لهذا الشأن من قبل الوكالة، ونوعا عينيا في شكل امتيازات استغلال في المناطق التجارية والترفيهية.

أما بهية وإخوتها فكانوا يصرون على إتمام البيع بثمن السوق على مجمل الأرض المصادرة. وكلما كررت بهية هذا الرأي استشاط المحامي غضبا. وناشدها بعد هدوء مسرحي أن تفكر في الموضوع مليا.

-تصوري معي! كيف يمكن للوكالة أن تشتري منك بثمن السوق وهي توزع هذه الأراضي مجانا على من يقبلها من المستثمرين الأجانب تشجيعا لهم على الاستثمار في أرض أجدادك الميامين! وبما أن أحمد مجد كان قد بدأ في فتح ثغرة في جبهة الورثة، باستمالة الآخ الأصغر للحل المقترح، فإنه واصل الاشتغال على الموضوع مقدما إغراءات مقنعة، وملوحا بالمخاطر التي قد تنتج عن الدخول في مساطر قضائية غير مضمونة العواقب.

استمر الجدال لأزيد من سنة حول المساطر والحلول بدون أي نتيجة تذكر. كانت الأشغال جارية على قدم وساق لإنجاز الموانئ والأرصفة والمنشآت السياحية والترفيهية، والبحيرة الجديدة، والجزيرة المصطنعة،

وكانت اللوحات الإشهارية المعلنة عن هذه المشاريع تغطي النهر في جزء كبير من المسارات المحيطة به وكانت اللقاءات الصحفية تتناسل باستمرار كلما انطلق جزء جديد من المشروع، وبدأت الفضاءات المرتقبة وقد روج لها التلفزيون بمشاهد افتراضية باهرة تملأ خيال سكان الضفتين لتغذي بمواد حديثة خصوماتهما التاريخية. لأي من الضفتين سيؤول ريع هذا التحول التاريخي؟ هل سيثأر المشروع لقرون من تدهور سلا؟ هل سينقذ الرباط من ليلها القروي؟ أسئلة كثيرة كان أحمد مجد ينقلها من سهراته الخاصة مع علية القوم، إلى سهراتنا المتوترة، وكثيرا ما كان يستغل فضولنا ليستعرض نظرياته الجديدة حول الدلالات الرمزية لمرور نفق للسيارات تحت قصبة الأوداية، وتهيئة ساحة تجمع بين الباب الكبير وسجن لعلو، وزنقة القناصل وتصبح «مون مارتر» العاصمة. إنما خسارة، هذه المقبرة التي تجثم على صدر المنطقة! ما هي هذه الأمة التي تدفن موتاها في أجمل مكان يليق بالأحياء!

- قلت بغضب مبالغ فيه:

- إنها مقبرة الشهداء، أذكرك! هناك يرقد علال بن عبد الله، وعلال الفاسي وعبد الرحيم بوعبيد والحسين الخضار وعبد الفتاح سباطة والآف الناس البسطاء والأكابر!.

قال أحمد مجد: وهناك يرقد الدليمي والبصري ومئات من هذا الصنف!.

- لاأسمح لك بهذا الخلط! الموتى لايختلطون حتى لو دفنتهم في قبر واحد. الموتى وحدهم يستحقون هذا المكان. يستحقون الإشراف على الشاطئ والاتصال المباشر بين ظلماتهم وبحر الظلمات! ثم بدا لي أن أبتعد عن هذا الوجع الزائد، فانسحبت إلى دواخلي وأنا أستمع بنوع من

التسلي إلى مناقشات مستفيضة حول إدماج الضفتين من خلال الترامواي الذي سيربط بين تابريكت في سلا وأكدال في الرباط، بين بطانة بسلا وحي المحيط بالرباط،، بين ضفتي أبي رقراق عبر قنطرة مولاي الحسن. خطوط ستنقل أزيد من خمسين مليون شخصا كل سنة. وتزرع في المدينتين أكثر من خمسين محطة.

أعجبتني فكرة المحطات، فقلت في نفسي إن المدينة لا تصبح مدينة فعلا، إلا عندما تكثر محطاتها، حيث تتناسل المواعيد والعلاقات والوجوه الممكنة والمستحيلة.

عند ذلك سمعت فاطمة تقول بصوت مرتفع.

- تعتقد أن الترامواي هو الذي سيدمج الضفتين!.

-نعم، من بين أشياء أخرى!.

- غريب، تفكرون في الإدماج بعقلية الخياطة!

-الغريب هو عجزك عن التقاط المعنى من هذه التحولات العظيمة!.

- التقط أنت يا ولدي، التقط بالصحة والعافية! وبعد فترة صمت قالت فاطمة كأنها تحدّث نفسها:

- في زمن ما كان سيدي بنعاشر، وسيدي العربي بن السايح وسيدي عبد الله بن حسون يدمجون ستين قبيلة في نبضة واحدة!.

فلم أنكر قولها، ولم أتحمس له. عدت للتأمل في مايقوله أحمد مجد عن النفق. معه حق. هذه الهضبة هي التي شهدت أول تدفق للمورسكيين في المنطقة، وأن نمر تحتها فكأنما سنمر تحت جذورها.

سنسترجع البحر من الخوف الذي لازمنا منذ قرون. سنخرج له مباشرة دون أن نصعد لنطل عليه. سنقطع مع التقليد الذي يجعلنا ندور حول الجبل عندما يعترضنا. الآن لاندور حوله ولايدور حولنا. ندخل

تحت جسده الثخين ونرفعه فوق أضواء سياراتنا. ندع القصبة معلقة فوق الشاطئ بلا مهام دفاعية ولا وظائف. هضبة بلا معنى، سوى ما يدور في أزقتها من روائح وحكايات. وسترى بنفسها من علوها الفارغ جحافل السيارات تدخل تحتها من أول النفق وتخرج من آخره بينما أبوابها العليا تموت مفتوحة يدخل منها الريح ويخرج حراً كما ولده البحر. انتهت القصبة التي خبأتها الرباط طويلا في ذاكرتها وفضلت التنازل عنها للفقراء والأجانب الذين لايخافون من الرطوبة ويعتبرون عطن البحر هبة من السماء، الآن سترتفع قصبة أخرى، مثل أيقونة فوق صخب المدينة، ستطل على الملاهي والفنادق وعلب الليل وستنسى أنها في زمن ما لم تكن تطل سوى على القراصنة.

قالت فاطمة: تصوروا أن تسقط القصبة أثناء حفر النفق!.

رد أحمد ضاحكا: وهل تعتقدين أن «الطُّبَّة» هي التي تحفر النفق! هذه شركة عالمية، مساندة بمكتب دراسات يديره أحد أكبر المهندسين في العالم.

- مع ذلك فإن حوادث من هذا النوع تقع حتى لأكبر الشركات وأعظم المهندسين!.

-أراهن أنك تتمنين لو تسقط القصبة.

- حرام عليك.. أنا فقط أتوقع الأسوأ من كل ما يحيط به حماس كبير.

سكتت فاطمة. ربما آلمتها سخرية أحمد. أما أنا فقد ذكرتني هذه المناقشة بلعبة تبادل المواقع التي مارسناها في جيلنا. عندما كانت فاطمة وأنا وعدد من أصدقائنا ندعو إلى نوع من الواقعية في عمل اليسار، كان أحمد مجد وأصدقاؤه في اليسار الجديد يسخرون مما يسمونه نزعتنا الإصلاحية التي تدير ظهرها للحلول الثورية الجذرية وترضى بأنصاف

الحلول. وكانوا يرددون على مسامعنا قولة غيفارا «كن واقعيا وأطلب المستحيل» وعندما أصبح أحمد وأصدقاؤه واقعيين جدا، يؤمنون بقدرة السلطة الحديثة المتنورة أن تغير وجه العالم دون إضاعة الوقت في التمارين السياسية صرنا نحن من يتهمهم بالتخاذل والتنازلات المهينة. خلال سنوات طويلة تبادلنا هذه المواقع دون أن ننتبه للخسائر الفادحة التي نجنيها من ذلك.

استمرت بهية خلال شهور في محاولاتها العنيدة للدخول في قلب المشروع، كانت تأمل في الحصول على جزء من الأرض المجهزة، وكان أحمد مجد يجتهد في إقناعها بالحصول على تعويض جزافي ينهي المنازعة. بيد أنها كانت لأسباب متعددة تعتبر أن وجودها في قلب هذه المغامرة هو فرصتها الاستثنائية للعودة نوعا ما إلى الحياة، فربما كانت في قرارة نفسها قد اقتنعت بأن العمر الذي أهدر خلف أحلام ملتبسة، والغصة التي خلفها مقتل ياسين، كل ذلك سيعرف تعويضه البديهي في الانغمار في مشروع لتحويل المدينة، وبث الحياة في شرايينها، في الإمكانية التي سيتيحها الإنجاز المادي لهذا التحول بأن تقول بهية لنفسها وللعالم: تعرفون؟ هذا الوجه الجديد للمدينة هو أنا أيضا!.

- 3 -

ذات يوم، لا أعرف لماذا، نهضت بهية من فراشها مبتسمة ودودة، وفاجأتني وأنا أحضر القهوة في المطبخ بسؤال لم أسمع منها مثله أبدا.

-هل يمكن أن استشيرك في فكرة راودتني هذه الليلة؟

قلت: ومتى كنت تثقين بحكمتي؟

-أنا لا أثق بحكمتك. ولكن أعرف مدى ولعلك بالأفكار الطائشة! لذلك قلت في نفسي ربما تستطيع مساعدتي.

وضعت القهوة على الطاولة، ونظرت إليها لأول مرة منذ بدأت تكلمني.

كان وجهها مضيئا، شاحبا بعض الشيء، ولكن مفعما بشيء طيب. بدا لي أنني لأول مرة منذ سنوات أتفرس في ملامحها، وأكتشف أن لها ملامح. فأخذتني تجاهها رقة مّا، ربما تأثرا بإدراكي للقسوة التي يمثلها كونك تعيش باستمرار مع شخص ولاتراه، أولا تنظر إليه أبدا.

قلت: وماهي هذه الفكرة التي أيقظتنا اليوم بهذا الشكل الغريب؟.

أجابت مندفعة: فكرت أن أخصص جزء من الأرض لمشروع إنساني وفني!.

فردت التصاميم فوق الطاولة، وبدأت تشرح الموضوع:

-دعك من بؤرة المشروع، الموانئ والبحيرة، والجزيرة ومدينة الملاهي وما إلى ذلك. هذه كلها إذا شئنا العناصر النبيلة للمجال الجديد، لنترك لهم

هذه الواجهة هذا الجزء الاستعراضي، لن نطلب في هذه البؤرة سوى بعض المجالات المحدودة... وسنطلب هنا، بعيدا عن كل هذه الضوضاء، في أقصى الضفة، قريبا من الجزء الذي كانت تحتله مزبلة عكراش، ما تبقى من نصيبنا في الأرض!.

قلت: وماذا ستصنعون بهذه المنطقة المنكوبة؟

-نعيد إسكان الناس الذين كانوا يعيشون من المزبلة...

- ثم ماذا؟

- ونعيد الاعتبار للمزبلة!.

-تعيدون الاعتبار لماذا؟

- للمزبلة، نعم للمزبلة!.

ضحكت كما لم أضحك منذ سنوات، لكن بهية لم تتحرك من مكانها ظلت منكبة على التصاميم واستمرت بدون انفعال:

- نعم نعيد الاعتبار للمزبلة، لماذا تضحك هكذا، ألا تعرف أن ملايين الأطنان من النفايات تراكمت منذ سنوات في هذه المنطقة الجميلة، حتى أصبحت هضبة أخرى من هضبات عكراش، وسممت المياه الجوفية ومياه النهر، وغطت أدخنة حرائقها المقصودة والتلقائية ضفاف المدينتين، وأصابت أجيالا متلاحقة من أبناء سلا بالربو والحكة والالتهابات المزمنة.. إنها تاريخ من الأحداث والتحولات مرتبطة بما تلفظه المدينة.

- ومن أجل ذلك تريدين إعادة الاعتبار «للمزبلة»؟!

- ليس لفكرة المزبلة.. ولكن للجسم المادي للمزبلة، لأنه ليس طبيعيا أن نمحو هذه الهضبة في نوع من التنظيف الساذج من المجال ومن الذاكرة! لأنها لم تكن فقط مزبلة، كانت أيضا مصدرا للحياة، وكانت طريقة حياة، تصور عدد الرجال والنساء والأطفال الذين قضوا عمرهم

كله يبحثون في أحشائها عن شيء يعيشون به، تصور كل أبناء المزبلة أولئك الذين فتحوا عيونهم على ركامها وجلبتها، ولم تمتلئ خياشيمهم أبدا برائحة غير رائحتها. أولئك الذين جمعوا رصيد لعبهم منها، وعبثوا فيها بأشياء واضحة وأخرى غامضة، منها حواسيب صدئة، ومواد مفككة، وبقايا أشياء، ونفايات طبية، وأعضاء بشرية كان يلقيها المستشفى الجامعي فيها، ثم فجأة دمى كاملة. وسيارات ولعب ماتزال في علبها، لأن المدينة تلفظ ما يزيد عن حاجتها، ولاتعرف أحيانا أن تميز بين ما تلقيه في دواليبها المنسية أو في مزابلها.

تصور كل هذا الحشد من الناس الملوحين بالشمس والأوساخ ممن ولدوا هناك وقضوا حياتهم كلها فوق المزبلة أو تحتها أو في دواخلها، لايعرفون فضاء آخر غيرها، متصورين أن الحياة لا تكون إلا في مزبلة وأن هذا الذي يتراكم حولهم يأتي من كوكب آخر، تصور كل هؤلاء الناس الذين بنوا أكواخهم وأحلامهم هنا، تصور أن يقال لهم ببساطة:

-لقد غيرت المزبلة موقعها، اتبعوها إلى الموقع الجديد.

ولكن المزبلة لم تكن مزبلة فقط. كانت هضبة. وضفة على نهر، ضفة نتنة نعم، ولكن ضفة على نهر يجري، بقصب تحركه الريح، وسوق كبير للخضر والفواكه والذبائح، وقصص حب، وزيجات ناجحة، وأخرى فاشلة، وأحقاد، وعذابات صغيرة، وموتى ومدافن. لا يمكن أن يقال لهؤلاء ابتعدوا، لقد قررنا أن تصبح ضفاف أبي رقراق أجمل موقع في المدينة، ويمكنكم أن تتفرجوا عليها من بعيد، وتتذكروا كل القبح الذي كنتم عليه. ما أقصده بإعادة الاعتبار هو أن نجد لهؤلاء مكانا بيننا، مكانا في هذه اللعبة الجميلة. كما لو كنا نقول لهم: شكرا لأنكم زرعتم كثيرا من الحياة في هذا المكان الذي حاولنا قتله لسنوات قبل أن نفكر فجأة في إنقاذه.

أتصور أن إسكانهم في قلب هذه التحفة العمرانية لن ينقص شيئا من روعتها، ربما سيضفي عليها فقط نوعا من الطيبة الساذجة. وهذا بالطبع لن يضر أحدا. ثم أن تضيف إلى ذلك إنجاز نصب كبير للمزبلة يكون عبارة عن هضبة اصطناعية من الأشكال والألوان، يلعب بها الأطفال دون أن يلحق بهم أذى، سيكون نوعا من التعبير عن إحساس متحرر بالجمال، لا تحكمه القواعد الجامدة والاعتبارات الجوفاء، فضلا عن المرمى البيداغوجي الذي يمكن أن ينشأ من هذا، كونه سيفتح أعين الناس على ضرورة إقامة علاقة إنسانية مع النفايات. أنا أراهن على أن الناس سيحترمون الماء بتأثير من هذه المعلمة أكثر مما سيحترمونه بسبب البحيرة الجميلة.

استمعت مذهولا إلى بهية، وعندما أنهت جملتها الأخيرة، كان أول شعور خالجني هو أن أطلب منها الصفح لأنني استهنت بفكرتها وحسبتها على الكآبة التي لحقت بها جراء تعثر القضية.

قلت إنها فكرة رائعة حقا، وعبرت لها عن تخوفي من أن تثير لأسباب مختلفة مقاومة تجعلها مستحيلة التطبيق، لكنها أبدت استعداداً كبيراً لمتابعة الموضوع مهما كانت النتيجة، فطمأنني ذلك على معنوياتها، وسمح لي تبعا للجو الإيجابي الذي خلقه الحديث عن هذا المشروع أن أسألها عن الفكرة التي راودت المرحوم حول قوس المصب، فأخبرتني أنه حدثها عن ذلك عندما أخذته معها قبل يوم من سفره ليرى الأرض المصادرة حتى يتمكن من التفكير معنا في ما يمكن أن نفعله بها وعند عودتنا من الجولة قالت بهية، توقفنا عند المصب وهناك عبّر لي عن عدم اهتمامه بالأرض والمشاريع المحتملة بسببها، وقال إنه لو كان بمقدوره أن يفعل شيئا فإنه سيركب قوسا كبيرا مثل قوس قزح يجمع الضفتين، قوسا ضخما غير منتظم، لا أثر فيه لأي تماثل، قوسا يفوق في علوه قصبة الأوداية، تبدأ

قاعدته الأولى في ذراع المصب بالرباط، ثم يعلو منها إلى أعلى نقطة في مساره، قبل أن ينزل صوب قاعدته الثانية على الضفة المقابلة. قوس من الفولاذ، مصبوغ بالأزرق، كأنه خيط ماء يلعب فوق المحيط.

سألت عما إذا كان قد ترك شيئا في أوراقه أو رسومه فأنكرت بهية ذلك. وقالت إنها تعتقد أن الفكرة كانت بنت لحظتها، وأنه ربما كان يسخر من هذه المشاريع ويقول إن العبث هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن ينقذ المدينة! لم أجب بشيء. خرجت منقبضا من البيت، ومشيت طويلا في أزقة المدينة القديمة صوب النهر وأنا أستعرض كل الأشياء البسيطة التي لم أفلح في إنجازها. كنت أتمنى أن أشيد بيتا صغيرا على البحر لا يهم أين، ولكن لم أتمكن من ذلك. وكنت أتمنى أن أسافر إلى هافانا لاأعرف لماذا، ربما بسبب الموسيقى وروايات «إنفانتي» أو فقط لأن صديقا قديما كان قد ذهب هناك في مهمة صحفية فلم يستطع العودة إلا بعد سنة كاملة. وأنا كنت أحلم دائما أن أسقط في شباك مدينة لايسلمني حضنها لأي مكان آخر، مدينة تضمك وترضعك، تعنفك وتلحس جراحك.. مدينة تعيش فيها كأنك تبنيها حجرا حجرا، وتفكر فيها عندما تتهيأ للنوم كأنها امرأة تنتظرك، لكنني اليوم لا أقوى على سفر مثل هذا، لا أرغب في حمل حقيبة والذهاب بها إلى المطار. أقصى ما أستطيعه هو الوقوف في الشارع على الواجهة البحرية لهافانا، بانتظار مرور النمور الثلاثة لأذهب معهم إلى ليل المدينة، وأفتح صندوق تلك اللغة الصاعدة من أحشاء الليل. ما أروع هذه المدينة التي تخلع لغة النهار عند غروب الشمس، وتلبس لليل لغة أخرى.

وكانت لي أيضا أمنيات أقل مجدا، مثل إنقاص وزني، وإتقان رقصة التانغو ولكنني انتهيت إلى التنازل عن كل شيء واكتفيت بالحرص على

أناقة غير صارخة تعلمتها من والدتي.

عندما أتذكر كما أفعل الآن كل ما لم أفلح في إنجازه، يعتريني شعور بالغبن. إذ غالبا ما يجرني ذلك إلى المقارنة بين الجهد الذي بذلته لاعتناق قضايا كبرى، والجهد الذي بذلته لتحقيق أمنياتي الصغيرة، ودائما أدرك من خلال هذه المقارنة أنني لو كنت قد بذلت ولو جزء صغيرا من الجهد الذي بذلته في تلك القضايا العظيمة، لتحقيق رغباتي الصغيرة لكنت اليوم شخصا آخر، فأقر بيني وبين نفسي استنادا لهذه الحقيقة، بأن تحقيق كل أهداف الدنيا، لايكون له أي معنى، إذا كانت النتيجة على المستوى الشخصي هي وضع حطام إنسان مًّا في كيس بلاسكيتي ونسيانه على قارعة الطريق.

جلست بعد إجهاد نفسي بالمشي والأفكار السوداء في مقهى قريب من النهر، هتفت لفاطمة وقلت إنني أنتظرها هناك. وفي هذه اللحظة ظهر ياسين وبادرني قائلا:

- لماذا تسأل بجدية عن القوس؟

-لاشيء.. فقط أعجبتني الفكرة!

- لاأريد أن تقفز على الموضوع. لاعلاقة إطلاقا بين مشاريعي ومشاريعك هل تفهم؟!.

- أفهم ذلك، ولكنك لم تعد هنا!.

-أنت الذي لم تعد هنا!

- اسمع، هذا القوس لا تحتاجه أنت، ولا أنا، ولا أي شخص آخر. المشروع الجديد هو الذي يحتاجه. في قلب كل تلك العناصر المادية الضرورية للمدينة الجديدة، لايوجد حتى الآن أي عنصر مجنون. القوس يمكن أن يكون كذلك. يمكن أن يكسر الحساب الصارم للربح والخسارة

يمكن أن يخرج المدينة من نسق العمران البحت إلى نسق الخيال البحت. هل يمكن أن تفهم ذلك؟.

- نعم أفهم ذلك. ولكن هذا السطو من قبلك على الفكرة يزعجني. لا أريد أن تنشأ بيننا علاقة أخرى. ثم إنني أعرف ماذا سيحدث بالضبط، ستجري وراء المشروع دون جدوى وعند ذلك ستضيف إلى رصيد خساراتنا خسارة جديدة!.

- وإذا قبلت الفكرة. وصار القوس جزءاً من ملامح المدينة؟!

- هذا أيضا سيكون فظيعا!

-لماذا؟

- لأن علاقة أخرى أكثر تعقيدا ستنشأ بيننا. وأنا لا أحب ذلك!

- يجب أن ننسى خصومات الماضي.. تعرف؟ لا أملك ذرة حماس واحدة لهذا المشروع ولا لغيره. إنني فقط أريد أن أخرج من البئر!.

-والمزبلة؟

-لاأريد أن تكون لي علاقة بالموضوع.. تصور، بعد كل هذا العمر في مقارعة الامبريالية والرجعية أنتهي مناضلا من أجل مزبلة؟

ضحك ياسين وسألني:

- والقوس؟ هل تظنه سينقذ الجماهير الشعبية الكادحة؟!.

-نعم سينقذها.

-مماذا؟.

-من التعود على إعدام الخيال!.

- أنت تمزح، القوس سينقذ شيئا صغيرًا يخصك ولاشيء غير ذلك.

وصلت فاطمة فانسحب ياسين تاركا جملة قاسية معلقة في فمي، لعل فاطمة لاحظت أثرها في وجهي فبادرتني قائلة:

- هل خرجت للتو من معركة حامية؟

- لا، أبدا، فقط كنت أجادل نفسي في مشروع جنوني.

-قالت مندفعة

-السفر إلى هافانا؟.

-لا، قوس ياسين على المصب!

التمعت عيناها، وقالت إنها منذ اللحظة التي سمعت فيها بالمشروع لم تتوقف عن التفكير فيه، وقالت إن إنجاز القوس سيدخل مدننا في تجربة جديدة ربما تفتح ثغرة في التقليد الجاثم على صدورنا.

هكذا رحنا نخطط للقوس. نؤسس الجمعية التي ستتكلف به، ونحدد الجهات التي سنطرق أبوابها، ومكاتب الدراسات التي سنستعين بها. وقلنا حتى ولو لم يتحقق القوس، فإننا سنمنح أنفسنا قضية تخرج عن المألوف، قضية ذات أبعاد شعرية ربما تنجح في تحريك شيء ما لايريد أن يتحرك.

نشأ خلاف حاد في الصحافة بين من اعتبر القوس اعتداء على المجال التاريخي للمدينة، وبين من اعتبره إضافة فنية حديثة لهذا المشهد المجمد في ملامح الماضي. هناك من دعا إلى اعتبار القوس المفتوح على المحيط دعوة لاعتناق المطلق، وهناك من اعتبره تعبيرا عن فوبيا المغاربة من كل فضاء لاتحكمه الأبواب والأقفال. هناك من اعتبره اقتراحا جريئا للتعبير عن حاجيات جديدة في المجال الحضري، وهناك من اعتبره تعبيرا عن أزمة اليسار التقليدي الذي لا يبتكر المشاريع ولكن يبتكر الألاعيب التي تشوش عليها.

لكن أغرب ما قرأناه في هذه الفترة هو ما قاله أحد المتملقين الجدد، من أن الفكرة قديمة جدا، وأنها موجودة أصلا في مشروع تهيئة الضفتين، وأن عملية سطو ساذجة قد تم تنظيمها على الفكرة للإيهام بأن جهة واحدة

في هذا البلد تستطيع تخيل أشياء باهرة من أجل مجالنا الحضري!.

وعندما دعت الوكالة جمعيتنا إلى اجتماع حول الموضوع فهمنا هذا المقال على أنه تمهيد لقبول الفكرة. ففرحنا لذلك.

قدمت فاطمة باعتبارها رئيسة الجمعية، عناصر المشروع، فلسفته، وأبعاده الفنية والإنسانية، ثم تصورا مدعوما بدراسة تقنية أنجزها تجمع لمكاتب دراسات هندسية ومجموعة من الفنانين المعروفين دعما منهم للجمعية.

وعند نهاية عرضها أمام مجموعة من المديرين والمهندسين جرى تبادل بطيء لابتسامات مترددة قبل أن ينفجر الجميع في ضحك صاخب.

وقد حاولنا عدة مرات أن نتدخل لاستئناف الحديث فكان الضحك يخبو قليلا، حتى تصدر عن أحدنا كلمة أو كلمتان فيعود بأكثر مما كان عليه. لذلك اضطررنا إلى التنازل عن الحديث نهائيا، وبقينا نتابع هؤلاء الأشخاص المرموقين، المتفوقين في كل شيء، والأرقى من كل بشر الدنيا، يتبادلون المناديل الورقية والقهقهات المكتومة أو المنفجرة. وينظرون إلينا من حين لآخر، معتذرين بإشارات غير مكتملة، كأنهم أيضا يلوموننا على هذا الوضع المحرج الذي أوصلناهم إليه.

وعندما وصلت الأمور إلى حد من الحرج لم يعد ممكنا معه الاستمرار في الضحك تنحنح المدير، واستوى في جلسته قبل أن يقول بصوت خافت:

- أرجو المعذرة! كنا في الواقع نتابع ما يكتب في الصحافة عن الفكرة، ولكننا لم نتصور لحظة واحدة أن الأمر يمكن أن يكون على هذا القدر من الجدية.

- قلت:

- ليست هناك أي جدية، إننا فقط نريد أن نفهمكم أن اللعب أيضا حاجة من حاجيات التعمير!.

-نعم نفهم ذلك. لكنكم تقدرون بدون شك أن هذا اللعب مكلف جدا، وأنه في الوضعية الراهنة للمشروع لايمكن إقناع أحد بهذا الإنفاق الضخم!.

- نحن لم نفكر بهذا الشكل. لقد تبادر إلى ذهننا أن مشروع التهيئة هو من الضخامة والجرأة بحيث يمكن اعتباره المشروع الوحيد الذي يسمح بهذا النوع من اللعب!.

سرى نوع من الارتباك في القاعة اعتمدنا عليه تلقائيا لنجمع أوراقنا ولنستعد للإنصراف. فقال المدير وهو يدفع كرسيه إلى الخلف ويقوم كاشفا قامته الطويلة.

-على كل حال، أرجو أن لا تعتبروا ضحكنا خروجا عن اللياقة، أو عن الموضوع.

قلت صادقا:

- الضحك كان تماما في صلب الموضوع.

بقيت فاطمة متأثرة بما جرى في هذه الجلسة لعدة أسابيع. وكانت تقول إن ما صدمها في النهاية هو حجم السلطة التي يملكها هؤلاء الناس، والتي تخولهم أن يجعلوا مجالا عموميا كالمدينة مجالا لتدخلهم وحدهم بدون منازع. إن بإمكانهم أن يقرروا وضع جزيرة في قلب النهر، وابتكار بحيرة، وتشييد مدينة للملاهي ولا يجدون في ذلك أي اعتداء على المجال أو عدوانية على المواطن. ولكنهم يستكثرون علينا تخيل قوس لن يحتاج إنجازه إلى مصادرة أرض أو ترحيل سكان.

ثم هدأت بعد فترة، واستعادت قدرتها على السخرية فأصبحت تردد

أننا نستأهل هذه البهدلة، لأننا شطبنا على مطالبنا الثورية، وأصبح منتهى طموحنا أن نحصل للشعب المغربي على قطعة فولاذ يعلقها فوق النهر.

أما بهية التي رأتنا نبتعد عن مشروعها بكثير من التعالي، فكانت لاتترك مناسبة تمرّ دون أن تسألنا!.

- وأين وصل القوس؟!

فكنت أرد غالبا:

- إلى مزبلة التاريخ!.

فلم يكن يمنعها إعراضنا من بسط مستجدات إعادة الاعتبار للمزبلة، خصوصا بعد أن استعمل أحمد مجد صداقاته العليا فجلب للمشروع بعضا من التعاطف الرسمي، وكثيرا من التعديلات الشكلية والجوهرية نفضته من كل عناصره المفاجئة، ليصبح مجرد نغمة باهتة في سمفونية التنمية المستدامة، لذلك لم نكن نعير أي اهتمام لما تغدقه علينا من أخبار وتفاصيل للتدليل على أن الصيغة الجديدة هي انتصار للجوهر ولو على حساب الشكل، وأن كل ذلك هو ثمرة تفاوض عسير لعب فيه الداهية أحمد مجد دور المهندس الذي لا يشق له غبار!.

إلى أن حدث ذات مساء ونحن نلوك مجتمعين تفاصيل مشاريعنا الفاشلة، أن انطلقت الأخبار التلفزية ذات الساعة والنصف مستهلة نشرتها بروبورتاجين طويلين أحدهما عن إدماج منطقة عكراش في مشروع ضخم للسكن الاجتماعي وخلق مدينة جديدة على أنقاض المزبلة، وثانيهما عن انطلاق الأشغال في بناء «باب البحر». على المصب، تماما حيث تخيل ياسين قبل مقتله في أفغانستان قوسا من فولاذ ليمر النهر تحته كما لو كان يمر من بين أصابع المدينة.

معجزات الحياة الصغيرة

- 1 -

عندما رجعت إلى البيت ليلا، وجدت بهية ما تزال مستلقية على الأريكة قبالة التلفزيون. اعتدلت في جلستها وقالت مترددة إنها تريد أن تكلمني.

جلست متوجسا، فدفعت نحوي بغلاف عرفت من أول وهلة أنه غلاف المختبر الطبي الموجود في مدخل العمارة. أمسكت به مترددا، فرجتني أن أقرأه بإمعان، وهو ما فعلته بسرعة فائقة، متوقعا كارثة من تلك الكوارث التي لا تتقنها سوى المختبرات، لكنني بعد قراءة أولى وثانية لم أفهم شيئا. عند ذلك رفعت بصري نحوها. وبالكاد أخرجتُ صوتي.

- ماذا؟

- تحاليل طلبها الطبيب ليعرف مدى خصوبتي.

- وماهي النتيجة؟

- تصور، ماتزال خصوبتي كاملة غير منقوصة.

قلت وقد هدأت بعدما تبين لي أن الأمر لايتعلق بسرطان في نهاية مراحله:

-وماذا بعد؟

- من الممكن أن نصنع طفلا جديدا!.

اقشعر بدني، ورأيت في ثانية كل الجحيم الذي سأعبره من مصحة الولادة حتى مجاهل قندهار، فنهضت من جلستي متوترا، وقلت بحسم كامل ولا رجعة فيه:

لن يحدث ذلك أبدا!.

أمضينا زهاء أربعة أسابيع لا نتحدث فيها مع بعضنا إلا لماما وفي بعض أمور الحياة اليومية البسيطة. كنت أقضي اليوم كله خارج البيت، ومساء أعود مباشرة إلى التلفزة الرقمية، متحاشيا كل تماس مع زوجتي مخافة أن يكون سببا مباشرا أو غير مباشر في تحقيق مخططها الطائش، وكانت فاطمة تزورنا من حين لآخر، وتحدثنا عن هجرتها الوشيكة إلى مدريد، بعدما عينت في مكتبها من طرف الوكالة التي تشتغل بها. فكان ذلك يخفف من غلواء العصبية السائدة.

ذات يوم قلت لبهية بدون مناسبة تقريبا إنني ممتن لها لأنها طلبت رأيي في الموضوع، فقد كان ممكنا أن تحصل على ما تريد دونما حاجة إلى ذلك، ولو أننا لم نعد على علاقة جسدية منذ سنوات. فقالت إنها فكرت في ذلك ولكنها لم تجده وسيلة أنيقة وغير مهينة لكلينا لاستئناف العلاقة. فأكدت لها أنني أفهم أن يعاودها الحنين إلى الإنجاب، ولكن لابد أن تفهم أن هذا الأمر يرعبني، إنه ليس خلافا يمكن تسويته. إنه استحالة لا يمكنني أن أتجاوزها. فقالت ببساطة شديدة:

إذا كان الأمر على هذا النحو فيجب أن نفترق!

وهكذا افترقنا. مَثَلنا أمام القاضي، وعرضنا عليه وضعنا بدون زيادة ولانقصان، فعبّر أولاً عن استحالة الاعتماد على رفض الإنجاب من طرفي لإعلان الطلاق لأن الإنجاب هو المبرر الشرعي والوحيد للزواج، وليس تصوير فيلم غرامي. ثم بذل جهدا مصطنعا لإقناعها بالصلح، ورأى من المناسب أن يذكرني بروعة الأطفال، وأنهم نعمة لا تعادلها نعمة، وقال سترى إذا رزقك الله منها طفلا جديدا فإنك أنت نفسك ستولد من جديد! ولما لم يجد أثرا لكلامه علينا استكمل المسطرة صامتا وسجل في الوثيقة

بعناية فائقة تفاصيل اتفاقنا المادي دونما تعليق.

التحقت ببهية ونحن نغادر مبنى المحكمة فوجدتها تتأهب للتحرك بسيارتها، انحنيت حتى مستوى النافذة، وعرضت عليها أن نشرب قهوة في مكان ما.

جلسنا في حديقة فندق حسان، وتحدثنا لأول مرة منذ سنوات بمودة خالية من الشوائب، كأن شيئا في الوثيقة التي وقعناها قبل قليل قد تدخل لإنهاء حروبنا الصغيرة، ووضعنا على سكة الناس العاديين، الذين لايرون في كل كلمة جبلا من المعاني الخفية، ولا يثير أعصابهما أن الآخر يملأ كأسه بعنف يجعل الماء يرش الجريدة، أو يشعل سيجارة بعقب أخرى، أي لايجعل وجودهما كله سلسلة من التوترات الحادة لكونهما، وحتى دون أن يقولا ذلك يستشيطان غضبا من الحياة مع بعض!.

قالت بهية إنها فكرت كثيرا في الموضوع، لايتعلق الأمر بأي حنين ساذج للأمومة. فأنت تعرف أنني غير مولعة بهذه الأشياء، ومن هذه الناحية لن ألومك إذا قلت مرة أخرى إنني أم سيئة. ولكن بدا لي أن أفضل طريقة أنتقم بها لنفسي من هذه المأساة هي أن أعيد الكرة مرة أخرى، وأحمل وأتوحم وألد وأرضع وأنظف وأصعد هذا الجبل من جديد. أنت تعرف أن الألم أحيانا يدفعك إلى تخيل حلول سحرية، فقد بقيت لشهور طويلة كلما رن الهاتف أتوهم أن أحدا سيخبرني بأن الرسالة كانت خطأ فادحًا، وأن ياسين سيدخل في طائرة التاسعة! ثم تبخر هذا الوهم. وعندما أكد المختبر أن خصوبتي ماتزال عادية رغم سني، قدرت بأن في ذلك إشارة واضحة من القدر، علي أن ألتقطها. عندما رفضت بكل ذلك العنف قدرت أيضا أن بقاءنا معا سيجعل منّا قاتلا لهذا الطفل الجديد.

وبدوري حاولت أن أفهم بهية بأن الطفل لن ينقذني، ولن ينقذ علاقتنا..

لا أريد أن أجري وراء شيء غير موجود. لا أريد أن يراني الطفل الذي تتحدثين عنه منهكا لهذا الحد. لا أريد أن أنتقم لنفسي من أي شيء. أريد حظي من السكينة لا أقل ولا أكثر. أريد أن أثرثر في مقهى على رصيف الحياة، أعلق على الطقس والجرائم ومباريات كرة القدم، أريد أن أخرج ليلا للاحتفال بشيء جميل قرأته أو رأيته، أريد أن أسافر. بدون سبب ولا هدف، أن أسافر من أجل السفر وحده.

استمرت بهية في ذرف دموعها صامتة قبل أن تسألني.

-ولا يمكنك أن تفعل هذا وأنت أب مرة أخرى؟

-لا يمكنني ذلك أبدا!.

عند ذلك وقفت. أمسكت حقيبتها بيديها الاثنتين ولم تنظر صوبي، وضعت نظارتها الشمسية على عينيها الدامعتين وسألتني وهي تنصرف بماذا أريد أن أحتفظ من أشياء ياسين. قلت ملتاعا:

-بقطعة من ملابسه. تيشورت مثلا أو قميصا من قمصانه.

ذهبت فلم أتحرك من مكاني. رأيتها تنزل الدرج الضيق نحو ممر الاستقبال وبقيت أحدق في فسيفساء الجدار المقابل.

نزل ياسين إلى الطاولة وسألني عما إذا كنت خارجا لتوي من جنازة. قلت!.

-شيء شبيه بهذا!.

- يجب أن تكون الآن على قدر كبير من الخفة. ألم تكن تحمل هذه العلاقة كجبل ضخم على كتفيك.

ليس الأمر بهذه البساطة. إن ما يبدو خلاصا لأول وهلة، لايمنعنا من الشعور عندما نفعله بأننا ندفن جزء منا.

- إنك دائما تبحث عن عنصر درامي في كل حكاية!.

- معك حق! يجب في الواقع أن أحتفل بهذا الحدث السعيد.

- أو على الأقل أن تعترف بأنك محظوظ نسبيا قياسا إلى الفرسيوي الذي يحمل حتى الآن جثة جدتي على ظهره!.

-كلنا يحمل جثة ما على ظهره!.

- أرجو أن لا تكون بصدد التعريض بي!.

خالجني خوف مفاجئ فسارعت للتأكيد.

- أنت لست جثة كما تعلم.

- والآن.. قل لي ماذا ستفعل؟

-سأتفرغ للاهتمام بنفسي.

- قبل ذلك، علي أن أشركك في موضوع هام.

-أرجو أن لا تكون له علاقة بالوعظ والإرشاد.

-لا، بل هو قضية حياة أو موت.

خرجت من المقهى فانصرف ياسين دون أن تستفزني جملته الأخيرة. كنت مشغولا بمواجهة وضعي الجديد الذي يفرض عليّ أن أقوم بعدد كبير من الإجراءات ليس أبسطها العثور على مسكن أنقل إليه أحلامي الطارئة، ولكن قبل كل شيء كان علي أن أقضي جزءا كبيرا من هذا اليوم في نقل نفسي قطعة قطعة من المجال المادي والرمزي الذي قضيت فيه أزيد من ربع قرن، إلى مجال سأبحر فيه بزورق لا أعرفه. وفي نهاية اليوم خرجت من مكتبي بالجريدة بشعور كان قد خالجني يوم جئت إلى الرباط لأول مرة، فقد قلت لنفسي آنذاك. إذا استطعت قضاء ليلة كاملة في هذه المدينة فسأبقى فيها إلى الأبد!.

وكنت ما أزال أمشي بدون وجهة عندما هاتفت فاطمة، فتشبثت بصوتها بكل قواي، وقلت إذا استطعتِ أن تبقي على الخط حتى نلتقي في مطعم

مّا فإن ذلك سينقذني. لكنها لم تفعل، والتقينا بعد نصف ساعة أحسست أنني شخت فيها قليلا.

قلت لفاطمة عما فعلناه، بهية وأنا، هذا اليوم.. فجحظت عيناها، ولم تعلق بشيء. ثم لما رجعت للموضوع أثناء وجبتنا رجتني أن نتحدث عن شيء آخر، لأنها حسب تعبيرها لا تريد أن تقول شيئا قاسيا هذا المساء، ثم استفاضت في الكلام عن مشاعرها المضطربة وهي تستعد للعيش في مدريد، وبينما كنت أعتبر أن هذا التعيين سينتشلها من وضع محبط، راحت تفسر لي أنه سيفتح عليها بابا لمخاوف لا تعد، الخوف من العالم الجديد، والخوف من العودة، الخوف من القطيعة والخوف من المغامرة، الخوف من الحوادث والخوف من أن تموت وحيدة في شقتها.

قلت لا علاقة لكل هذه المخاطر بالمكان الذي نكون فيه فقالت، إنها أحيانا تتمنى لو كانت قد هاجرت قبل عشرين سنة.

- هناك أشياء إذا لم نفعلها باكرا فإننا نفعلها غالبا بشكل سيء!.

رجوتها أن تساعدني في ترتيب بعض الأمور مع بهية واتفقنا أن نلتقي في اليوم الموالي في مكتب صديقنا المحامي أحمد مجد.

عندما وصلت لموعدنا صباح ذلك اليوم، لم يكن صديقنا مرحا كعادته. وكانت فاطمة تجلس في الأريكة المقابلة لمكتبه وقد بدا عليها أنها بكت قبل قليل. فما إن فتحت الموضوع حتى انهال عليّ بسيل من المؤاخذات والمواعيظ، ختمها بالقول إن علاقتي بفاطمة لا يجب أن تفسد شيئا أساسيا في حياتي!.

قلت: وما علاقة فاطمة بالموضوع!.

قال: أنت تعرف أن بهية لم تعتبرك أبدا في علاقة بريئة معها.

- وماذا تعرف أنت من كل هذا: ماذا تعرف من حياتي الخاصة لتسمح

لنفسك بإصدار أحكام البراءة والإدانة.

قلت هذا بغضب شديد، وقد تسربت فكرة خبيثة إلى نفسي بخصوص أحمد مجد. ثم لما هدأت، شرحت له وفاطمة تستمع دون أن تنظر إلينا، مضمون هذه العلاقة. قلت إنها تقف ما دمت تريد أن تدخل بين الجلد والعظم، في الحدود الدقيقة بين الحب وغيره من العواطف الأخرى، لا أحد منا استطاع أن يخطو الخطوة التي تسمح له بعبور الحدود. ولا أحد منا ندم على ذلك. ربما لأننا في العمق لا نحتاج إلى علاقة حب، بل فقط إلى هذه الرابطة المتحررة التي تجعلني أفهم فاطمة وتفهمني في بحر من سوء التفاهم يبدو فيه الجميع على صواب وعلى خطإ في آن واحد.

هنا وقف أحمد مجد خلف مكتبه واتخذ هيأة المفكر الذي سينطق بالحكمة الحاسمة قبل أن يقول:

-هل تعرف الآن لماذا أفضِّل العاهرات؟

نظرت صوب فاطمة فوجدتها قد فغرت فمها مثلي. وعندما طال صمتنا قال أحمد مجد:

-لأنهن كائنات حقيقية، وليس كائنات كتب مثلكما!

خففت هذه الدعابة قليلا من التوتر المهيمن على جلستنا، فخضنا في حديث الانفصال وترتيباته المادية ونتائجه بأقل ما يمكن من الانفعال، وسلمت لأحمد مجد ما أتوفر عليه من وثائق سيحتاجها لتدبير الأمر، ثم انصرفت لأكتري شقة أنتقل إليها من مسكننا المشترك، وفي ذهني أنها لن تكون بداهة إلا في حي ابن سينا، حيث ذهبت على الفور، فوجدت في وكالة عقارية هناك، شقة فارغة في العمارة التي كنت أسكن فيها قبل سنوات، فما إن دخلت إحدى غرفها وفتحت الشباك حتى بدا لي جدار الحديقة، والجسد الذي مرّ في خاطري، جسدا مضاء بالإنارة العمومية.

عندما قلت كل هذا لليلى مساء ذلك اليوم أعربت لي عن قلقها الشديد مما حصل، لم تكن مهتمة كثيرا بعودتي إلى هذا الحي كانت مشغولة بحياتي الجديدة كيف سأدبرها، هل سأتأثر نفسيا بما حدث، هل سأقع في فخ الشعور بالذنب وتعنيف الذات، هل سيلحقني اكتئاب جرّاء الوحدة التي ستعصف بي. قلت لها إن الوحدة لن تكون شيئا طارئا بالنسبة لي، ولست في وضع أكثر سوءا لأصاب بانهيار عصبي.

-ولكن سيكون عليك أن تنظم نفسك بشكل مختلف وأن تهتم بأشياء لم تكن تهتم بها. اسمع لا بدّ أن تشغل سيدة للاهتمام بشؤون البيت. سأبحث لك عمن تقوم بذلك. لايجب إطلاقا أن يكون هذا الوضع الجديد سببا في تدهور صحتك أو مظهرك أو معنوياتك، هل تفهمني؟! لن أسمح لك أن تتحول إلى عازب صعلوك يعيش في بيت متسخ، ويلبس قمصانا غير مكوية!.

حاولت أن أثير اهتمامها بالبعد الرومانسي لعودتي إلى هذه العمارة... لكنها لم تستسلم. وفضلت أن تملي علي لائحة بما يتوجب علي التوفر عليه في الشقة الجديدة، ثم بلائحة أخرى بعد نصف ساعة، ثم بلائحة طويلة ونحن نتعشى.

ثم قالت ليلى ونحن نغادر المطعم إنها كانت تتمنى لو استطعت تحقيق رغبة بهية بمنحها مولودا جديدا قلت غاضبا:

ثم ماذا بعد، هل تعتبرين أنت أيضا أنني مجرد آلة تلقيح؟

فاتجهت بسرعة نحو الطاكسي رافعة يدها بتحية باردة:

- 2 -

ترجع معرفتي بأحمد مجد إلى المرحلة الألمانية، ففي زيارة استطلاعية قمت بها إلى المغرب لترتيب عودتي النهائية، قدمه لي أحد عناصر التنظيم. كان وقتها يدرس بالسنة الأولى حقوق، ويسكن مع شلته المراكشية في شقة صغيرة بحي القبيبات. وقد قضى الليلة كلها يضحك من لهجتي الريفية الألمانية، حتى اقتنعت أن إيواءه لي لم يكن إلا لتنظيم هذه المسخرة.

ولكننا صرنا أصدقاء منذ ذلك الوقت، افترقت بنا السبل في السياسة وفي الحياة. ولكن علاقتنا ظلت متينة لا تقضم منها سوى بقعة ظل وحيدة. هي تلك الرابطة الواهية والعابرة التي كانت له مع بهية قبل زواجنا، والتي كانت تخزني من حين لآخر، فأرد عليها بنوع من التحامل الصبياني لا يعيره أي اهتمام، ولا أظنه احتفظ من ذلك بأية ضغينة تجاهي. في مرحلة السجن تعايشنا بكل ما يفرضه المكان من تمزقات ومشاعر متناقضة، وكنت في المجموعة التي خرجت بعد ثلاث سنوات، فصرت أزوره مع باقي أصدقائنا وأقوم معهم بكل تلك الأعباء الصغيرة التي يعهد لنا بها.

ظل أحمد مجد عنصر تهدئة وتوزان في المجموعة، إلى أن داهمته صدمة قاسية بعد ارتباط صديقته بشخص آخر كان يشتغل بقضايا حقوق الإنسان ويزوره معها باستمرار وقد بذلنا جهدا كبيرا لإخراجه من آثار هذه الصدمة، فلم يستطع أبدا وهو في السجن أن يربط علاقة عاطفية تساعده على عبور هذه الصحراء، على كثرة من تعرف عليهن من نساء كنّ يترددن

على السجن ضمن دائرة التنظيم التي بقيت حية رغم المنع والملاحقة.

في السجن أكمل أحمد مجد دراساته العليا، وفي السجن بنى كل حياته السياسية، لم تكن له ميولات أدبية ولكنه كان مولعا بالأوبرا والموسيقى الكلاسيكية، كما لم يكن يعير أي اهتمام لما يبدعه رفاقه وينشرونه ويعتقدون أنه من عيون الأدب العالمي. إلى أن فاجأ الجميع بنص جميل هو عبارة عن حواريات ساخرة تجري بين السجناء وزوارهم، وسمى الكتاب الذي نشرته دار صغيرة وحقق نجاحا باهرا «البارلوار» وقد اقتبسه فيما بعد سينمائي عديم الإحساس بعنوان أراده كوميديا «الفولار في البارلوار» فكان كما تقول العبارة «أردأ إنتاج عرفته السينما المغربية». وكان أحمد مجد يردد كلما ذكر الموضوع:

-الحمد لله جاءت في الفيلم وليس في الكتاب!

عند خروجه من السجن قضى زهاء ثلاث سنوات تائها ككل السجناء الذين يبترون من أجمل سنوات عمرهم، ثم فتح مكتب محاماة ليبدأ ممارسة المهنة دون نجاح باهر ودون فشل ذريع، واعتمد في نفس الآن على بعض القطع الأرضية التي تركها والده في مراكش ليؤسس عليها مقاولة عقارية سرعان ما كبرت وتوسعت بشكل مذهل، وقبل ذلك كان قد استعاد بيت والده في المدينة العتيقة وأنفق فيه مالا كثيرا وسنوات كاملة ليجعل منه منزل الأحلام كما تخيله منذ طفولته.

لكن ما إن أصبح البيت في أبهى حلته، وأصبح قبلة أسبوعية لمجموعتنا حتى انفتحت عليه شهية أحد الكبار فاختلق له أكثر من سبب ليبيعه قسراً أو عن طيب خاطر، وضغط عليه بالمعارف والأصدقاء والترغيب والترهيب، واقتراح شراكات مغرية، وأدخل أجانب ورجال سلطة في هذه المناورات، ولكن أحمد مجد الذي لم يكن يرعبه شيء مثل هذه القضايا الغامضة، بقي

صامدا، متمسكا بحقه، يناور ويسوِّف ويعد ويماطل ثم ذات يوم ذهب إلى الرجل القوي وقال له: لن أبيعك البيت ولو رجعت إلى رحم أمك.

-ولكنني لا أشتريه لنفسي.

- حتى لو كنت تشتريه لسيدنا محمد عليه السلام، لن أبيعه!

- وهل تعرف أننا نتوفر على أفلام خليعة صورت في هذا البيت.

- أنتم لا تتوفرون على أي شيء من هذا القبيل. إذ لم تصور أفلام خليعة في بيتي كما تقول!. . أما الخلاعة فحدث ولا حرج.

- وقد صورناها!

- أنتم؟

- نعم، نحن، بوسائلنا الخاصة.

- وكيف وجدتم مؤخراتنا وأنتم تقومون بهذه المهمة النبيلة؟!.

-فيها، وفيها!

قالها ضاحكا ونهض.

وعندما رجع أحمد من هذا الموعد الغريب، قال لنا بكامل الجدية إنه سيحبس البيت على الماركسية اللينينة في المغرب وعلى أبنائها عقبا بعد عقب إلى يوم القيامة!

قلت:

- ولكن الشرع لن يجيز التحبيس على الكفار والملحدين، من الأفضل أن تحبسه علينا!.

رد ساخرا:

- وبذلك نضمن خسرانه عاجلا أم آجلا!.

- ولماذا نخسره؟

-قل لي قضية واحدة ربحناها من قبل!.

قلت ساهما.

-ربما ربحنا أرواحنا!.

-ها.... إذاً قل ربحنا البرد!.

ضحكنا كثيرا، وتذكر أحمد مجد والده الذي مات قبل أن يراه طليقا، وقال إن هذا البيت هو طريقته للترحم عليه، وقال كأنه يكمل حديثا سابقا:

- كل هذا العمر الذي ضاع منا، يستحيل تعويضه ولو بكل ثروات الدنيا. لا توجد سنوات تباع في أسواق صغيرة أو كبيرة، يا له من غبن! عندما أفكر في ما اغتصب منا من أعوام لمجرد أن أحدنا نسي كتابا سخيفا للينين في أمتعته، والحال أن إرهابيي الخلايا النائمة اليوم بأحزمتهم ومتفجراتهم لايقضون في السجن سوى بضعة أشهر يتمتعون خلالها عشرات المرات «بالخلوة الشرعية». إنه شيء يفجر المخ!.

قلت مواسيا.

- وكل ذلك من أجل «المراكشية اللينينية». لا يمكن حتى أن نقول. في سبيل الله!.

أصبحت مراكش منذ ترميم البيت القديم مدينة أحلامنا كما كانت الدار البيضاء قد أصبحت مدينة يقظتنا.

في الأولى نلتقي دائما بملذات هاربة، وبغلالة تخبئنا، وتجعلنا على بعد أميال من الحقائق المحيطة بنا. وفي الثانية نلتقي بالاحتمالات المتعددة، وبالإضاءات الخاطفة التي تجعلك تفهم في رمشة عين كيف يحدث مايحدث، قبل أن تفلت الخيط مرة أخرى ولا تفهم لماذا يحدث، ولا كيف يحدث!.

تعودت أن أقضي عطلة نهاية الأسبوع في هذا البيت وكان إبراهيم الخياطي يشاركنا في ذلك أحيانا دون أن ينام هناك، لأنه يعتقد أن الدور

القديمة تشبه الأضرحة وهو يخاف من النوم في الأضرحة.

في الطابق العلوي كانت الأخت الكبرى لأحمد مجد تسكن وحيدة وقد نذرت نفسها لخدمة أخيها قبل السجن وأثناءه وبعده. امرأة صفى الزمن مشاعرها. فأصبحت منبعا للسكينة، ما إن تلقاك حتى تعصف ابتسامتها وعناقها بكل أثر لمخالب الدنيا، يكون قد مسّك حديثا أو قديما. تتكلم لغتها المقتصدة واضعة يدا فوق يد، محدقة فيك بعينين واسعتين. سوداوين فتحس بالشفقة على كل اللذين لايعرفونها. تكبر أخاها أحمد بحوالي خمس عشرة سنة، لكنها تناديه «عزيزي» كأنه هو الذي يكبرها. إعزازا له، «وتكبيرا به» كما تقول، لأنه الذكر الوحيد بين أخواته السبع، اسمها الغالية. وعرفت في مجموعتنا كلها وعائلاتنا ومحامينا وجمعياتنا الحقوقية «بأمي الغالية» لكثرة ما وقفت في أبواب المحاكم والسجون، ولكثرة ما قاست من الطرقات والقطارات والانتظارات إلى أن أصبحت واحدة من تلك النساء المعجزات، اللواتي رمتهن محنة الاعتقالات الظالمة في أتون عالم لم يخطر لهن على بال، فروّضنه حتى أصبح قطاً ناعماً يلعب عند أقدامهن. ولأنها كانت كذلك يقول أحمد، فإنها «الغالية» «ما بايعة.. ما شارية..» وأظن أنها كانت تستعذب هذه الجملة من عيطة البيضاوي، فلا يمازحها بها أحد حتى يصعد الدم إلى وجنتيها.

في هذا البيت كانت الغالية تعيش هادئة حتى نأتي، فتشرف على شؤون المطبخ، وتهيئ الأطباق في كل مرة كأننا سنأكل للمرة الأخيرة في حياتنا، قبل أن تنسحب إلى الطابق العلوي، أو تذهب عند إحدى أخواتها، حسب أجواء السهرة.

في سنها الخامسة والستين، لم يكن يبدو عليها أنها يئست تماما من تجريب حظها في بناء عش يخصها ولم يكن يبدو عليها أنها نادمة على

شيء. كانت تعيش واثقة أنه لن يحصل لها إلا الأفضل في كل الأحوال، ولو تزوج أحمد ورزق بذرية، فربما نذرت نفسها لتربية أولاده، ويكون ذلك أفضل ما يحصل لها.

ولكن أحمد لا يبدأ قصة حتى ينهيها في صفحاتها الأولى، مثلما يفعل مع الكتب، ونحن كنا نمر في كل تجربة من هذا النوع من مرحلة خوف شديد أن تدخلَ سيدة ما على الخط فتطير الدار القديمة من بين أيدينا أو تطير مراكش برمتها. وعندما كنا نمازح أحمد بذلك كان يدعي أن هذا البيت هو من المناطق المحررة القليلة في هذه المدينة، التي عاد الأثرياء الفرنسيون فاحتلوها بدون استعمار ولا عقد حماية.

وبالفعل فقد طارت مراكش حقيقة ومجازا في السنوات العشر الأخيرة. طارت أثمنة عقاراتها إلى عنان السماء، وطارت الدور القديمة، والرياضات، والفنادق من بين أيدي أصحابها الأصليين، وعصف بها زلزال حقيقي محا دروبا وأزقة وحواري عتيقة، وأنبت مكانها قصورا ومطاعم وإقامات ودور ضيافة، واشتعلت بين المالكين الجدد حرب عقارية، جعلتهم يتبارون في تشييد أبنية مذهلة، تليق باستيهاماتهم وأحلامهم الشرقية، مستعملين سقوفا، وأبوابا، وفسيفساء يقتلعونها من هنا وهناك، حتى نشبت حمى رهيبة في مفاصل الدور القديمة جراء ما تعرضت له من بتر وتقطيع، واستئصال لكل تفاصيلها قبل زرعها بشكل عدواني في قصور ورياضات تغلق بشكل محكم على الليل السّري للمدينة. قصور تختلط فيها أساليب معمارية لاعلاقة لها بمراكش، أساليب وأشكال استوردها الوافدون الجدد من رحلاتهم وأفلامهم ولوحات مستكشفيهم من الهند وتركيا وإيران ومنغوليا والصين واليمن وزنجيبار.. وفي هذا الخليط الذي حصلوا على رخص رسمية بإنجازه كترميم لذاكرة المدينة تم طمس هذه الذاكرة بصفة

تامة ونهائية. وفي قلب هذا الشكل الجديد، كدس الأثرياء ما جمعوه من تحف عبر العالم، زجاجيات وفسيفساء ومنحوتات وأواني وزرابي والآت موسيقية بل وسواري، ومرمر، وخزف من حفريات أركيوليوجية عبر العالم، مما لو خضع لتحقيق لكان أكبر تجمع لذاكرة مسروقة. ثبت العمران الخارجي على حاله في شكل دروب وحواري بأسماء أولياء المدينة وعلمائها وقبائلها، وفي قلبه نبتت مدينة سرِّية تبيع ألف ليلة وليلة معلبة بكميات وأحجام حسب الطلب. طارت مراكش، وحطت مراكش أخرى سترت هذا الفقدان. مراكش تعيش وتكبر وتبني وتمتد. وتجلب ملايين السواح ومئات الفنادق والمطاعم والملاهي، تأكل وتشرب وتبيع وتشتري وترقص حتى تصدح الكتبية بآذان الفجر، كل يجد حسابه في هذه القيامة. البسطاء لقمة عيشهم وأباطرة العقار ثروة أحلامهم، وتجار الرقيق الأبيض زبناءهم والمغامرون فرصهم.. ونحن أيضا وجدنا حسابنا، في مدينة تصغرنا بسنوات وتقبل بنا، تمنحنا الستر والأوهام المأمونة.

كنت أجد هنا ما يساعدني على طي المسافة بين الأشياء، أنا الذي يخيل إلي أحيانا أنني لكي أنتقل من حالة إلى أخرى يتوجب علي أن أقوم بمجهود غير إنساني يشبه التجذيف ضد التيار. هنا أستطيع أن أسلم نفسي لأهواء المدينة تفعل بي ماتشاء، هي التي تقدرما أستحقه وما لا أستحقه. وعندما أصل إلى شيء أقول في نفسي هذا ما أستحقه. هنا أستطيع أن أقطع مسافات شاسعة دون أن أحس بعياء عميق. لأن المسافة لا تتعب، الأثقال هي التي تنهك حتى النخاع. وهنا أيضا أعثر على بقايا شيء حي يتحرك من حين لآخر في دواخلي كجمرة ثاوية، يحدث لي ذلك وأنا أمشي، وألتقي فجأة بوجوه لم تشرب المدينة بعد ماءها البدائي، وجوه جاءت من نقطة مغمورة في حوز مراكش تعبر أسواق المدينة وهي تحمل بضاعة للبقاء

على قيد الحياة، على هامش الحياة، على هامش أناس يبتلعون أطنانا من الأشياء المدهشة. ويحدث لي وأنا أرى عربات الأكل، ودكاكين التوابل والعطور، وباعة النباتات العطرية والخضر والفواكه وأتذكر أن كل هذه الأشياء لها رائحة. وأن الأمكنة، تكون منكسرة عندما تكون بدون رائحة.

اغتنمت الغالية فرصة وجودي في البيت وحيدا فجلست معي وتحدثنا طويلا عن طفولتنا، لا أعرف لماذا. تحدثت عن أمي وتحدثت عن أمها، تذكرنا خوفنا من الأحاجي والأضرحة، تذكرت شيئا يشبه الحب عاشته مع ابن خالتها، وتذكرت بنت خالي موظفة بالسفارة الألمانية التي كنت أتبادل معها قبلات حارة فوق سطح البيت. تذكرنا أطباقا كنا نحبها وأخرى كنا نكرهها، وانتهينا إلى التعبير عن قناعتنا بأن الخروج من الطفولة هو التكرار الأبدي لمسألة الخروج من الجنة.

وكنت على أهبة الخروج منتشيا بهذه المكاشفة، عندما هتف لي أحمد مجد، يريد أن يراني باستعجال. وبعد مناقشة متوترة اتفقنا على اللقاء في بيت إبراهيم الخياطي مساء اليوم الموالي بالدار البيضاء.

في الصالون المطل على الحديقة والمسبح، وقف ابراهيم بسحنة من سيعلن نتائج مسابقة تلفزيونية. أما أحمد وبهية فكانا غارقين في أريكتيهما، فما إن دخلت حتى وقفا بحماس غير معهود، ونفحاني قبلات سخية.

لم أكن قد رأيت بهية سوى مرتين منذ انفصالنا. مرة لتسوية بعض القضايا العالقة بيننا، ومرة أخرى لزيارة والدي بناء على رغبتها. لذلك بدت لي قادمة من عهد سحيق، فقلت لها صادقا إنني اشتقت إليها دون أن أنتبه إلى ملابسات الموقف، فردت بتأثر ولياقة بدت لي مضحكة. أما أحمد مجد فقد راح يتحرك بعصبية في جلسته فبادرته سائلا:

- وماهي هذه الكارثة الجديدة التي تريد أن تراني من أجلها

باستعجال.

فانتفض في مكانه، وراح يحاول السيطرة على شيء لم أتبينه، بينما سرت في الجو عصبية غير مفهومة جعلت إبراهيم يصب الشاي في أكثر من عشر كؤوس، بينما لم نكن سوى أربعة أشخاص وجعلت أحمد مجد يقوم بحركات كبيرة. بذراعيه ويديه تفوق في حدتها ما يستطيع تركيبه من كلمات، إلى أن أطلق الجملة المقصودة كما يقذف بشيء يريد التخلص منه:

– لقد قررنا بهية وأنا أن نتزوج.

وصلتني الجملة في البداية باردة ثقيلة، ثم تعقدت وسط الصمت الذي أحاط بها، وتذكرت فكرة خبيثة كانت قد راودتني وأنا أسمع لأحمد مجد في مكتبه يحاول إثنائي عن إفساد شيء أساسي في حياتي. كما تذكرت، العلاقة العابرة التي ربطتهما لفترة قبل زواجنا والتي كانت تشوش علي من حين لآخر. وعند ذلك تحولت هذه الجملة التافهة في حد ذاتها إلى شيء حارق ومهين ومستعصٍ على الهضم. وقفت أريد فقط أن أبتعد عن هذا الجو، لم يكن لي إزاءه مشاعر خاصة، ولم أكن حاقدا ولا غاضبا، كنت فقط مشمئزا، لذلك عندما أمسك بي إبراهيم وقادني نحو الحديقة وهو يبحث عن كلمات يخفف بها مما يعتقده عنفا حصل في تلك اللحظة، أفهمته أنني لست في وضع أحتاج معه إلى مواساة، وأنني لايهمني إطلاقا ما حدث، أريد فقط أن أعرف إذا أمكن متى حدث ذلك، متى ولدت الفكرة، هذا إذا كانت فكرة البداية الأولى قد ماتت بالفعل، متى وأين تم الاتفاق، هل كان ذلك خلال كل تلك السنوات التي كنا نأكل ونشرب فيها حول مائدة واحدة. هل كان ذلك قبل مقتل ياسين أم بعده، هل عندما كان يباشر ملف الأرض، أم عندما كان يعالج ملف انفصالنا. متى وكيف...!

لماذا يتحتم علي في كل مرة يحصل لي فيها شيء أن لا أرى أي شيء ينذر بحدوثه؟.

جاء صوت بهية وراء ظهري.

- أرجوك لا تشغل نفسك بأسئلة لا طائل من ورائها لقد ألح علي أحمد ليعرف السبب المباشر لانفصالنا فحكيت له قصة الطفل الذي أريده وترفضه. هذا كل ما في الأمر، وإذا كان هذا سيصدمك فلن أفعله، أقسم لك لن أفعله.

قلت: إن ذلك لايهمني ولايصدمني، وخرجت مباشرة من الحديقة إلى الشارع المقفر، مساء ذلك الأحد الغريب الذي أدركت فيه مرة أخرى أن ما حدث بالطريقة التي حدث بها، وبالكلمات والمشاعر التي حدث بها لم يكن ليحدث لي لو أنني ذهبت في الوقت المناسب. لماذا لم أذهب في كل المرات التي كان بديهيا فيها أن أذهب، لماذا ذوبت أطنانا من الوجود الزائد في ربع قرن من التأجيل والانتظار؟

مشيت طويلا قبل أن أهتدي إلى مكان أدفن فيه كل هذه المشاعر المضطربة، وعندما صعدت إلى قطار السابعة صباحا باتجاه الرباط، غامت الأمور في ذهني، وتخيلت أحمد مجد بقامته القصيرة يضاجع بهية ويقول لها كلمات حب باللهجة المراكشية فقلت له حانقا، حتى لو أخذت كل نساء الآخرين مطلقات وغير مطلقات فإنك لن تمحو المهانة التي ألحقتها بك تلك التي تنازلت عنك معتقلا وذهبت إلى فراش حقوقي يساندك.

ثم ندمت على هذه الجملة القاسية، وحمدت الله أنها لم تكن سوى في حوار خيالي، الشيء الذي جعلني أقرأ صحف اليوم بغير قليل من التسامح. قبل أن أصعد إلى شقتي وأنام يوما كاملا بلا أحلام.

عندما استيقظت وجدت علبتي الصوتية مليئة بالرسائل القلقة على

اختفائي، ووجدت رسائل مكتوبة أغلبها من زملائي في الجريدة، يتحدثون فيها عن خبر تفكيك جديد لخلية نائمة. وكنت أقرأ هذه الرسائل عندما وصلت أخرى من فاطمة «كلمني أرجوك». ركبت رقمها فجاءني صوتها مرحا.

- قلت:

- يبدو أنك في غاية السعادة!.

- لا سعادة ولا يحزنون، فقط كلمت أحمد مجد، هل تعرف تعليقه على الزواج السعيد؟.

- المكاتيب؟!

-لا! قال لي

- ماذا تريدين أن أفعل؟ لقد نذرت نفسي لتصحيح أخطاء اليسار!.

قلت: أخاف أن تكون هذه آخر جملة ساخرة يقولها!.

-لماذا؟

-لأنه داخل على بحر الظلمات!.

-لاتكن طائر شؤم.. انتبه لنفسك! هل لديك معلومات جديدة عن الخلية؟.

- ليس بعد، سألتقي الزملاء بعد قليل.

-يبدو أن لها علاقة بمجموعة مدريد.

-سنرى.. ثم نتصل فيما بعد.

-أقبلك!.

في طريقي إلى المطعم وخزني ياسين

-ماذا جرى لك؟ أين اختفيت؟

-هل تعرف أن أمك تزوجت؟

-صحيح؟ من لم يخرج من الدنيا لم يخرج من عجائبها.

- هذا كل ما يثيره فيك الخبر؟!.

- نحن لا يثيرنا شيء كما تعلم.

- كنت أتوقع على الأقل أن تخجل مما حصل!

- اسمع، الموت ليس مزحة. نحن لانعبر كل هذا الهول لنظل عرضة للتأثر والخجل!.

- مع ذلك لا بد أن أقول لك إن السبب الأساسي لانفصالنا وانفتاح الباب على مصراعيه لهذا الزواج هو أنت!

- أعرف، ولكن لا تتوقع أن أصاب بعقدة ذنب.

-وتعرف أن فكرة الطفل الجديد هي فقط محاولة لتعويضك؟!.

- لا أحد يعوض أحدا، لا الطفل سيعوضني، ولا أحمد مجد سيعوضك، ولا امرأة أخرى ستعوض بهية، الكائنات كلها، عندما ترتبط بها تصبح مثل لون عينيك، لعنة أبدية!.

- يدهشني أن تقول ذلك..

-ما علينا، هل يمكن أن تفعل شيئا من أجلي؟

-قل مع ذلك!.

- أرجو أن لا تكون قاسيا مع بهية، إنها امرأة حزينة جدا!.

- 3 -

سهرنا في مطعم الشاطئ إلى وقت متأخر، وقضينا الوقت كله في الحديث عن الإرهاب، حتى قال أحد الزملاء إن الإرهاب ينجح حقا عندما يأخذ منا كل هذا الوقت، قبل أن يلاحظ أن الإرهاب في نهاية المطاف خطر من مخاطر الحياة الحديثة، لا أقل ولا أكثر، فهو يقتل أقل بكثير من حوادث السير أو التدخين أو الإدمان أو المرض. الحياة نفسها تقتل أكثر من الإرهاب، نحن هلعون أكثر من اللازم، والمغاربة تحديدا يروعهم أي شيء.

لكن زملاء آخرين عبّروا عن اعتقادهم بأن الدول الكبرى ستنجح لا محالة في وضع سياسات أمنية ناجعة وباهظة الثمن، وعند ذلك لن يبقى للإرهاب من ساحة ممكنة سوى مدننا السهلة، التي ستصبح رهينة في أيديهم. سيصبح لكل واحد منا سياسته الأمنية، وسنلبس جميعا ملابس باكستانية ونبلغ «للأمراء» عن الذين يشربون الخمر في العمارة، وعن المتبرجات من النساء، وإذا رغب أحدهم في ضم طفلة من أسرتنا إلى حريمة ساعدناه على ذلك كي تقر عينه ولايحزن.

قال عباس: كل ما يفعله الإرهاب هو من أجل النساء القضية الوحيدة للإرهاب هي النساء.

قال المختار: كل شيء نفعله أو لا نفعله هو من أجل النساء ثم تعقد الحوار بعد ذلك لأنه وصل إلى الإسلام السياسي وعلاقته بالجماعات

الإرهابية ومن يستفيد ممن؟ فاشتد الخلاف، وعلت أصواتنا، حتى انتبهنا للصمت الذي أطبق على المطعم ونحن نغادره فقال أحدنا إن الساعة متأخرة جدا!.

علا صوت عباس وهو يفتح سيارته:

- من يصحبني إلى المكان الأخير؟

- قلت رأفة بنفسك!

فرد بجملة تروى عن سعدي يوسف

- الأمة تهلك.. : دعنا نهلك معها!.

في طريق عودتي هتفت إلى ليلى وتحدثت معها طويلا عن الأشخاص الذين يدخلون حياتنا مصادفة فيتحولون إلى كائنات مفترسة تلتهم وجودنا قطعة قطعة دون أن نستطيع لذلك ردا.

قالت ليلى: لكن هذا الموقف له اسم دقيق وواضح: الجُبن!

-ليس تماما، لأن الضحية يمكن أن يكون شجاعا في مواقف أخرى.

- هو الجُبن إذاً، لأن الجبن أيضا هو أن تكون انتقائيا في شجاعتك. ليس هناك شيء أكثر جبنا من أن لا تقاوم شخصا يلتهمك!.

-وإذا فأنا جبان. هذا كل ما في الأمر!.

لا أعرف لماذا تقول ذلك. نحن نتحدث في المطلق وعندما أنهينا المكالمة شعرت بالضيق... لماذا أطرح الأسئلة التي تقودني إلى تشخيص مهين من هذا النوع؟ لماذا أصر على الدوران في مكان واحد حتى أثير حولي كل غبار الدنيا؟!.

في البيت قرأت رسالة صوتية من أحمد مجد تقول: «حتى لو دخلت فجرا لا بد أن تكلمني» وأخرى من بهية تقول إنها تدعوني للغذاء معها في اليوم الذي أختاره ثم رسالة من ليلى تقول «إنها آسفة لكونها كانت فظة

معي».

فلم أجب سوى ليلى «نعم! فظة جدا!».

فما إن وضعت الهاتف فوق مكتبي حتى رنت إشارة رسالتها «لماذا لا تأتي؟».

أخذت حماما سريعا وذهبت.

في لحظة ما وأنا اتهيأ لمغادرتها قالت.

-أريد أن أراك نائما.

- إذا بقيت دقيقة أخرى سأنام بالفعل.

فقفزت نحو المنبه ووضعته على الساعة الخامسة.

-ولماذا المنبه؟ ستوقظينني عندما تشبعين من التفرج على نومي.

- أنا أيضا سأنام. أراك، لا أعني أن أنظر إليك نائما أريد فقط أن أحس أنك هنا وأنك ستنام وتستيقظ كما في حياة عادية!.

ثم رن المنبه فلبست ورجعت نائما أحلم بليلى تقف مرتعشة أمام باب المصعد وترجوني أن أفتح عيني وأن أبعث رسالة عندما أصل.

«وصلت!».

قال أحمد مجد وهو ينتشلني من ضباب السابعة صباحا.

- إن الغالية جمعت أغراضها وغادرت البيت القديم.

- ولماذا فعلت ذلك؟ ماذا حدث؟

- لأنها ترفض رفضا باتا وقاطعا هذا الزواج. تقول لو فعلها يوسف معك لانزعجت بنفس القدر من الموضوع.

- وماذا قلت لها.

- قلت إنك موافق ولا ترى أي حرج.

-ولكن هذا غير صحيح.

-والله العظيم صحيح، أنت موافق، وتشكر الله في قرارة نفسك على هذا الترتيب الرباني الذي سينفعك وينفعنا!.

فرجوته أن يتركني أنام لأعرف كيف أشتغل بعد الظهر وعندما ذهب لم أستطع النوم. فكتبت مقالا بعنوان «الإرهاب كما لا أفهمه» وفيه بعض مما دار بيننا في عشاء البارحة، وأشياء أخرى خطرت لي وأنا أفكر في تلك التداعيات التي تلت انفجارات 16 ماي 2003 بالدار البيضاء، ومنها تفسير ذلك العنف القاتل بالظلم الاجتماعي والفقر والسكن غير اللائق، والعدوان الصهيوني، والحرب على العراق ومنها كذلك، اعتبار ما جرى تعبيرا عن اختناق في الحلول السياسية. كيف يمكن أن نفهم الإقدام على تفجير النفس في مطعم أو في مسجد أو أمام مدرسة أو في موكب جنائري.. كيف يمكن أن يكون ذبح الأطفال من الوريد إلى الوريد في قرية جزائرية تعبيرا؟! كيف استطعنا أن نلد هذه الكائنات؟.

ثم كتبت بدون حماس تقريبا «رسالة أخرى إلى حبيبتي» وفيها أيضا بعض مما دار بيني وبين ليلى في مكالمة أمس عن العنف الذي تمارسه عليك علاقة ما حين تحولك إلى طعام تلتهمه قبل أن أنتهي إلى الحديث عن المفاجآت التي تتضمنها كل علاقة جديدة. المفاجآت التي تحس بها عندما ترى بعين خارجية كيف أصبحت في ضوء هذا الكائن المدهش، كيف تنتج مشاعرك. وكيف تولد كلمات أخرى في فمك، وكيف تمشي في المدينة بخطى كأنها ليست لك، كيف يستيقظ جسدك قريبا منك، وبعيدا عنك، كيف تصر على أنه لك، ويصر أنه عليك. ثم تحدثت عن شيء حدث في حلم ولم يكن في حلم. عرفتك من مشيتك. ومن تسريحة شعرك. كنت على بعد خطوتين. قلت أتجاوزها لأعرف، لكنك أسرعت الخطى فأسرعت ولم ألحق بك. وظل وجهك يلوح ويختفي كلما اقتربت

أو ابتعدت. وعندما تعبت قلت أنادي باسمها. فلم أعد أتذكره، ولم أعد أتذكر ملامح وجهك ولكنني تابعت المشي خلفك حتى وأنا لم أعد أعرف لماذا أفعل ذلك، ولماذا أتجاوزك وأتأمل وجهك وخيل إلي أنك سألتني ماذا؟ قلت منهكا: لا أعرف. كان فمي يابسا، فدخلت أول مقهى صادفته وشربت ماءً كثيرًا دون أن أرتوي. وعندما جلست وراء زجاج المقهى، أحسست بشيء ثقيل ينهار في داخلي لكنه لم يكن في داخلي. كانت واجهة المقهى وزجاجه وأبوابه ونوافذه تتحول إلى ركام سميك يفصلني عن العالم وعندما انسد تماما تذكرتك من جديد. ووقفت أريد أن ألحق بك.. اسمعي.. لا أستطيع الخروج من المقهى. اسمه الماجيس.. الماجيستيك... قبالة الحديقة.. قريبا من الفندق الكبير. أخبري المطافئ والوقاية المدنية.. تعالي أنقذيني...».

ذهبت إلى مراكش من أجل الغالية. استقبلتني بدموع غزيرة في بيت أختها. قلت لها الحقيقة. إنني لا أحب هذا الزواج. أجد فيه شيئا قبيحا لا أستطيع تحديده، ولكنني أحس بنوع من الحدس أنه سيريح أحمد وسينقذ بهية. كانت ترفع راحتيها وتنزلهما، وتبسطهما وتقبضهما، كأنها تريد أن تقول بيديها شيئا لايقوى لسانها على النطق به. ثم قالت إنها فقط تخاف على أخوتنا. قلت اطمئني، هذه لا خوف عليها ولا خوف منها فابتسمت، وراحت تشرح لي كيف تغير كل شيء حولنا وأننا لم نعد نفهم شيئا. وكدت أقول لها إن الشيء الوحيد الذي تغير هو قدرتنا على التحمل، ثم أحجمت مخافة أن أزيد من حيرتها، ورجعنا معا إلى الدار القديمة، حيث كان أحمد مجد قد فتح على مصراعيه ورش سهرة اليوم وقد وضع في مدخل البهو قفة كبيرة مليئة بالورد البلدي ذي الشذى الممتلئ، فما إن اجتازت الغالية عتبة البيت حتى راح يملأ راحتيه منه وينشره على خطاها

حثيما مشت، وخلفها وأمامها وعلى رأسها وهي تحاول أن تثنيه خجولة دامعة، وهو مستمر في ذلك متمتما بأدعية غامضة. فاعترفت بيني وبين نفسي أنه من الصعب أن نلغي شخصا من حياتنا وهو مايزال قادرا على استعمال الورد لإطفاء غضب الغالية. كان أحمد ينتقل بسهولة بالغة بين وضعية «الموبيليت» التي تتسلل بين نقط المطر، وبين وضعية الرجل الصالح المرتاح في جلسته الأبدية، كان ينتقل بسلاسة كاملة من الصلاة في ضريح سيدي بلعباس، إلى السهرة في ملهى الباشا دون أن يشكل ذلك أي انفصام في شخصيته المتماسكة دوما والهشة على الدوام.

في اليوم الموالي كنا نرجع من عشاء طويل وكنا على بعد خطوات من البيت، عندما انهال على رؤوسنا وأجسادنا سيل من العصي والسلاسل. وعندما وقعت أرضا وأنا أنصت إلى جرح ينزف في مقدمة رأسي، سمعت أحمد مجد ينادي بأعلى صوته على الغالية وعلى كل جيرانه بأسمائهم الكاملة. ثم سمعته يقع هو الآخر على الأرض وسط ضجيج الأقدام الهاربة في الوقت الذي كانت فيه الأبواب والنوافذ تصفق والناس يهبون من نومهم ويهرولون بنا إلى قسم المستعجلات.

خرجت منها بعشر غرزات في مقدمة الرأس وخرج منها أحمد بكسر في يده اليسرى. وجنينا معا أعطابا أخرى متفاوته الزرقة والتبريح.

كنت في فراش المصحة عندما أدخلوه يسبقه أنينه فوضعوه على السرير المقابل ويده المكسورة فوق صدره مر بوطة إلى عنقه. فما إن أراحوه على وسادته الكبيرة حتى استدار نحوي وقال منتحبا:

-هلكونا.

قلت: إذا لم تبع لهم قتلوك!

فصاح غاضبا: والله لو وضعوا الكتيبة في مؤخرتي!.

انفجرت ضاحكا في الوقت الذي دخلت فيه الغالية، فاعتقدت لأول وهلة وبسبب ضحكنا أنها أخطأت الغرفة، قبل أن تتأكد، وتسرع الخطى وهي تصرخ: أويلي.. هذا وقت الضحك؟!.

فتركت أحمد يمارس عليها ضروبا من «المشخرة» كما يقول ليخرجها من الفزع الذي أطبق عليها فلما لانت وهدأت وبدأت تستجيب له بضحكات متقطعة، أشرت عليها بالاقتراب مني، فلما دنت وضعت فمي على أذنها وقلت: دخلت عليه العروسة مباركة مسعودة!

فسقطت مقاومتها كاملة. واستسلمت لضحك اهتز له كل جسدها.

زارتنا في المصحة فرقة من الشرطة القضائية أكد لها أحمد مجد أنه لا يعرف أي جهة يمكن أن يكون لها معه حساب يؤدي إلى هذا الاعتداء. وعندما استدار العميد نحوي، خفضت بصري وأكدت له أن أحمد مجد يعرف جهة محددة وشخصا محددا سبق له أن هدده إذا لم يوافق على بيعه الدار القديمة. وأنني شخصيا لا علاقة لي بالموضوع ومع ذلك أصرح على مسؤوليتي بأن الجهة الوحيدة التي لها مصلحة في هذا الاعتداء هي الجهة التي أتحدث عنها.

كان أحمد يصرخ ويسب ويلعن لكنني أعود إلى تأكيد ماقلته كلما هدأت زوبعته.

بعد ذلك سألني العميد عما إذا كانت لي علاقة قانونية بالدار القديمة، وعما إذا كنت تلقيت شخصيا تهديدا من أي كان فأجبت بالنفي. فابتسم لي ابتسامة عريضة وانصرف مع فرقته.

وفي اليوم الموالي، ظهرت في كل الصحف الوطنية تقريبا مستقلة، ومتحزبة، و«متحزمة» كما يقول أحمد مجد، صورنا جنبا إلى جنب في غرفة المصحة، وقد بانت على وجوهنا آثار السهرة أكثر من آثار الاعتداء،

وتعددت الروايات عن محنتنا، منها ما اهتم بالمساومة العقارية المعلومة، ومنها ما أضفى على الاعتداء بعدًا سياسيا غامضا، ومنها ما أشار إشارات خبيثة إلى احتمال ارتباط هذا الاعتداء بمغامرات أخلاقية، وبما أننا غادرنا المصحة يوم انتشار خبرنا في الصحافة، فإن الدار القديمة بدأت تعج بالزائرين ابتداء من منتصف النهار. وكما يحدث دائما مع أحمد مجد ما إن حل المساء حتى كان المغرب كله يأخذ صورا مع يده المكسورة، صحفيون وسياسيون وفنانون وكتاب، وجوهٍ من اليسار واليمين والوسط والأطراف، السلطة والمخزن والمجتمع المدني. وكان أحمد في كامل أبهته يتسلطن ويستقبل ويشيع ويوزع إشاراته اللاذعة، حتى إذا لاحظ رئيس المجلس العلمي أن الكسر جاء ولله الحمد في اليد اليسرى ولا يمنع الكتابة، صاح أحمد مجد بجماع صوته:

-مرة أخرى ينكسر اليسار يا سيدي الفقيه!.

كتبت مقالتين عن الحادث ركزتُ فيهما معا على مافيا العقار بمراكش. فصدر عقبهما تكذيب حول الجهة التي تكون قد نظمت الاعتداء في شكل صورة طبق الأصل لمحضر الشرطة القضائية الذي يثبت أقوال الضحية أحمد مجد وإنكاره الكامل لوجود أي تصفية حساب محتملة في الموضوع وختم التكذيب بهذه العبارة؛ «لا أحد يبيع ولا أحد يشتري في هذه الحكاية!» وكل القصة التي نسجت في هذا الموضوع هي من خيال كاتب يبحث عن بطولة وهمية!.

ولايمكن أن يتصور أحد إلى أي حد أطرب هذا التكذيب أحمد مجد، الذي لم يعر أي اهتمام للمهانة التي لحقت بي وظل يردد أن أهم ما في الموضوع هو هذا النفي الرسمي العلني والواضح: «لا أحد يبيع ولا أحد يشتري» ونبينا عليه السلام!.

تزوج أحمد وبهية في يوم وسط الأسبوع دون إقامة حفل بالمناسبة. ولكنهما في الأسبوع الموالي بعثا ببطاقة إلى كل الأصدقاء والمعارف لإخبارهم بعقد هذا القران وقبل أن يسافرا إلى إيطاليا، دعتني بهية لغداء في مطعم على ضفة أبي رقراق وأثناء تناول القهوة سألتني عما إذا كنت أعاني ما أزال تلك الأعراض الغريبة التي اعترتني. فحاولت أن أشرح لها وأن أفهم أنا في نفس الوقت كيف أنني رغم فقداني لحاسة الشم والقدرة على الاستجابة لأي إحساس مادي أو رمزي، فإن لدي شعورا بأنني أفهم الحياة بشكل أفضل وأنني لا أشعر بأي إعاقة جراء ما أعانيه.

ثم تذكرنا مشاريعنا المجنونة، نصب المزبلة، وقوس المصب، فضحكنا لذلك حتى لاحظت ليلى بتحسر أننا أصبحنا نضحك من مشاريعنا مهما كانت أهميتها في حياتنا، وبعدما كنا نبكي من فشل صغير في نيكاراغوا!... فقلت إن الأكثر مدعاة للتحسر، هو بكاؤنا القديم!.

- عندما كانت تستعد للقيام شكرتها في نفسي لأنها لم تتحدث عن الآخر. فسلمت لي طردا ملفوفا بعناية، وقالت وهي تجهش:

-هذه بعض ملابس ياسين!

أوصلتها إلى سيارتها وقلبي منقبض. وما إن اختفت خلف سياج المطعم حتى اعتراني هلع كبير، ولولا ظهور ياسين في تلك اللحظة بالضبط لألقيت باللفافة في النهر لأنها كانت تشبه قطعة نازفة.

-يبدو أنك تحتل صدارة الصحف هذه الأيام.

- ليس بشكل لامع على كل حال!

-أنت متواضع لكن مقالك عن مافيا العقار حرك شيئا ضخما في البلد.

-أتمنى أن لا يحرك العصي والسلاسل من جديد.

- من الممكن أن يحرك ما هو أخطر.

- هل تحذرني؟.

-لست مؤهلا لذلك. اسمع، لدي معلومات لا علاقة لها بهذا الموضوع، لابد أن أطلعك عليها.

- من أي نوع؟.

- هناك شيء رهيب يحضر في مراكش!.

- مثل ماذا؟.

- تفجير مروع!.

- متى؟.

- لا أحد يعرف.

- عندما تقول معلومات، هل تقصد معلومات فعلا عن الجهة والأشخاص والسيناريو. أم هي مجرد نبوءة؟

-قليل من هذا وقليل من ذاك. إذا أردت أن تدخل في عين الاعتبار كوني، أخاطبك من العالم الآخر فهي نبوءة، لكن إذا تخلصت من هذه الحدود الوهمية فإنها معلومات لاينقصها إلا التوقيت!.

- وإذا يجب أن ننظم أنفسنا لمواجهة ذلك!.

- تماما، لكن أحذرك لايمكن إطلاقا أن تكلم أحدا في الموضوع.

عندما نزلت من الطاكسي، كانت يدي تؤلمني فأدركت أنني كنت أضغط بها بقوة لفة الملابس، وإنني أتفصد عرقا. جلست إلى مكتبي وفتحت أحد أدراجه ثم وضعت اللفة هناك قبل أن أحكم إغلاقه كأنني لن أفتحه أبدا. ولأسباب واضحة فإن هذا الطقس الصغير والسريع جدا أسلمني لطقس آخر حيث تعالت حولي أصوات مقرئين، وأهيل تراب كثير وأحجار على الدرج. ووضع شخص ما شاهدة بدون إسم ولا تاريخ فوق

مكتبي جنبا إلى جنب مع صورة ياسين في ربيعه العشرين.

تكلمت مع ليلى فسألتني بدون مقدمات.

-هل تتصور أننا يمكن أن نعيش ذات يوم تحت سقف واحد؟.

قلت: أتصور ولكن لا أصدق.

ثم حدثتني كثيرا عن ابنتها التي تعيش حالة انبهار مفزعة بزوجة أبيها. تصور كلما قضت معهما نهاية أسبوع إلا رجعت مهووسة بكل شيء يخصها. ضحكها، لباسها، طريقة أكلها وأظل أستمع إلى ذلك بهدوء أتحمل كل عذاب الدنيا لأحافظ عليه ثم أغلق على نفسي الحمام وأبكي.

قلت:

- إنها حالة عابرة. لا تهتمي للأمر.

-عابرة؟ تقول عابرة؟ أتمنى! مع ذلك أنا خائفة جدا. خائفة أن تذهب مني. سيكون ذلك نهاية حياتي.

- لن تذهب منك، لا أحد يذهب من أمه!

- لكنها سألتني قبل يومين عما إذا كان ضروريا أن يقبل الأبناء بالآباء الذين ينجبونهم!.

- إنه سؤال أزلي يسأله كل الأطفال.

- لكنها سألتني أيضا عما إذا كان يمكن لطفلة أن تستبدل أمها.

قلت محتدا:

-أرجوك، لا تهتمي كثيرا، إنك تلاحقينها يوميا بالأدوية والواجبات، والغسل والملابس والرياضة... وتعيش مع الآخر وزوجته عطلة نهاية أسبوع بدون اضطهاد.. لكن كل هذا سينتهي..

- وأنت؟ لماذا لا تصدق؟.

- هكذا!.

- اعترف لأنك لن تتحملني!.

-كيف يمكن أن تعيشي مع شخص لن يعرف أبدا أنك غيرت عطرك؟!

- لن أغيره.

أردت أن أنهي المكالمة فسألتني.

- هل أنت بخير؟!.

- تقريبا!.

- انتبه لنفسك، لا أريد أن يصيبك شيء، توقف عن القيام بدور المحارب العادل أرجوك. هل تعدني بذلك؟.

- نعم أعدك. لأنني لا أصلح لهذا الدور، ولا لغيره!.

- 4 -

أمضيت بقية نهار متوترة. وفي المساء نزلت إلى الجريدة فوجدت في بريدي الالكتروني رسالة من مدير الجريدة يطلب فيها مني أن أعود لموضوع مراكش، وأخرى من فاطمة تقول إن علاقة جدية أصبحت تربطها برجل من كوسوفو. وتطلب مني أن أزورها في مدريد لأقول لها إحساسي تجاه الرجل. وقد رفع هذا الخبر معنوياتي فرجعت إلى البيت وأنا أرتب في ذهني رحلة مراكش وسفرا محتملا إلى مدريد.

وكنت في مراكش أواصل التحقيق في قضايا الأراضي العمومية والاستثمارات الأجنبية في مجال السياحة، ولوبيات الإنعاش العقاري، ومراكز النفود، عندما اتصل بي أحمد مجد من روما ذات مساء وهو في غاية الانفعال ليرجوني أن أصرف النظر عن هذا الموضوع. قلت ولكن كيف عرفت أنني منشغل به؟ أجابني مضطربا إن مراكش كلها تعرف، وتعرف أنك ستترك جلدك في هذه الحكاية.

حاولت أن أقنع أحمد مجد بأن ما أفعله لاعلاقة له بالمثل العليا المدافعة عن الحق والعدل. إنها فقط لعبة! هل تفهم؟ البلد مليء باللعب، وأنا أيضا أريد أن ألعب.

تقول إنها لعبة خطيرة... كل اللعب خطيرة. الحياة أيضا لعبة خطيرة!.

لم يكن يبدو مقتنعا عندما أنهينا المكالمة.. فقلت في نفسي سأكلمه في ما بعد، لابد أن أعرف منه على الأقل ما هي الجهات التي تسعى إلى إقبار

هذا الملف، فانتبهت عندئذ إلى الطريقة التي تتحدث بها المدينة عن فضائح العقار، ففي السهرات والمقاهي والشوارع حديث لا يفتر عن الصفقات والرشاوي والثروات التي تبلغ عنان السماء في لمح البصر، ولكن ليس في هذا الحديث أي أثر للغضب أو للشعور بالعار، ولا يحدث أبدا أن يتسرب حديث الشارع إلى دواليب القضاء أو حتى إلى فضول الدوائر الأمنية. إن الأمر شبيه إلى حد بعيد بفرجة منظمة يتعجب الناس منها ويضحكون وهم يتابعون مشاهدها دون أن يساورهم شك في أن تتحول الفرجة في يوم ما إلى شيء تراجيدي. وكذلك الحال بالنسبة للفضول السائد اليوم حول حكايات لا تتوقف تهم الجنس والجريمة وما يسمى بأسرار العهد القديم. مما يدفع إلى التساؤل عما إذا كانت هواية التلصص من ثقب الباب قد أصبحت اليوم وسيلة من وسائل تدبير الشأن العام، وبما أن هذا التأمل قد أعجبني، فقد سارعت إلى وضعه «قبعة» للتحقيق الذي أنجزته، موحيا بذلك أنني لا أتوهم إطلاقا أن تساهم المعلومات التي أقدمها في تفجير شيء ما إنها فقط ستضيف لبنة أخرى إلى صرح التلصص الوطني. هكذا ذكرت في التحقيق كل الأراضي التي أدخلت للمدار الحضري، من يملكها ومتى اشتراها وكيف دخلت للمدار ذكرت كل التجزئات التي رخص ببنائها، ومن استفاد من ذلك، ذكرت المخالفات الخطيرة التي سجلت في عدد الطوابق المرخص بها، وفي مخططات التعمير والتصاميم المرتبطة بها، ذكرت ما جرى لنخيل مراكش، حيث استئصلت منه حدائق عمومية، وسمم النخيل، وجففت ينابيع واحاته ليصبح تحت جنح الظلام تجزئات أو بقعا أرضية استفاد منها الأكابر، ذكرت شبكات السمسرة في المدينة القديمة ورخص الهدم والبناء، وتجار الخرائب المنظمة، ذكرت الأغنياء الجدد الذين فطنوا إلى مواقع التسيير والترخيص فهيمنوا عليها

بشكل مباشر أو غير مباشر، ذكرت الشخصيات النافذة التي توفر التغطية، والسلطات التي تيسر السبل، والوجهاء الجدد الذين يجمعون في يد واحدة خيوط الأرض وعلب الليل وتجارة الجسد، ذكرت تقنيات المضاربة، وشبكات الأجانب التي تبيع مراكش خارج الحدود، ذكرت شبكات التهريب والتبييض ودعارة الأطفال والحشيش والمعجون والغبرة وكل ما له صلة بالإزدهار المعجز لمدينة لا تنام ولا تخاف ولا تغطي وجهها.

عندما صدر التحقيق، اتصلت بي ليلى في ساعة مبكرة لتقول إنني جننت، وإنها تكرهني لأنني أريد أن ألعب دور المحارب العادل.

ثم اتصلت فاطمة لتقول إن الصحف الاسبانية مهتمة بالموضوع، وتريد أن تنقل التحقيق. واتصل أحمد مجد ليقول لي إن شخصا مهما يريد أن يتصل وأنه معجب بما كتبته.

-قلت وإذاً لن أترك جلدي في الحكاية؟.

قال أحمد: لو كان علي لأخذت جلدك وعظمك، ولكن من يفهم أحسن من المخزن؟.

وبعد هذه المكالمات المثيرة، انقطع الحس، مضت أيام متتالية لم يظهر فيها أثر للتحقيق في أي صحيفة أخرى ولم يتهيج الشارع ولا تحركت مسطرة قضائية. نزل صمت مطبق وشامل على الموضوع جملة وتفصيلا، لم يعلق أحد بشيء. باستثناء ما كتبته جريدة شبه رسمية «لا يحصل مثل هذا إلا في بلادنا، ما إن ننجح في شيء ما كما نجحنا في مراكش، حتى يسارع أحد الغربان إلى وضع الذبابة في اللبن!».

وبينما تلقيت تشجيعات خجولة وشبه سرية من بعض الهوامش المراكشية. والمناضلين القدامى، والكتاب المنسيين، ومنشدي الملحون، لم يعد متأتيا لي أن أسهر في بعض الملاهي والمطاعم والعلب التي أشار

إليها التحقيق حيث مورست علي في كل هذه الأماكن ملاحقات خبيثة ومضايقات صبيانية، وصلت إلى حد التبول في الكأس التي أطلبها، ولولا أن نبهتني سيدة في إحدى العلب كانت تجمعني بها علاقة قديمة، لكنت قد احتسيت كميات هائلة من السوائل المحسوبة على الصرف الصحي.

أما بالنسبة للشخصية المهمة فقد اتصلت بي فعلا، فزرتها في بيتها الرائع، وشربت عندها قهوة تاريخية، واستمعت إلى تحليلاتها وحصلت منها على خبر طري احتفظت به لنفسي كما يليق بالناس المتحضرين، وبعد أيام على هذه المقابلة التي أدهشتني، قامت السلطة وسط إجراءات أمنية هزت الشارع المراكشي ووسط ضجة إعلامية كبيرة بهدم طابقين من عمارة قيل إن صاحبها قد أضافهما بدون ترخيص. وفي نفس السياق انفجرت فضائح صغيرة متفرقة تتعلق برخص استثنائية سمحت لبعض المطاعم داخل المدينة القديمة برفع سطوحها لتضاهي الكتبية. لكن الأمركله لم يعمر سوى بضع ساعات في صحافة تعرف كيف تقلب الصفحة بسرعة فائقة، حتى وهي تعطي انطباعا قويا بأنها لا تترك شاذة ولا فاذة خارج سطوتها.

وبينما استمر العقار في احتلال بؤرة المال والأعمال في المدينة، استقر في الأذهان أن النجاح السياحي الباهر لمراكش هو مبتدأ الثروة ومنتهاها، أما أحمد مجد فقد طور نظرية مفادها أن الشمال يبيض أموال المخدرات في العقار، والجنوب يبيض أموال الرشوة في العقار، والعقار يبيض نفسه في الزمن!.

وقلت مرة لأحمد مجد: أنت رجل قانون، ماذا يمكن أن نفعل ونحن نعرف هذا.

فأجابني بكل جدية نكتب في الصحافة!.

-ويبقى كل هؤلاء بدون عقاب؟

- العقاب الوحيد الممكن اليوم هو التشهير.

دعه يعمل.. دعه يمر!.

رجعت من مراكش بفكرة ملحة، أن أبتعد بشكل نهائي من مواضيع المرحلة، وأن أعود إلى قضايا المهد، هناك حيث يعيش والدي آخرفصول حياته حبيس عماه، وسجين المسار السياحي لمدينة وليلي، هناك حيث يشيد كل يوم قصرا باذخا بأحجار الرومان، والريف، وبومندرة، وحيث ينتقم في نسيج ما يرويه للأجانب من قرون من الحقيقة المطلقة، قلت سأعود إلى سرقة باخوس بعد ربع قرن من وقوعها، فقط لاستعادة هذه الحكاية في بلاد لا تعمر فيها الحكايات طويلا، نقرأ على ضوئها سرقات اليوم وندرك أننا بعيدون جدا في هذه الحكاية عن هذه الصفاقة التي تجعل من لصوص اليوم طواويس تستعرض سياراتها وجلابيبها وعمرتها السنوية. أتصور طفلا كبر عند قدمي باخوس، وملأ عينيه من بشرته الحجرية، وبينما ظل التمثال مراهقا كما بزغ عن الأزميل منذ قرون صار الطفل رجلا يبحث عن لقمة صعبة، في خلاء موحش تصفر فيه الريح قلت أنا أيضا أريد أن أنزل من هذه القاعدة التي تسمرت فيها منذ سنوات، وأن أمشي وأبتعد كما يليق بتمثال مِسروق.

عند عودتي من مراكش، داهمتني النوبة القديمة بحدة أكبر، الشيء الذي اضطرني إلى دخول المستشفى والخضوع لحمى الفحوصات المخيفة. وأثناء ذلك اتصلت بي فاطمة عدة مرات من مدريد وقالت إنها لا تسمح لي بأن أموت، وعندما صرت قادرا على السخرية، قلت لها إنني لم أمت نزولا عند رغبتها! عند ذلك أخبرتني بالتطورات الأخيرة لعلاقتها مع الرجل، الكوسوفي. قالت.

- لقد انتقلت للعيش معه في شقته دون التفريط في شقتي. لا أريد أن أجازف بدون حساب!.

قلت إنه قرار حكيم، ليس هناك ما هو أفضل لمعنوياتنا من التوفر على مكان لا يشاركنا فيه أحد!.

عندما غادرت المستشفى، كنت أعرف أنني سليم تماما من الناحية البدنية فكل مؤشرات الآلة جيدة، وكنت أعرف أيضا أنني لست على ما يرام. كان جسدي يحملني بصعوبة، وكنت أحمله بصعوبة أيضا زارتني ليلى عدة مرات في المستشفى. وعند خروجي بذلت جهدا كبيرا لأشعر بحضورها كنا في سيارة أجرة ننظر إلى بعضنا فأعرف من ملامحها أنها قلقة، متوجسة، وأعرف أن ذلك من أجلي، ولكنني لا أستطيع أن أوصل هذا الخيط إلى دواخلي، لا أشعر أنها تفعل ما تفعله من أجلي، ولا أحس بالخوف من أن تنزل فجأة من هذه السيارة وتذهب إلى الأبد. ولوفعلت، فإنني لست متأكدا من أن ذلك سيؤلمني. إنني أعيش كأنني أمشي فقط، ولا أفعل أي شيء عدا ذلك، متوقعا أن أصل إلى مكان ما ومتوقعا أن لا أصل. وغير مهتم أصلا بما سيحدث سوى أنني لكي أمشي لا بدّ من أن أظل واقفا وأن أمشي.

عند وصولنا الى الشقة صعقت من المفآجة، فقد وجدتها مكانا آخر حولته ليلى من شقة كابية شبه ميتة إلى فضاء مشبع بالنور والفراغ والحركة، فما إن مشيت داخلها حتى انبثق من دواخلي شيء كثيف ومرهف لم أذقه منذ سنوات. وفي هذه اللحظة بالذات أدركت أن الذين يستطيعون ترويض الأمكنة ومنحها حياة جديدة، يتوفرون على سحر رباني يجعلهم يملكون مفاتيح النفس البشرية ويستنبتون داخلها حدائق شاسعة. مددت يدي نحو ليلى ومشيت مبهورا إلى أن وصلت إلى جسدها، وقد تهيأ لي أنني فهمت

شيئا عميقا له صلة بما فعلته بالمكان، كأنها وضعت من خلال الألوان وقطع الآثاث والامتلاء والخواء خريطة تؤدي إلى مكامن جسدها، وقد أثارني في هذا الأمر أن لا يكون لهذه الخريطة علاقة ما بمسار مفكر فيه أو متخيل، بل فقط بنوع من التفاعل التلقائي بين الأجساد والأمكنة.

أمضيت أسبوعا حافلا بالأحداث المثيرة. فقد أعلنت ليلى أنها تحبني حتى وهي لا تستطيع أن تعيش معي تحت سقف واحد، حتى ونحن مضطران لترتيب حياتنا وفق نمط استثنائي لا مكان فيه للأشياء اليومية. وعندما قالت لي ذلك لم أستطع أن أرد عليها بشيء، فجرحها ذلك، ولم تتصل بي ولا أجابت على مكالماتي لثلاثة أيام متتالية.

وأعلن بلاغ لوزارة العدل أنه تم اعتقال عدد من الرؤوس الكبيرة في قضية تتعلق برشاوي العقار في مدينة مراكش، كنت في المطبخ عندما سمعت شذرات من البلاغ، لم تسعفني في التعرف على الأسماء والمشاريع المقصودة. وعندما رجعت للتفاصيل في الأنترنت اتضح لي أن الأشخاص والمشاريع لم يأتِ ذكر لها في التحقيق الذي أنجزته ومع ذلك فقد ظل سائدا في الأذهان أن لي دورا صغيرا في هذه البطولة.

واتصل بي أحمد مجد من المطار عند عودته من روما، وأعلن لي بدون مقدمات ولا تأثر زائد أن بهية حامل قلت نصف مازح: زيادة في الإسلام!.

فرد متلعثما: معجزة أخرى من معجزات جيلنا!.

وفي غمرة هذه الأحداث فكرت كثيرا في علاقتي مع ليلى فانتهيت إلى إدراك ما يحصل لي معها. عندما تحضرني كومضة بعيدة من ماضٍ مبهم، يمتلئ صدري بدفق من المشاعر الملتبسة يجعلني على وشك البوح بحبها، لكن ما إن تقتحم الحاضر بعنفوان جسدها ولغتها، وبرقة وجودها، حتى

تنطفئ الأشياء كلها، ولا يظل بين يدي سوى ضرورتها القصوى لاستمرار الحياة على هذا الكوكب. ولكن هذا ليس كافيا للاعتراف بالحب، نحن لا نعلن حبنا للماء ولزرقة السماء ولأشعة الشمس! وعندما فهمت الأمر على هذا الوجه قلت لابد أن أقول لها ذلك لتعرف الصعوبة التي أجد نفسي فيها ولتعرف أن المشكلة في نهاية المطاف هي كيف نضع عقارب هذه العلاقة في الزمن المناسب.

استمعت لي حتى النهاية وخطر لي في ثانية واحدة أنها فهمت بشكل أدق مما عبرت عنه هذه الوضعية وأنها سعدت بذلك. وعندما قالت إن عقاربي وحدها تحتاج لهذا الضبط ضحكنا وانغمرنا في ما كانت تسميه بالمصالحة مع العالم والتي لم تكن في الواقع سوى ساعة صاخبة نفتعل فيها شجارا عنيفا قبل أن نلتهم بعضنا بشهية.

أدى اعتقال الرؤوس الكبيرة إلى إطلاق عنان الصحافة التي التقمت الموضوع وراحت تمضغه بشراهة، حتى إنها أصدرت بعض الأحكام ولما تبدأ أطوار المحاكمة. وعندما انطلقت هذه الأخيرة وسط معارك مسطرية بلا حدود كان الناس قد «فشّوا» غيظهم بالكلام ولم تمضِ سوى أيام قليلة حتى نزل رمادٌ كثيف على القضية، وتندر المراكشيون لفترة بالطوابق التي هدمت، والعمارات التي توقف بناؤها، والتجزئات التي نامت ريثما يثمر النسيان مشاريع جديدة عليها ثم توقف الحديث تماما عندما شاهد الناس سائقا يفتح باب سيارة فخمة وهو في عجلة من أمره، لينزل منها أحد أباطرة تلك المحاكمة.

وجدت من المناسب أن أهتف لبهية ضمن أول المهنئين ففعلت ذلك بتعاطف صادق، تعجبت له في قرارة نفسي وابتهجت له، وتحدثنا عن الطفل المرتقب بنوع من التواطؤ جعلني أجازف بالقول إنني في نهاية

الأمر أوافق على مجيئه! فاندفعت مؤكدة أنها في كل الأحوال كانت ستعتبره طفلنا! فأبعدت هذه الجملة كل أمل في استمرار تلك المودة الساذجة، وأنهيت المكالمة وقد أسلمت قياد نفسي لتأمل قاس في تعقد النفس البشرية وهشاشتها.

كانت هذه الفترة مشبعة بالترقب والتوجس، متوترة، مشحونة غامضة. قضتها بهية مستلقية على ظهرها كما أمر الطبيب حفاظا على الحمل، وأجهضت فيه فاطمة مرتين بمدريد قبل أن تعدل بشكل نهائي عن فكرة الولادة، وقضيناها على المستوى العام جميعا تحت وطأة التفجيرات الفاشلة بالدار البيضاء، وانفجار مهندس في مكناس، وتحت وطأة تهديدات ملتبسة لايستطيع أحد تقدير واقعيتها أو وهميتها.

وأثناء ذلك لا يعرف أحد لماذا هيمنت على الساحة الإعلامية قضايا أخلاقية لاعلاقة لها بالسياسة ولا بتدبير المال العمومي ولا بالرشوة والامتيازات العشوائية والأغنياء الجدد، بل فقط بالفضائح الجنسية. فمن قضية السياحة الجنسية. التي ظهرت فيها بعض الصور الخليعة في مواقع إباحية تدعو إلى ولائم لواطية وسحاقية، وإلى دعارة قاصرين في مراكش وأكادير على وجه الخصوص، إلى زواج المثليين بسيدي علي بنحمدوش، إلى الحفل التنكري للشواذ بالقصر الكبير، إلى سهرات المخنثين بتطوان، إلى جرائم زنا المحارم واغتصاب القاصرات، ولم يكن يمر أسبوع واحد دون أن تتصدر هذه الأخبار الساخنة الصفحات الأولى من بعض الجرائد الوطنية، الشيء الذي دفع أحمد مجد إلى الاجتهاد في تفسير الظاهرة على طريقته، بالإدعاء أن المغاربة قد توتروا لدرجة الكشف عن عوراتهم. كما تفعل نساء الأحياء الشعبية عقب المشاجرات الحادة!.

وكنا نتابع هذه الظواهر باهتمام بالغ لأن صديقنا ابراهيم الخياطي

انتصب للدفاع في أكثر من قضية من هذه القضايا، ليس كما يقول الخبثاء لكونه مثلي مثل زبنائه، بل لأنه مناضل حقوقي دافع في هذه القضايا كما في غيرها عن ضرورة احترام القانون، وتوفير محاكمات عادلة دون انتقائية عرقية أو دينية أو جنسية. كما دافع عن عدم إخضاع القضاء لضغط الشارع. وقد هيمنت هذه القضايا على سهراتنا في مراكش والدار البيضاء والرباط، فلم نعد نختلف أو نتفق إلا حول ما هو مفتعل أو حقيقي في هذه الحكايات التي تتناسل وتسيل مداد افتتاحيات وتعليقات في الداخل والخارج، كأن المغاربة لم يعد لهم من هم سوى معرفة من يقفز على من!.

ولمرات عديدة، حاولنا أن نفسر طغيان هذه الظاهرة على حياتنا فلم نتبين ذلك بشكل مقنع، منا من أرجعها للاضطراب الذي أصاب القيم بتنامي ظاهرة الثراء السهل، وتقديس النجاح المادي، ومنا من أرجعها لمناخ الحرية الذي يشجع على الخوض في كل المواضيع ومنها من فسرها بهيمنة أخلاق السياحة، حيث لم تعد بعض الممارسات المرتبطة بها متسللة خفية، بل علنية بادية كإعلانات تجارية للإقبال «على أجمل بلد في العالم».

وبموازاة ذلك كان هناك شعور سائد بقلق غير مفهوم، رغم الطفرة الاقتصادية في بعض المجالات، ورغم الرواج المرتبط أساسا بالسياحة كأن الناس وهم يرون انبثاق بلدهم من سنوات من الكساد والمحدودية قد أصبحوا أكثر تخوفا من العودة إلى نقطة الصفر وأكثر ضيقا وتوجسا من البؤس المتستر خلف النجاحات السطحية.

فكنا نحاول أن نفهم لماذا نحن هادئون ومضطربون في آن واحد، وكان ابراهيم الخياطي أكثرنا قلقا وذهب إلى حد الجزم بأن الجو العام مشبع بشيء لا يدعو للإطمئنان. كأننا مقبلون على خلل ما، أو على عاصفة

تختبئ وراء الصحو والخفة السائدة.

وأخيرا وضعت بهية طفلتها! كانت الغالية هي أول من أخبرني بذلك. فلم أشعر بشيء خاص. أغلقت نفسي على هذا الخبر، وحاولت أن أتخيل ما الذي سيحدث لنا بحضور الكائن الجديد. وعندما حاولت التغلب على حالة الخواء التي اعترتني جراء هذه التحولات لم أجد شيئا أفضل من الحديث مع الفرسيوي. الذي كان لطيفا معي في بداية المكالمة، قبل أن ينفجر غاضبا وبدون سبب ظاهر، ويقول لي «إن اللعنة قد حلت بنا، بانقطاع سلالة الفرسيوي على يدينا»!.

- كنت أعرف أن إدخال دم جديد على السلالة سيفسدها، وها هي قد وقعت في بئر ودفناها إلى الأبد! قلت:

-لأجل ذلك إذاً قتلت أمي، قتلتها لتستعيد نقاء السلالة، أنت لست سوى قاتل غبي وعنصري!.

وصلني صوته مبحوحا من الانفعال.

- أنت تكلم والدك.. هل نسيت أنك تكلم والدك! ثم جن جنونه، فقطعت المكالمة تاركا صوته الأجش معلقا في صرخته!.

عندما وضعت الهاتف جانبا، كان جسدي كله يرتعش، وكنت أفكر في شيء واحد. أن أتصل بليلى وأطلب منها أن تأتي فورا، لأن شيئا ما سيحدث لي، وكلما فكرت في ذلك، كلما أمعن جسدي في الوهن والخذلان. كان هاتفي المحمول قريبا من يدي ولكنني لم أقو على الإمساك به، وخالجني ندم مباغت لكوني لم أقل لليلى أني أنا أيضا أحبها، ولايهم أن نعيش تحت سقف واحد ما دمنا لانحتاج إلى سقوف ولا لأعمدة لنعيش في مأمن من الانهيار.. وفي هذه اللحظة بالذات وصلتني تلك الرائحة. خلت في البداية أنني تذكرتها فقط، لكنها ألحت بطريقة بعيدة متوارية، خفيفة، ثم

تصاعدت كأن أحدا يحملها نحوي، ثم أحسست بشيء ينقشع أمام كياني كله، ففتحت مسامي لتعب عبيرا صاعدا من كل شيء عرفته في حياتي أو لم أعرفه، ثم اتخذت الرائحة وهي تغزو جسدي هوية أتذكرها، أعرفها، قبل أن توقف ياسين على قديمه وتدفعه نحوي، كما كانت تفعل عندما تسبق دخوله من الباب، أو مشيته في الممر أوقفزه في سلم العمارة. ها هي الرائحة نفسها كما في مجيئه وذهابه، حضوره وغيابه، تعلو فجأة من كل ما يحيط بي.

فتحت درج مكتبي، واستخرجت منه اللفة التي سلمتها لي بهية قبل شهور. فتحتها مرتعشا فوصلني شذى جسده المفقود. ولأنني وجدته، أو ثكلته. ولأنني لحكمة غامضة استرجعت في هذه اللحظة بالذات حاسة الشم فقد وضعت الملابس على وجهي. واستنشقتها عميقا ثم أجهشت بالبكاء.

فسيفساء نحن إلى الأبد

- 1 -

أنا محمد الفرسيوي دليلكم في هذه الزيارة التي تقومون بها لأعظم مدينة رومانية في حوض البحر الأبيض المتوسط، أتكلم الألمانية، لأنني عشت عشرين سنة في ألمانيا، واشتغلت بها وترددت على جامعاتها الليلية لأكثر من عشر سنوات، وبنيت فيها وهدمت، كما يليق برجل يحب ألمانيا، وجمعت منها أموالا كثيرة خسرتها في هذه الأرض التي لا ينبت فيها بشكل جيّد سوى الزيتون والخروب والأحاجي.

أنا أيضا مثل معظمكم أود أن تظل ألمانيا إلى الأبد أمة مجيدة تواجه كل شيء بقوة لا مثيل لها، وتتقن كل ما تقوم به وتملك رغم صلابتها الظاهرة رقة لا يعرفها إلا الشعراء والفلاسفة، إذا كنتم تلاحظون لكنة ما في حديثي فهي لا ترجع إلى الريف، الريفية كما تعلمون أو لا تعلمون فرع من الجرمانية، نعم نعم يا سيدي، أنت محق في ذلك، هي لهجة أمازيغية محلية، ولكنها صدقني على علاقة مباشرة بلغة غوته.

أنا أيضا مثل معظمكم تزوجت ألمانية شديدة التعلق بواجباتها كزوجة، وربما اعتبرت أن المضي في هذا التعلق إلى مداه يقتضي أن تـنتحر في هذه الأرض السعيدة، لذلك فقد فعلت ذلك عن طيب خاطر غير بعيد عن هذا الموقع في المرتفع الذي ترونه وراءكم بعد الإسفلت مباشرة. وستدركون لاحقا أن المكان مناسب تماما، كل الأمكنة طبعا مناسبة للانتحار، ماذا أقول؟! أقصد أن هذه الأرض هي بشكل من الأشكال أرض أجدادها وقد

كان مناسبا أن تبلغهم رسالتها قريبا من التراب الذي اخترقوه بأجسادهم.

ربما يكون بينكم من يتساءل كيف لدليل أعمى أن يقودنا في المسارب الملتوية لهـذه المدينة العظيمة! يجب أن أثير انتباهكم إلى أنها مدينة من الماضي، خرائب مدينة من عهد سحيق، أي أنها في نهاية الأمر ليست سوى عتمة، لا يعرف المشي فيها بشكل جيد سوى العميان، أشير بالمناسبة إلى أن الفترة الممتدة بين 285 بعد الميلاد، ومجيء إدريس الأول عرفت بفترة القرون المظلمة، لأننا لا نعرف عنها شيئا، والآن ونحن نعرف، فإنني سعيد بتدشين قرون مظلمة أخرى بيني وبين إدريس الأول!

سننزل المنحدر الممتد أمامنا، أرجو أن تأخذوا قبعاتكم، وكـل ما تستطيعون حمله من مياه معدنية، لا يوجد أي ظل في الموقع ولا أية سحابة في هذا الفصل، وليس في نيتي أن أدفن ألمانياً آخر في هذه الأرض.

لكن قبل النزول صوب المنحدر، التفتوا إلى الباحة الصغيرة التي نوجد الآن في نهايتها، هل ترون القاعدة الصخرية هناك عن يمينكم، تلك التي ما تزال تحتفـظ بجزء من قدم صغيرة سمراء؟! هنا كان يقف باخوس حاملا على كتفه عناقيد عنب بلدي من كروم باب الرميلة، قبل أن يسرق في ظروف غامضة، هناك من يعتقد أن رجلا مهما في السلطة أخذه لإرضاء عشيقته الإيطالية، وهناك من يعتقد أن مافيا الآثار هربته إلى بلد أجنبي، وهناك من يعتقد أنني سرقته شخصيا وبعثته لثري ألماني، وألسنة السوء تقول إنه سكر في حانة الفرسيوي فضيّع الطريق إلى قاعدته، أو هرب ضجرا من هذه الأرض المملة، أما أنا فأعترف لكم، وأرجو أن لا تخبروا الشرطة بذلك، أنني دفنته في باحة مسجد قروي في تلافيف هذا الجبل الممتد خلفكم، مساهمة مني في إرباك علماء الآثار في منتصف الألفية الثالثة، عندما يعثرون عليه سكرانا في بقايا عمارة إسلامية قديمة.

سنتقدم باحتراز شديد في هذا المنحدر الذي سنعبر منه نهر فرطاسة الذي تقع ينابيعه في عين فرطاسة التي خضت من أجلها حربا قضائية ولا حرب البسوس، ها هو اليوم مجرد خيط تراجيدي، بينما كان الرومان يستخرجون منه أسماكاً في حجم حمير هذه الأرض الطيبة!

والآن وقد عبرنا الجسر، أرجو أن تلتقطوا أنفاسكم، وأن تتوجهوا بعد ذلك يمينا في الممشى المحاذي للنهر، لا تنسوا أن تشربوا حتى ولو لم تحسوا بالظمأ، ليس هناك ما هو أخطر على جسد الإنسان من الجفاف، أقول ذلك عن تجربة، فقد نسيت أن أشرب لسنوات حتى جف كياني كله

انظروا من هذا الممشى صوب الجبل، إنها سلسلة هضاب في غاية الجمال تتكئ على الجبل المطل على المدينة، في فترة من السنة تشرق الشمس في الفجوة بين الهضاب الزرقاء والجبل الأبيض فيكون ذلك تجليا خارقا لإعجاز الطبيعة، وفي كل الأحوال فإن كون هذه المرتفعات تستقبل كل يوم إضاءة الشروق فإنها تحتفظ دائما بنور يستعصي على الإطفاء. أنظروا إلى غابات القمة، كيف انكمشت هناك كشَعر كثيف لم يتخلله مشط منذ قرون، ثم انظروا إلى الحدائق المنحدرة حتى الوادي من هناك تأكل المدينة أطيب فواكه المعمور. لا أعرف إذا ما كان الرومان قد أكلوا منها قبلنا. ها أنتم ترون، حتى لو فعلوا فإن ذلك لم يمنع حضارتهم من الزوال.

كل شيء إلى زوال. في هذه الساعة من اليوم قبيل منتصف النهار يميل لون الهضاب إلى الأزرق البحري. ستلاحظون عند عودتنا أنها قد أصبحت خضراء فاتحة. ذلك دأبها، تَتَلَوَّن بالزمن، حتى إذا احتواها الليل برزت مهما كان الطقس، ولو في أشد الليالي حلكة، مضيئة بتربتها.

لا توجد تربة مضيئة؟! بلى توجد يا سيدي، وتوجد أشجار مضيئة،

وغابات مضيئة! لا تجادلني أرجوك! إذا لم تلاحظ أن الغابة السوداء في بادن بادن مضيئة، فمعنى ذلك أنك لا ترى، مثلي تماما عندما لا أرى!

سنبدأ زيارتنا الفعلية الآن من المدافن، كل شيء يبدأ من المدافن وينتهي إليها، لا تفهم مدينة ما بشكل جيّد إلا من مقابرها.

من هنا سترون بشكل جلي الخريطة الإجمالية للحفريات. الحرب كما تعلمون، حربكم، هي التي كانت مفتاح هذا الاكتشاف الأثري، الحرب ذلك المفتاح الآخر لفهم المدن والجغرافيا، نحن مدينون بهذه المدينة للحرب العالمية الأولى التي دمرت كثيرا من مدنكم. تأملوا هذا التلاقح الخلاق بين دمارات متقاطعة.

هنا قام الأسرى الألمان ومنهم هانس رودر جد زوجتي ديوتيما باستخراج وليلي من أحشاء الأرض بمساعدة الأهالي المنبثين في هذا الجبل، والمنحدرين بكل تأكيد من سلالات رومانية مندثرة، المهم هو السلالة، كل ما يلحق الحضارات من دمار واندثار لا يهم، ما دامت هناك سلالة تستطيع في يوم ما أن تنفض الأحجار والأتربة عما تبقى منها. كل من خلق الله على وجه هذه البسيطة يبحث في خرائب ما عن شيء فقده أو سيفقده. ليوطي هو الذي استقدم الأسرى الألمان لهذه المهمة.

ياله من ثعلب ماكر، ولاعب ذكي بالذاكرة، مع ذلك ثـقوا بي، الأطفال، وبالذات أطفال «فرطاسة» هم الذين استخرجوا الملامح الأولى لهذه المدينة وهم يلعبون في الموقع، هذا إذا لم يكن أحدهم قد استخرج حجرا مكتوبا أو قطعة فسيفساء وهو يبحث عن شيء يستجمر به، من يدري؟

في يوم ما من عشرينات القرن الماضي فتحت زرهون عينيها لتجد الجنرال ليوطي يتأمل بياض المدينة من علياء كهف الحمام، وتحته في السهل المنبسط على ضفاف وادي خمان، تنغمر فرقته العسكرية

وعلماؤه وأسرى مكسورون في فتح هذا المجال الممتد أمامكم والذي يهم بالأساس الحي الشمالي الشرقي والمجالات المحيطة بقوس النصر والفوروم، من هنا استخرجت المنحوتات البرونزية الشهيرة والمنحوتات المرمرية البيضاء وعشرات التحف، منها من قضى نحبه ومنها من ينتظر. إذا ذهبتم إلى العاصمة اسألوا عن متحف مهجور في زنقة البريهي وهناك يمكنكم أن تتفرجوا على المجموعة البرونزية وفيها جوبا الثاني، وكاتون، والفتى الجميل، والصياد العجوز والفارس، وباخوس والحصان، والكلب المهاجم، والثور، ورأس إيروس نائما وغيرها كثير، ممن نجا بجلده من هذه الأرض. سترون هناك تمثالا من المرمر للملك بطولومي لم يعثر عليه هنا، ولكنكم ستعرفون من نظرته البيضاء أنه لم يكن ليعمِّر طويلاً.

كل هذه الأعمال نقلت إلى العاصمة لتكون قريبة من إقامة ليوطي. ولو بقيت هنا لكانت اليوم مجرد أوصاف دقيقة في محضر للشرطة القضائية كما حصل للأخ باخوس.

هل تستمر الحفريات؟!

بالطبع تستمر الحفريات خصوصا على يد علماء الدمياطي لاستخراج الكنوز المنسية. بدم اليد الزهرية والجدول المعلوم، لننس الموضوع لن تفهموا ذلك أبدا، ركزوا معي على الموقع!

أقول أشياء ملتبسة وغامضة؟ طبعا يا سيدتي، عندما أفتح الصنبور لا يمكن أن أتحكم في الصبيب، البحر كله لا يكفي لأسرد ما مرّ على هذه الرأس.

هذا هو الحمام الإدريسي الذي اكتشف مؤخرا، إنه هناك، يمكنكم أن تلقوا عليه نظرة من الداخل، إنه كل ما استخرجه البحث الأثري حتى الآن، من المرحلة الإسلامية. لم يكن يهم إدريس الأول سوى تشييد حمام

لأداء الوضوء الأكبر قبل الشروع في تشييد الدولة، وكذلك كان. هذه دولة تتوضأ منذ فجر الخليقة دون أن تدرك الطهارة المنشودة.

ظهرت وليلي ثلاثة قرون قبل المسيح في صيغتها البونيقية، و25 سنة قبل ميلاد المسيح، عيّن الإمبراطور أغسطس على رأس هذه المملكة أخي وحبيبي جوبا الثاني الأمازيغي الحر الذي تربى في روما وتزوج على سنة ذلك الزمن ببنت كليوباترا قبل أن يجلس على العرش. تماما كما فعلت أنا عندما تربيت في ألمانيا وتزوجت بنت قيصر جرماني قبل أن أنتهي في هذا الجحر!

هنا كان يمكن لدولة الأمازيغ أن تكبر وتملأ الدنيا، فلا يكون هناك إدريس أول ولا ثاني ولا ثالث، ولكن الأمازيغ لا حظ لهم، ما أن اعتلى بطلومي العرش بعد وفاة والده جوبا الثاني حتى أشعل الرومان الفتنة في وليلي، وأمر كاليغولا باغتيال بطلومي، ثم بعد ذلك بالقضاء التام على تمرد أيدمون بواسطة الجيش الروماني معززا بالتحالفات والخيانات المحلية. لم يقض علينا نحن الأمازيغ شيء سوى الخيانات، من بطلومي حتى بن عبد الكريم الخطابي!

انظروا الآن صوب مثلث الآثار الخالدة! مقر الحاكم، قصر العدالة، وقوس النّصر. تأملوا هذه الأبهة الصارمة التي رأت تعاقب ملوك وحكام وتجار وحكماء، لم يبق هناك أثر من هذه الحياة المتدفقة، ومع ذلك فإن تلك الأبهة ما تزال تطل بإضاءتها من شقوق الخرائب كتعبير عما لم يمت أبدا، عن تلك القوة الكامنة التي تخلفها الحياة حتى بعد ما تنسحب، هنا ستلتقون بنوع من النظر الثاقب المتوجه نحونا منذ ذلك الزمن السحيق، ونحو هذه اللحظة التي نمشي فيها على الأثر أو على أثر الأثر. نتبع أثريين وأسرى وعمالا مغمورين كلهم يرفعون التراب الحي للآن ليمنحونا لحظة

أبدية في تراب أمس، نتبعهم وهم يرفعون أعمدة القصر أو انحناءات القوس كأنهم يرفعونها من أحشاء الحرب التي خلفوها وراءهم وفيهم جد زوجتي الذي يدعي حسب ما قرأته ديوتيما في مفكرته الصغيرة أنه دفن قبعته وكتابا شعريا كتبه أثناء الحرب وأثناء التنقيب في مملكة جوبا الثاني، دفنه في مكان سهل حسب اعتقاده، في غرفة واطئة غير بعيد عن القوس، حيث يوجد نحت باهرلذكر ممدد في حالة إنعاض حجرية خالدة.

ستدركون بعد قليل أن القضيب كرمز للخصب منحوت في أكثر من مكان الشيء الذي يستدعي تعبئة أسرى حرب أخرى للعثور على مخطوط غير مضمون القيمة.

عفواً، سأنصح السيدات مع ذلك متى ما وجدن نحتا من هذا النوع أن يضعن عليه أيديهن ويتمنين شيئا على علاقة بالموضوع. زوجتي كانت تفعل ذلك وتعزو إليه كثيرا من مغامراتنا اللذيذة، أنا نفسي لا أصدق أنني فعلت الحب في تلك الغُرفة الواطئة مع أني لست بوهيميا لهذا الحد، وأغلب الظن أن ديوتيما هي التي تمنت ذلك وهي تضع يدها على النحت.

كيف يمكن أن نجد كتاب جدها، ونحن نبحث عنه في أمكنة تقلبك رأسا على عقب، ثم من يدري، ربما لم يدفن جدها أبدا شيئا في هذه البقاع، ربما قال ذلك فقط لإسباغ بعد سحري على محنته تجنبا لمهانة الأسر.

كانت ديوتيما تحفظ عن ظهر قلب هذا المسار بأسمائه ودوره وحماماته ومعاصره وفسيفسائه قبل أن تطأ هذه الأرض، حفظته في مفكرة رودر التي احتفظت بها العائلة بعد وفاته. عندما التقينا لأول مرة حدّثتها عن وليلي، فما إن نطقت بالاسم حتى رأت في ذلك إشارة قدرية باهرة جعلتها توافق على الزواج مني فورا، فوقعت بذلك في شرك السلالة الفرسيوية التي لم يفكها منه سوى تلك الطلقة الحاسمة.

نحن الآن في الحي الشمالي الشرقي حيث توجد منازل الأكابر، سنتوجه نحو الشرق، بمحاذاة منزل موكب فينوس. لندخل المنزل لو سمحتم، ولنتأمل هذه الفسيفساء الرائعة، فهي تُظهر في جزء منها هيلاس صديق هرقل، بجانب نبع للمياه جاء ليشرب منه، لكن إلهتي الماء انقضتا عليه إعجابا بجماله، فأمسكت إحداهما بذقنه وأمسكت الأخرى بمعصمه، وقد أضاف الصانع لوحتين تمثل الأولى صيادا قتل طائرا بسهمه فقُبض عليه وتم تقييده وجلده، وتمثل الثانية هذا الشخص نفسه وقد قدم للمحاكمة التي قضت بتقديمه للوحوش المفترسة.

في جزء آخر من هذه الفسيفساء تظهر ديان إلهة القنص والأخت التوأم لأبولون محاطة بحوريتين داخل حمام وسط الغابة. ديان عارية كما ترون، قدمها اليمنى داخل الحوض ويدها اليسرى تتلقى الماء المنبعث من فم حصان ذي جناحين، في أسفل اللوحة يظهر القناص أكتيون الذي تجرأ على النظر إلى ديان عارية، فعاقبته بإلقاء قليل من الماء على وجهه حوّله إلى أيل فتكت به الكلاب التي كان يصطاد بها.

إنها مشاهد رائعة حقاً، لا شك أن مبدعيها كانوا يبيعون لتجار وليلي أساطير غالية، من المستبعد أن يكون أغنياء وليلي وهم غارقون في معاصرهم وزيوتهم يعشقون هذه الأساطير، ولكن إنجازها في بيوتهم بتلك الألوان الزاهية كان ولا شك يطربهم، ويجعلهم يحسون بالتفوق الضروري لاستمرار نفوذهم في المدينة.

أرجو الآن أن تتجمعوا حولي، نحن الآن في وسط الديكومانوس ماكسيموس، الشارع الرئيسي الذي يصل طوله إلى أربعمائة متر وعرضه إلى إثني عشر مترا، في منتهاه شمالا يوجد باب طنجة، وفوقه مباشرة فندق الزيتون آخر إنجازات هذا العبد الضعيف، ثم قرية فرطاسة، فكهف الحمام.

إذا عبرت هذا الجبل ستجد نفسك في قرية تدعى لَقْوَار، فإذا تجاوزتها وجدت دكارة ثم ظهر الخلف، فما عليك عندئذ إلا أن تعبر الوادي فستجد نفسك وجها لوجه مع دوار بومندرة، حيث وُلِد وشَبَّ وترعرع جوبا الثالث المعروف بالفرسيوي والذي يقودكم الآن في هذه العتمة المطبقة.

إذا نحن نزلنا الشارع الرئيسي جنوبا فسنصل كما يحصل لنا الآن إلى قوس النصر الذي يحمل اسم الإمبراطور كاراكلاً. لم ينتصر أحد على أحد، إنه فقط اعتراف بجميله من قبل الحاصلين على المواطنة الرومانية في عهده، والذين استفادوا من إعفاء ضريبي تام وشامل.

هـذا لأقول لكم إن الرغبـة في الانتصار على الضريبة متجذرة في تاريخنا منـذ الرومـان إلى اليوم.

في عهد العائلة السفيرية أضيف إلى المدينة حي البنايات العمومية والمعبد أو الكابتول المخصص للثالوث الإلهي زحل، جينون، ومينيرف، والمحكمة والساحة العمومية.

انتبهوا حيث تمشون، أنا آسف أن أنبهكم لأشياء لا يبدو أنني مؤهل لمساعدتكم عليها.. ولكن التنبيه يوجد في النص، أي في الخدمة التي أقدمها لكم.

ها نحن نصل إلى منزل أورفي، وفيه الفسيفساء التي تحمل هذا الاسم. في الجناح العمومي لهذا المنزل ما بين قاعة الاستقبال وحوض الفناء نجد لوحة مستطيلة بالأبيض والأسود تمثل نبتون يركب عربة يجرها فرس بحري محاطا بمجموعة من الحيوانات البحرية.

وداخل إطار محاط بأشكال هندسية تظهر تسعة دلافين ذات أذيال هلالية برأسين وهي تلعب بين الأمواج للإشارة فإن الدلافين تعتبر علامات واقية من العين الشريرة. والدلفين كذلك هو المكلف بنقل أرواح الموتى

إلى أبعد نقطة في البحر.

إن فسيفساء منزل أورفي هي أكبر فسيفساء دائرية في وليلي وهي تجمع كما ترون مشاهد لحيوانات وطيور مختلفة في غاية الإتقان، تتوسطها لوحة ثمانية، تمثل أورفي يعزف على الليرة، ولولا ألبسته الفخمة لحسبته راعيا من «موساوة». اكتُشفت هذه الفسيفساء الضخمة بين سنتي 1926 و1928 وهي الوحيدة الموجودة في الحي الجنوبي. في الأسطورة اشتهر أورفي بنزوله إلى الجحيم من أجل إنقاذ حبيبته أوريسيد، وبعزفه الرائع استطاع أورفي أن يسحر الآلهة، فأجازت له استرجاع حبيبته إلى الحياة، شريطة أن لا ينظر إليها حتى يغادرِ حدود الجحيم.. لكن أورفي نسي الشرط، أو لم يستطع أن يصبر عليه، أو تعمد أن ينظر إليها مفضلا اكتشاف هول ما سيحدث على الحل الآمن، أو لأنه أراد أن يرى حبيبته في هذه الصورة العائدة إلى الحياة، بذلك الجمال الذي لن يكون لها أبدا، مفضلا هذه التراجيديا على تحولها التدريجي إلى عجوز قبيحة في حياة أخرى.

المهم، ما أن التفت أورفي، حتى ذابت حبيبته، وابتلعتها الظلال، ولم تسمح له الآلهة بنزول آخر إلى الجحيم مِمّا دفعه إلى الانسحاب بعيدا وقضاء كل وقته باكيا أو عازفا يسحر الطيور والزواحف والوحوش الكاسرة بأنغامه الشجية، فتقبع عند قدميه مستسلمة طيّعة، وتضع شراستها باردة بين يديه.

هذا في الأسطورة، أما في الفسيفساء، فلا شيء سوى الألوان والأشكال الزاهية، والأثرياء الذين يستقبلون ضيوفهم في أماكن مبهرة تجعلهم يشعرون بالدونية إلى آخر حياتهم.

ماذا يا سيدتي؟ وجدت ذكرا عظيما؟ بالصحة والعافية، لن يكون الأول والأخير في رحلتنا، في كل بيت يوجد نحت لرمز الخصب في وضع

انتصاب أبدي. هانس رودر قال إنه دفن شِعرا قرب نحت من هذا النوع..
أنظر إلى حماقة هؤلاء، عندما بدأنا الحفر سألت ديوتيما:

ـ ولكن في أي بيت بالضبط؟

قالت:

ـ جنب ذكر في حجر أبيض

بالله عليكم، هل يصلح هذا عنواناً لمكان نقصده؟

منذ ذلك الحين ونحن نحفركلما صادفنا ذكراً في حجر أبيض. حفرنا سرا وعلانية، ليلا ونهاراً، حتى جنينا من ذلك سمعة سيئة كلصوص آثار، وصيادي كنوز.

وذات فجر صرخت وقد نفد صبري:

- تحت أي ذكر دفنت شعرك يا بن الكلب؟!

فاعتقلني الدرك، وخضعت لتحقيق طويل حول ديوتيما، والكتاب الشِعري. وعندما سرق باخوس، أنا نفسي لم أجد شخصا أفضل مني لهذه الجريمة!

في الدفتر الصغير الذي تركه جد زوجتي هناك قصيدة بعنوان ديوتيما حملتها زوجتي معها دائما كتميمة:

تكابدين بصمت ولا يفهمونك
أيتها الحياة المقدسة وتذبلين بهدوء
لأنك تبحثين بين البرابرة
عن أهلك في نور الشمس
تلك الارواح الحنون العظيمة الراحلة
غير أن الزمن يجري
ونشيدي الفاني سيرى مجددا

ذلك اليوم مثيلك

الذي سيسميك ياديوتيما

على مقربة من الآلهة

وبين الأبطال[1]

شكرا، شكرا.. أنا سعيد أن القصيدة أعجبتكم. لنقل إنها نشيد غامض حول التراجيديا والحب، هذه مواضيع لا يشبع منها البشر. إذا كان يزعجكم كثيرا أن نتحدث في الميثولوجيا فمن الممكن أن نزور بيوت الأكابر صامتين، ولو أن الأكابر يعشقون الثرثرة..

كما تلاحظون في نهاية الأمر فإن التراجيديا في هذه الفسيفساء ليست سوى زخرف. إن رسوم المنازل والحمامات هي مشاهد جذلانة رغم عنف أساطيرها أحيانا، والمواضيع المأتمية منعدمة تماما في هذه الأعمال الفنية. وحتى الروح التراجيدية تبدو نوعا من الحكمة البعيدة، أو التسلية الشعرية، هيلاس ممزق من طرف الحوريات، أكتيون ممزق من طرف كلابه، كاتون منتحرا بأوتيك.

دماء ودموع لا تنتهي الأمر شبيه بمسلسل مصري أو مكسيكي.. لا علاقة لهذا الأمر بالحياة كما كانت في وليلي بين أناس يقضون أوقاتا طويلة في حمامات ساخنة يدلكـون أجسادهم بزيت الزيتون، ويستمتعون بنساء وغلمان يطيّرون العقل!

على ذكر انتحار كاتون، هنا في هذا الجبل أو حوله يعتبر الانتحار فجيعة أبدية.. أعرف أنا شخصيّا أكثر من شخص انتحر ملقيا بنفسه من كهف الحمام كأنه يلبي نداء صاعدا من أحشاء هذه الأنقاض. حتى زوجتي ديوتيما انتحرت بطلقة بندقية في المرتفع المطل على هذا الموقع، وكان

(١) مقطع من قصيدة لهولدرلين

آخر ما تحدثت عنه غروب الشمس، تصوروا، سيدة لا تنتبه في حياتها لا بالقلب ولا باللسان لغروب الشمس سوى مرة واحدة دقائق قبل انتحارها، بينما الغروب ظاهرة أبدية! لكل هذه الأسباب تنازلت عن بصري، لم يعد هناك شيء يستحق أن أمد نحوه شِباك مخي!

الآن أرى كل شيء بيدي! لا تضحكي يا سيدتي، أرجوك، أستطيع أن أرى لون عينيك بيدي، دعيني أجرب معك.. ها.ها.ها...! وجميلة أيضاً، انه لشيء مذهل بياض هذه البشرة مع سواد هاتين العينين، أصبت أليس كذلك؟! بَصرت بدقة كما تقول العبارة! كنت سأقطع هذه الأصابع لو لم ترَ هذا الوجه الجميل! لا.. لا أرجوك يا سيدتي، أنا الذي أشكر الله على السعادة التي غمرني بها ملمس وجهك.

سندخل الآن منزل البهلوان، إنها فسيفساء مرحة عبارة عن باروديا لسباق الخيول، يظهر فيها بهلوان يركب حماراً بالمقلوب ويحمل إناء بيده اليمنى ووشاحا وهما معا يرمزان للنصر. مشهد يشبه محاكاة الحرب بالفنطازيا في زماننا هذا. كأن المحاربين عندما يذعنون أو ينهزمون لا يجدون أمامهم، سوى هذه المحاكاة الساخرة لترويض شهوة الحرب.

هذا هو منزل الفتى الجميل، تتكون الفسيفساء التي تزين قاعة الأكل من أربع رصائع دائرية بالزوايا، تتخللها أربع رصائع أخرى ذات شكل بيضاوي، أما وسط اللوحة فقد زين بحورية البحر فوق حصان بحريّ يسبح دلفين بين رجليه في الاتجاه المعاكس.

مرة أخرى يتكلف الدلفين بطرد العين الشريرة، ليس معنى ذلك أن الدلفين والأسماك كانت تعيش في هذا النهر، بل يعني فقط أن صناع الفسيفساء كانوا يتوفرون على دفاتر برسوم جاهزة يضعونها رهن إشارة الأثرياء، ومن هؤلاء من كان يضيف إليها شيئا من عنده.. كلنا نضيف شيئا

من عندنا.

الفتى الجميل هو واحد من أجمل برونزات الموقع، اكتشف سنة 1932 ويمثل مراهقا عاريا في غاية الجمال، وجد تحت متر ونصف من الأتربة والأحجار ولو كان لا بد أن أسرق شيئا من وليلي لسرقت الفتى الجميل ووضعته جنبي في هذا المسار المظلم بين الفسيفساء والأشباح، عوض أن أتركه يقتل أيامه الأبدية في متحف منسي تصله أصوات سكارى البار المجاور وصوت نشرة الأخبار في مبنى الإذاعة، أرجو وأنتم تعبرون هذا المكان أن تنتبهوا إلى الفسيفساء التي تمثل سرطانا بحريا في غاية الروعة. إنني أعتبرها أجمل مشهد في هذه الخرائب.

ثم ها هو إله الخمر باخوس مرة أخرى وهذه المرة فوق عربة تجرها نمور لم يبق باديا منها سوى بعض المخالب. هنا يلبس باخوس ثيابا فاخرة ويكلل رأسه بأوراق الكروم وربما يحمل في يده بعض أغصانها. كلما عثرت على باخوس مرسوما أو منحوتا أو حتى حيا يرزق، إلا واستنفرت حاسة الحرب كل طاقاتها في دواخلي، كم خضت من حروب بسببه! عندما شيّدت الفندق، وبعدما حصلت على رخصة بيع الخمور، وعندما أصبحت الكانتينا مرتعا للجربى والسكارى، وعندما سُرق. في الفسيفساء التي أمامكم سنعثر أيضا على باخوس في فصل من فصول لقائه بأريان ابنة الملك مينوس، هنا تشير الأسطورة إلى أن أريان ساعدت تيتيزي على التغلب على حيوان خرافي بعد إخراجه من المتاهة، لكنه تخلى عنها وتركها وحيدة بشاطئ جزيرة ناكسوس، إلا أن الإله باخوس عثر على مكان تواجدها..

لاحظوا هذا التعدد الخارق لباخوس لحد فاض عن حاجة الأسطورة، وتأخر به الزمان ليصبح حجرا يحمله الفرسيوي على ظهره، ويقطع به

المسالك الوعرة بحثا عن باحة جامع مهجور يدفنه فيها.

لو استمر فنانو الفسيفساء في إبداع حكاياتهم الملونة لجعلوا باخوس يلتقي بالمولى إدريس ويضع بين يديه عنقودا من عنب «خمرٌ بُوعْمَرْ» الذي اشتهرت به المنطقة.

لنتحرك قليلا نحو الأسفل، هذا هو منزل أعمال هرقل، وفيه فسيفساء عن أعمال هرقل المدهشة، وكما تلاحظون فإن اللوحة تمثل ثلاثة مواضيع مختلفة، في الوسط نجد كانيمد وقد اختطفه نسر زحل إلى جبل أولمب، داخل المربعات نجد الفصول على شاكلة نصف علوي لامرأة، وأخيرا نجد أعمال هرقل. هرقل أثناء طفولته يخنق الثعابين، هرقل يروض ثور جزيرة كريت، هرقل يصطاد بواسطة أسهم طيور بحيرة ستمفال، يحارب أفعوانا خرافيا بتسعة رؤوس، ينتصر على ملكة الأمازون، يحارب أسد ينمي، ويقتطف تفاح الذهب من حديقة الاسبيريد. وقد أكون نسيت أعمالا أخرى في الفسيفساء.

تمعنوا في تفاصيلها. ستجدون أعمالا خارقة، وأخرى في غاية البساطة. أنا شخصيا أعتبر كل إنسان هرقلا صغيرا أو كبيرا، لو قدر لي صيت مماثل لكنت أنا بنفسي في فسيفساء ضخمة، الفرسيوي يخنق ثعابين الغابة الحرشة في زرهون، الفرسيوي يخرج ديوتيما من الجحيم، الفرسيوي يستظهر قصيدة لهولد رلين في الجامعة الليلية بفرانكورت، الفرسيوي يفوز بصفقة كراء قاعة الزيت بالزاوية، الفرسيوي يبني فندق الزيتون، الفرسيوي يدفن باخوس، الفرسيوي يتحول إلى أنطي ويلوي ذراع هرقل قبل أن ينفيه إلى بومندرة. . .

أنت تضحك لأنك تضع حدودا حاسمة بين الحقيقة والأسطورة. خطأ، خطأ فادح: هل أنت متأكد يا سيدي أنك لم تأتِ أبدا فعلا معجزا

في حياتك؟! لا تتذكر. هكذا. لا تتذكر. كأنما من الممكن أن تنسى فعلا معجزا أتيته! تريد أن نمزح؟! لنمزح يا سيدي، أؤكد لك، أحيانا الخرا ء وحده يكون معجزة!

في أيام العز أنجزت ما يشبه فسيفساء حديثة بروح رومانية، يمكنكم لو زرتم أطلال فندق الزيتون أن تروا ذلك في البهو. حيث ما يزال مشهد عبد الكريم الخطابي على حصانه الأبيض أثناء الاستسلام لفرنسا ومعه أورفي يعزف على الليرة ووحوش الاستعمار مستسلمة عند قدميه، ثم مشهد الفرسيوي الجد يحمل على كتفيه ظبيا من جبل سَلْفات، وهذا العبد الضعيف يحارب أفعى من «عين جعفر».

أنا الدولة الوحيدة التي رآها مؤسسها ورشا وأطلالا في نفس العهد.

في كل فسيفساء الفندق توجد قطع رومانية أخذتها من أكياس المخازن، التي تكدست فيها أثناء عقود دون أن يعرف أحد ما هي المشاهد التي طمسها جمعُها العشوائي على يد أسلافكم الميامين، لكن لا أحد يستطيع أن يتعرف عليها اليوم، وبالمقابل فإنكم ستتعرفون بسهولة على الأسلوب الجديد الذي يتميز بتكعيبية ساخرة كلفتني مبالغ زهيدة، على يد رسام من أصيلة اسمه عبد الوهاب الأندلسي، كان يشرب في البهو، ويكعبني وأجدادي العظام، مسهبا في التعبير عن احتقاره للفسيفساء الأندلسية التي سجنت نفسها في مربعات هندسية عمياء بلا ملامح ولا حركة!

لكن أعمال هرقل، حتى نعود لموضوعنا، ليست في الحقيقة سوى تعبير عن الاستحالة اللصيقة بالإنسان، وبما أنه من المفروض فيّ كدليل محترف هو أن أقدم لكم المعلومات بحياد كامل، فإنني سأعفيكم من تقديم رأيي في الإمكان والاستحالة. كان لنا أستاذ في الجامعة الليلية يقول: إن الممكن الأكثر انتشارا في حياتنا هو الاستحالة! لكن هذه مجرد

فذلكة ألمانية لا نصلح لها ولا تصلح لنا.

بعد السقاية العمومية التي توجد عن يساركم، ستجدون الحمامات الشمالية التي سأترككم لزيارتها بدوني. فالحمام هو المكان الوحيد الذي لا أستطيع دخوله حيا أو ميتا!

ياله من تمرين مضجر أن تردد كل يوم نفس الشيء، وتجتهد في جعله مثيرا وممتعا كأنك تقوله لأول مرة، لو يعرف باخوس وأورفي وهرقل كم تحدثت عنهم، وكم احتفيت بسيرتهم لجعلوني ملكا على خرافاتهم السخيفة.

ليذهبوا جميعا إلى الجحيم، هم والحمامات الشمالية والرومان أجمعين، سأنتظر زبنائي في هذا القفر الذي لا ظل فيه سوى ظلي. أنا الشجرة والرجل الذي يرتاح في ظلها. لا أمل في نسمة هواء واحدة ولا داعي لها. لا أحد مات قيضا في هذه الأمكنة، إذا تأخروا في الحمامات سأضطر للانشغال عنهم بالتفكير في مصائبي، فلربما وجدوني عند ذلك أبكي مثل طفل نسيته أمه في هذه الخرائب.

هيا.. لم تعجبكم الحمامات؟ بلى، تقولون؟ لكن يجب أن تعترفوا بأن مسار الفسيفساء الذي ابتكرته هو أجمل المسارات على الإطلاق.

حسنا! إنني فخور بإعجابكم، قليلا ما يستطيع أحد الفوز برضى الأمة الألمانية! على أن أبوح لكم بسر. مسار الفسيفساء ابتكرته لنفسي، ففي هذه العتمة التي تبتلعني، تشكل الفسيفساء بصرا داخليا يعج بالألوان والحركة. العمى ساعدني لكي أصبح إلى الأبد قطعة من فسيفساء عظيمة، وكلما فكرت في هذا الأمر ارتفعت معنوياتي، وأحسست أنني قريب من منطق الحياة.

يجب أن نزور في مسارنا منزل الفارس حيث عثر على الفارس البرونزي

وهو من أجمل عناصر المجموعة البرونزية، وفيه توجد الفسيفساء التي حدثتكم عنها والتي تمثل اكتشاف باخوس لأريان.

ثم إن كنتم تصرون على التعرف على الحياة اليومية الرومانية فبإمكانكم أن تزوروا في طريق عودتكم عدداً من الدكاكين والمعاصر والمنازل والأحياء البسيطة، لكن أنصحكم بترك ذلك للمتخصصين الذين يرون في كل حجر أعجوبة من أعاجيب الدهر، وأن تحتفظوا لأنفسكم فقط بأساطير المنازل الكبيرة!

الآن ها نحن ننحدر مرة أخرى صوب الجسر الصغير على نهر فرطاسة، أرجو أن ترسلوا بصركم لآخر مرة نحو سلسلة المرتفعات الخضراء، في هذه الفترة من منتصف النهار ستكون بلون أخضر فاتح، تحت سماء زرقاء في غلالة بلّورية. هل يتذكر أحدكم الزرقة البحرية لجبل التاسعة صباحاً؟! لا أحد طبعاً، كلنا نرى معجزات الطبيعة مرة أو مرتين وننسى، ومع كل ما في هذه المعجزات من أبدية، فإن أروع ما نحتفظ به هو هذا العابر المنسي. الجبل لا يهتم بنا، لا يرى أننا نراه، ونعشقه، لا يتوقع ذلك ولا يتمناه ولا يخاف أن لا يحدث أبداً أنه كالوردة التي قال عنها شاعر قديم:

الوردة لا تسأل لماذا

انها تزهر لأنها تزهر

دون أن تهتم لنفسها

دون رغبة في أن تُرى

نعم..نعم..إنه الاستاذ الذي حدثتكم عنه، هو الذي روى لنا ذلك، متوقعاً أن نطرب له طربا شديدا كما حصل لكم الآن، لكننا انفجرنا ضاحكين فاغتاظ منا، وادعى أن الإنسانية بقدر ما تشيخ فإنها تفقد من شعريتها ولا أعرف أي شيطان جعلني أرد عليه:

الأشخاص هم الذين يشيخون، أما الإنسانية فلا عمر لها، فسألني من أين أنت؟

قلت من الحضارة الإغريقية الرومانية.

قال: إن ذلك لا يدهشني!

لا أعرف كيف أستعيد ذلك الإحساس بالدعابة كما بدا لي لأول وهلة في هذه الأبيات. هل هي أبيات مضحكة في نظركم؟. ..

لا، ليست مضحكة.. طيب لننسَ الموضوع.

ملاحظة أخيـرة قبل أن نودع الجبل، كان دائما يدهشني أن أرى جداول الماء التي تخرج من جبالكم، هل ترون ماءً مرتبطا بهذا الجبل؟ هل ترون شلالا أو صفحة بحيرة أو منابع تتدفق؟ لا شيء على الإطلاق؟ ومع ذلك ففي سفح الجبل تماما وعند قدميه بالضبط، هناك عيون تتدفق باردة، سخية أو شحيحة، لا يسمعها أحد ولا يُدْرك سحرها إلا من خلال الحدائق والعصافير المنبثة في الوادي. هذه جبال تبكي في صمت، أو تضحك في صمـت. من يدري ما يدور في رأس جبل؟!

هنا، نهاية المطاف! عفوا، قبل أن نقفل كتاب الفسيفساء إلى الأبد، على الأقل معكم، أرجو أن تنتبهوا إلى هذه اللوحة التي تمثل رأس ميدوز، إنها الفسيفساء الوحيدة التي استعملت في الموقع كلوحة، ميدوز حسب الميثولوجيا تحدَّت الإلهة منيرف بجمالها، فعملت هذه الأخيرة على معاقبتها وذلك بتحويل شعرها الجميل إلى ثعابين مرعبة، ثم منحت القوة لعينيها لتحول كل ما تراه إلى حجر، يمكنكم أن تتفحصوا مليا وجه ميدوز، لن تحولكم نظرتها إلى أحجار. أقول لكم ذلك عن تجربة. كم جلست قبالتها أملا في ذلك. كم كدست من أحجار في دواخلي وأنا أحدق في عينيها. الظاهر أنني سأتيه طويلا، جسدا حيا بين أحجار هذه المدينة.

شكرا لكم، عودوا مسحورين إلى بيوتكم تصحبكم بركات باخوس، وبركاتي الشخصية. أما أنا فسأحتسي شاي الظهيرة هناك تحت شجرة التين التي تظلل المقهى برمته.

- 2 -

- نعم، الشاي، كما القاعدة!

يا له من يوم صعب، أن تبيع للناس أساطير مضحكة، وأسطورتك الخاصة، وأنت لا تملك ذرة واحدة منها، وتبحث في نبرات أصواتهم عن لهفة تستأنس بها، بينما لا شيء، لا شيء من حياتهم يتسلل إليك، ولا شيء من حياتك ينفذ إليهم، كأنهم، وهذه الحجارة، وأنت، وكل شيء في هذه الأمكنة، لفظته اركيولوجيا متسرعة لنفي الزمن خارج الزمن، والمكان خارج المكان، وهذه الحرارة، الحرارة البكماء، الثقيلة! لماذا لا تنبت الأشجار في الخرائب، لماذا لا يجرؤ أحد على غرس زيتونة في هذا اليباب؟!

ثم أن تبدأ يومك بهذه المناقشة الجوفاء عن نهاية السلالة! وماذا لو انتهت، واضمحلت إلى الأبد، ماذا سيضيع على البشرية من إغلاق أرحام آل الفرسيوي، وإلقاء المفاتيح في البحر؟!

السلالة! يا له من إسم ضخم! كأننا سنلد من جديد محمد بن عبد الكريم الخطابي ومن معه. نضبت ينابيع المحاربين، كل ما نلده اليوم تجار ومهربون وسماسرة وباعة شقق، وبعض البهلوانات الذين يُجيدون باروديا الحرب، ويركبون فرحين حميرا بالمقلوب.

المحارب الوحيد الذي أنجبته السلالة هو ياسين. ولكنه ضاع بدون أسطورة ولا أمجاد.

لابد أن يفهم أنه يتحدث إلى والده، هو لا يهتم بما سيحدث في القرون القادمة، لأنه يعيش في الآن، في المطاعم والحانات والمطارات، ويضاجع نساء مدهشات، أما هذا الضرير المحتد فيقضي يومه يطارد هرقل وأنطي وباخوس وأورفي وهيلاس وفينوس وميدوز وأريان وجوبا وبطلومي، ويسوق هذا القطيع الأسطوري من قرن إلى قرن حتى يصل به ضفاف خُمَّان، ويتركه هناك يجتر تحت ظلال الدفلى.

هو يشتغل على الحكايات العابرة، والروايات التي تذبل فور قطافها، أما أنا فأشتغل على الأبدية، أنا يهمني مِهَنيًا أن أعرف ماذا ستكون عليه أحوال هذه القِوَادَة بعد خمسة قرون.

أعرف أنه أبدا لن يهضم انتحار أمه، ماذا يتوجب عليّ أن أفعل لأقنعه أنني لم أقتلها. مهما يكن فكلانا قد قتل الآخر. عندما تمر السنوات، يصبح كل ما فعلته في علاقتك بالآخر خطئا فادحاً.

من يستطيع الادعاء أنه لم يقتل عن عمد وسبق إصرار ولمرات متعددة شخصا لم يعد يحبه؟!

أنا لم اقتل ديوتيما بطلقة نارية، ربما قتلتها باثنتي عشرة سنة ذخيرة حية، ولو لأنني لم أفعل شيئا باهرا من أجلها، لم أدجن لها بلد البرابرة، ولم اعثر لها على كتاب جدها الشعري ولم أبحث عنها بعد خروجي من المتاهة.

يجب أن أعترف أن عذاب يوسف لا يشبه عذاب أحد من العالمين، فبين انتحار أمه ومقتل ابنه تبدو حياته مثل صفعة ظالمة، لكن لماذا يكون عليّ أن أدفع كل الفواتير؟! إلى الجحيم بهذه الآلام الصغيرة. ماذا عساه يكون هذا الألم مقارنًا بآلام ميدوز وهي ترى ضفائرها تتحول إلى ثعابين مرعبة، أو هي تكتشف رجلاً ساحراً تعُدُّه من النظرة الأولى حب حياتها

فلا تكاد تنظر إليه حتى يصبح حجرا.

ماذا نسمي عذاب أورفي وهو يلتفت ليرى حبيبته متأكدا أنه سيفقدها إلى الأبد جراء هذه النظرة المستعجلة. هذا هو العذاب، وليس أن تذرف دمعة يتيمة بعد نبيذ فاخر!

يصرخ في وجهي كأنني خادم شق عليه عصا الطاعة، يا للعار! كان أولى به أن يهبّ إلى نجدتي، ويؤازرني في محنة الفندق، عوض أن يتابع الأمر من بعيد، ويغدق عليّ نصائحه البائسة.

لن يقرر أحد في مكاني، لينتظر حتى يصبح وريثا شرعيا وليفعل إذاك ما يشاء!

أما وأنا على قيد الحياة فلن يقرر أحد وراء ظهري.

قلت لن أبيع الفندق، أعني لن أبيعه، بعت كل شيء لأسدد ديونه، الآن لا أملك سوى الأطلال ولكني سعيد بذلك، سعيد أن أنافس خرائب وليلي، سعيد أن أمر على الكانتينا عند عودتي من الموقع فأسمع ثرثرة السكارى كما استقرت هناك منذ زمن سحيق، وأرى ببصيرتي المتعبة ديوتيما متربعة على عرش بهو الاستقبال ترعاها فسيفسائي الخالدة، في بيتي، بيت الفتى الجميل.

هذه هي الحرب الوحيدة التي تشبه حرب الريف لأنها لا تخلو من كبرياء، ومكر، وعناد وصلابة. يقول العبقري، إن الوطنية اليوم هي أن يكون لك مشروع للتنمية! سبحان الله، وما علاقة هذه الفلسفة بإصرارك على اغتصاب الفندق وتقديمه هدية لزوجتك وصهرك! هل تقصد مثلا أن المفلسين هم خونة هذا العصر؟ طيّب، لماذا لا تنصب مشنقة لرفع وتيرة النمو؟!

يلح يوسف وصديقه المحامي على إنهاء الحكاية بطريقة أنيقة! وما

دخل الأناقة في الموضوع؟ هل نبيع ونشتري مع إيف سان لوران؟ إذا كانت الحكاية أصلا وسخة فلماذا هذا الإصرار على تجميلها بحكمة سخيفة؟

كنت سأكتب الفندق باسم زوجتي، وكان هذا الأمر سيكون عادلا. ففي هذا المكان نسجنا خيوط علاقتنا، وفي إحدى غرفه عثرنا على طريقنا، ومن خلال قضاياه المعقدة حول الديون والماء والحانة بنينا حياتنا.. لكنني حدست أنها ستقع بين أيديهم، نوع من التوجس الغامض جعلني أحجم عن الفكرة في آخر لحظة، فلم تغضب، ولم تحزن، كأنها كانت تتوقع ذلك بل وتتمناه في قرارة نفسها، وقد اعترفت لي في لحظة وئام أن زوجة العبقري زارتها وخاضت معها في موضوع الفندق ومستقبله الزاهر بتلميحات تسيل لعاب الزهاد!

ها.. . وإذاً فالحكاية فيها إنَّ. وإلا لماذا هذا الإلحاح من قِبل ابني وفلذة كبدي؟!

يصرخ في وجهي بدون حياء، لكنه ينسى أنني على حق، الإنجاب ليس مسألة ثانوية، وإلا لكان الله قد أوقف الحكاية في آدم وحواء. الحياة تلد الحياة، والموت يلد الموت إلى الأبد! وكيف سيكون غضبه إذا علم أنني أنا صاحب الفكرة؟ نعم، أنا الذي قلت لبهية لماذا لا تحاولان مرة أخرى؟ إذا كنتما ترغبان في الحياة رغم مقتل ياسين فيجب أن تنصتا لمنطق الطبيعة، وإلا فإن الموت سيبتلعكما، لأن الموت يلد الموت، والحياة تلد الحياة إلى الأبد!

هو أراد أن يموت حزيناً، تلك مشكلته. لماذا يصرخ في وجهي، طيب، لننس الموضوع، سيرجع إلى نفسه بعد فترة، وسيدرك أن موضوع السلالة ليس شيئا تافها. تصوروا كم من حرب نجونا منها وكم من وباء ومجاعة

وحوادث أفلتنا منها: من الريف إلى بومندرة، ومن بومندرة إلى ألمانيا، ومن ألمانيا إلى زرهون، عام الحرب، عام الجوع، عام التيفوس، عام التيه، عام الجرب، الحرب مع إسبانيا، الحرب مع فرنسا، الحرب مع اللصوص وقطاع الطرق، الحرب مع أفقير، الحرب مع الدليمي، الحرب مع البصري، الحرب مع طواحين الهواء، سنوات الهجرة، سنوات الرصاص، سنوات البوگليب. كل هذه الصحاري عبرناها دون أن نتنازل أبدا عن استمرار السلالة، هذا العبد الضعيف ولدته أمه نصف ميت، وضربه الجذري وهو ابن الخامسة، ووقع في بئر ولم يتجاوز السادسة، وانفجرت بين يديه بندقية بوحبه في السابعة، وحفظ القرآن في التاسعة، وكانت أمه رحمها الله تذبح كل شهر في جمعته الأخيرة ديكا في ضريح سيدي عبد الله، لا من أجل أن ينجح وينتصر في معارك وحروب لا تنتهي، بل فقط من أجل أن يعيش. نقوم الآن، ونقطع دابر هذه الأمة! ولماذا؟، لأن سيدي ومولاي يوسف لا يطيق منظر المرأة الحامل! والله لو كان الجهد، أقصد الجهد بصفة عامة وليس الجهد المعلوم، لدخلت بها ودودة ولودة ولأغرقت هذا البلد الخامل بنسل من فطاحل الريف!

يا أسفا على يوسف، كان الأولى له أن يقف معي فقط بالكلمة، أن يقول بصوت مسموع، ليس من حق أحد أن يأخذ الفندق غصبا من صاحبه. إذا كنت لا أريد أن أفتح الماخور من جديد، فذلك حقي، أرض الله واسعة، من كانت عينه في مشروع للتنمية فدونه وهذه الجبال التي يصفر فيها الريح، من كان يريد أن يسكن الأجانب في غرف ساحرة تطل على أرواح الرومان، فليبن لهم فوق كهف الحمام. لماذا هذا الإصرار؟ أنا متأكد أن القضية كلها لا علاقة لها بالربح ولا بالخسارة، كل ما في الأمر أنها خرجت من فمه. لقد قال العبقري إنه يريد الفندق، يجب أن يستجيب الكون كله،

ولو تطلب ذلك قصف زرهون بالنبالم.

ماذا تريد من هذه المدينة النائمة بسلام جنب ضريحها؟ ابحث في مناجم المدن التي ولا بد، حيث أقرانك يلعبون بالذهب، هل تتصور أنهم كانوا سيسلمون لك هذه المفاتيح الصدئة لو ظهر لهم لمعان الدينار خلف أبوابها؟! يمكنك أن تحفر بأنيابك وأظافرك من عين جمجمة إلى واد الميت، لن تجد شيئا تضعه تحت ضرسك! تمعن في الأسماء يا ولدي، مدينة تقبع بين جمجمة وميت، ماذا يمكن أن تصَوَّر منها؟!

أنا أحفظ كل معارك هذا البلد، مما لو وضعته في فسيفساء لكانت أروع فسيفساء الدنيا وأكبرها وأغزرها حماقة!

معركة بوحمارة على بلاد أولاد يوسف، معركة القايد قطيرة على بلاد باب الرميلة، معركة القايد الغالي على بلاد المرس، معركة الخليفة الحيمر على بلاد الحمري، معركة بْصِيلْتي على بلاد بورياح. أين توجد كل هذه الأرض التي يتقاتل الناس حولها؟ أرواح أزهقت وثارات أجلت ومحاكم وقضاة ورشاوي، ومعارك تنفيذ وإكراهات بدنية، ومع ذلك بقي الفقر سلطانا يتربع على عرش هذه الزاوية. يقال إنها دعوة من مولاي إدريس، كون أهلها دَلُّوا عليه أعداءه العباسيين فسمموه. ويقال إنها بركة مولاي إدريس، حفظتْ للناس الكفاف والعفاف، ولم تسمح بظهور الثراء الفاحش.

هذا هو غلط عمك الفرسيوي، تَصَوَّرَ في لحظة انتشاء مجنونة، أن بإمكانه القفز على سلطة الولي الصالح، وبناء إمبراطورية تلعب بالثروات. والحال أنه لا شيء ينبت تحت هذا الظل الوارف، الأجنحة بمقدار، والقامات بمقدار. كان واضحا أن في الأمر خطأ فجًا، أنت في سيارة الميرسيديس، والألمانية جنبك في كامل زينتها، والأرقام التي تدور في

مخك، والصفقات التي تشمها من ألف ميل، كان واضحا أن في الأمر خطأً فادحا. الأرض والزيتون والخروب والكانتينا!

وقبل هذا وذاك، تلك النعرة اللعينة التي جعلتك لا تسعى إلى شيء مثلما تسعى إلى إذلال الشرفاء. صحيح أن بعضهم ليسوا سوى أشخاص بائسين ممسوحين، هدم الكيف أسنانهم ونظراتهم، وغشيتهم صفرة القابعين في الأضرحة، ولكن لماذا استعراضهم بمناسبة وبغيرها أمام الملأ مهللين لك مَبَجّلين، مشمرين سراويلهم للخدمة، مادّين أيديهم، نعم مادّين أيديهم، ما أروع ذلك! ما ألذّ هذا المشهد الذي خلدته في فسيفساء المسبح، صفّا من الشخوص المخطوفة بأيدي معروقة ممدودة نحو باخوس الذي يرشهم بقطع ذهبية مختلفة الأشكال!

وكان حريا بك أن تفكر في الأمر قليلا، وتخزي الشيطان وتخجل من إذلال هذه البضعة النبوية، ألا تعلم أنه لا علاقة لمظهرهم بمخبرهم. وأن ما تراه غارقا في عطن الخمر أو شذى العشبة ليس سوى جبة، أما داخل الجبة فلا يعلمه إلا الله. وأنت كنت تعرف هذا حق المعرفة، وتعرف أن جدك كان يخرج سلكة كاملة لمولاي إدريس كل شهر، ولكنها العجرفة، قبح الله العجرفة، قبح الله الثقة في الفلوس وفي أحوال الدنيا. ما علينا، ها أنت تؤدي في الدنيا، وتجنى ما قدمت يداك! ها هو ابنك يصرخ في وجهك، ويكاد يشتمك، ها أنت تدرك بعد فوات الأوان أن هذه الأرض لا تحب سوى المستضعفين، هذه أرض تحب الفقر، تعتبره رفقة إلهية لا تعوض، يأكل أهلها خبز الشعير مصاحباً بالماء وحده، ولا يفكرون لحظة واحدة في ما لذ وطاب من أصناف لم يطالوها. بل يتدبرون في خلق السماوات والأرض. «ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك». ويوم يزيغ خيالهم عن هذه الطمأنينة، تتخطفهم الريح فيهيمون على وجوههم كما فعلت، حتى

يسقطوا في عتمات بلا قرار.

ابحث في مناجم أخرى، ياسي الفهِيم. بإمكاني أن أبيع الفندق لأصحابك، وأغتني من جديد، وأرجع إلى عريني الألماني، لا شيء يمنعني من ذلك. ويعلم الله أن الفكرة تركض في رأسي، وإغراء بناء حياة أخرى يراودني، ولكنني تعلمت بالإنصات للخرائب، تعلمت أن أترك الأشياء كلها تجيء، لماذا أذهب إليها؟ إذا كانت ستجيء فستجيء!

يوسف تعب من وجع الرأس، لا يريد أن يخوض معركة مهما صغرت، حتى ضد نفسه. أنا أقول له، لا تقاعد في الحرب. هناك كائنات خلقها الله لتحارب، وأخرى لتهادن وتلحس الأحذية، وأخرى لتضجر فقط وتموت بسبب ذلك. أما يوسف فلا يمكن أن ينتهي هكذا، وديعا يثرثر في المقاهي ويحلم في القطارات! لا أعرف ماذا حصل لهم جميعا، بعد كل ما اقتحموه بصدورهم، ها هم يتحولون إلى رماد تذروه الرياح. بعضهم ممّن كانوا معه في مرحلة السجن أسمعهم في الإذاعة ينمِّقون الكلام ويفلسفون المهادنة كأنهم علب مراهم، لا أعرف ما جرى لهم. ولا هذه الحمى التي رفعوها إلى مقام جذبة صوفية، المصالحة، المصالحة، المصالحة، مع الماضي، مع الحاضر، مع الذات، مع الآخر، مع المصالحة. كأن حربا عظيمة وضعت أوزارها. يا للسخف!

يقول يوسف، ولماذا تريد أن أحارب من أجل الفندق؟

الفندق ليس قضية! وحتى لو كان قضية فإنه قضيتك!

لابد في يوم ما أن أقول له بهذا الخصوص إنني فخور بأن يكون الفندق قضيتي. أعرف أنك لا ترفع إلى مقام القضية سوى تلك الأوهام الكبيرة التي تتوسد اليوم حطامها، أما أنا فقد أدخلت ألمانية مصبوغة الشفاه إلى حرم الزاوية، وشيّدت فندقا بثلاثة نجوم يستقبل الأجانب وتقدّم فيه الخمر

للزبناء. وبنيت إمبراطورية الخروب، وفتحت معصرة عصرية بالكهرباء لتؤسس أول قطيعة مع تقاليد العصر الرومانية، ناهيك عما فعلته ديوتيما بإدخال الفوطة الشهرية والعازل الطبي وصناعة الجبن والطرق الحديثة لتصبير الزيتون والخياطة العصرية إلى أعماق هذه الجبال المنسية، في نهاية المطاف لم يغير هذا البلد سوى الاستعمار الفرنسي وهذا العبد الضعيف. إذا كنت تريد أن أقول لك شيئًا عمّا أعتقده في مشاريعكم الثورية، فسأقول إنها لم تكن سوى فَسية كاذبة، ولا أدل على ذلك من كون سلطة اليوم - بعد المصالحة طبعا! - قد وضعتكم جميعا جنبا إلى جنب مع لوحات السبعينات في صالوناتها الحديثة!

آه كم ندمت على عنادي مع ديوتيما! كانت تقول كما عرفت كيف تجيء، يجب أن تعرف كيف تذهب ومتى تذهب. لو تأخرت ساعة واحدة فستبقى هنا إلى الأبد، سيمسك العجز عن الذهاب بتلابيبك، وستغوص قدماك في الأرض السبخة للانتظار والتردد. وكلما تأخرت ماتت بعض شرايينك، وتحولت هي الأخرى إلى حبال تشد وثاقك. كانت تقول إذا بدأ بناء ما في التهاوي فيجب أن تخرج منه فورا، وإلا وقع عليك وعلى أحلامك وحولك إلى جزء منه، أي إلى حطام.

وكنت أرى البناء يقع، فأسارع إلى ترقيع الشقوق وترميم التصدعات، زاعما أن كل بناء لا يخلو من تصدّع! ثم ثقلت عليّ فكرة المغادرة حتى أصبحت مثل ضريح أحمله على ظهري، واختلطت في نفسي مشاعر الخوف ورفض الهزيمة والنفور من الشماتة، والأمل في انتصار وشيك يعيد من جديد أمجاد مملكة الأمازيغ في رحاب وليلي، ولكن التصدعات التي كانت تبدو صغيرة ومقدور عليها كبرت، ومعها كبر عِنادي ويأس ديوتيما.

اتخذت الحرب منحى جديدا عندما اندلعت إحدى مراحلها الشرسة حول الدور الخربة المهجورة في هذه المدينة المقبرة، إذ كما هو معلوم، لا مكان في هذا الجبل المعوج لأي مساحة يمكن أن يفتح فيها تعمير جديد. إذا أردت أن تبني فما عليك إلا أن تتصيد خربة مهجورة فتبحث عن أصحابها أو عن ورثتهم في السند أو في الهند، وتشتريها منهم بمساطر أعقد من تقرير المصير. وعندما تفوز بالخربة وسط صراع شرس بين أطراف متعددة تتدخل فيها أساليب متطورة من التحقيق والتجسس والمطاردة وحتى السحر، عندها فقط يمكنك أن تشرع في البناء، وأن تشيّد لحدًا فوق لحد، ثم تبيع فيما بعد أو ترهن أو تبادل.

دخلت هذه الحرب بجهالة جهلاء، نظمت لها الحلفاء والعيون والسماسرة والباحثين، وحالفني الحظ فجمعت من الخرائب ما لم يجمعه أحد قبلي ولن يجمعه أحد بعدي، خرائب في تازكة ولَمْريح وسيدي عبد العزيز، وللا يطو، وسيدي امحمد بنقاسم ولخطاطبة والقليعة وباب القصبة ولعوينة وعين الرجال، خرائب صغيرة وكبيرة ومتوسطة، تغطي القرن العشرين برمته وجزء من القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، بل إنني اهتديت إلى شراء خربة من العهد السعدي، حتى بات ممكنا أن نستخرج تاريخا كاملا لأمكنة وأنساب وحروب وأخبار وعائلات زرهونية عريقة وغير عريقة من رسوم وملكيات هذه الخرائب المنسية. وأتاحت لي هذه التجارة الجنائزية أن أشيّد شبكة من العلاقات في الرباط والدار البيضاء وطنجة ومراكش من ورثة الدور المهجورة أو تجارها البارعين في تزوير الوثائق والملكيات، والنزول على عائلات مشغولة بحاضرها نزول رسول من العصور الغابرة والتغلب على ذهولها بالأداء عدًا ونقدًا أمام الموثق.

لم تكن ديوتيما تهتم بهذا الموضوع أو ترتاح له أو تتفاءل به. مرة

واحدة ذهبت معي لتعاين خربة العهد السعدي التي كنت فخورا بها، فرأت ضمن ما رأت بين الحجارة والأتربة ثعبانا ضخما ينظر إليها بعينين دامعتين، فأغمي عليها لمرات متتالية في ذلك اليوم. وعندما رجتني أن أفهمها الحكمة من هذا الجنون اللاهث خلف الدور المتهدمة، لم أجد شيئا أكثر إقناعا من القول:

- إنه البيزنس يا ديوتيما، البيزنس بكل بساطة! في هذه المدينة المقبرة، في أي شيء تريدين أن نتاجر ونربح ونخسر، الوول ستريت هنا هو خربة فلان طرحت للبيع، خربة فلان طار بها الفرسيوي، خربة فلان ضاعت على الفرسيوي، هل يمكن أن تفهمي ذلك ولا تجعلي لي منه مأساة العصر؟!

طيّب، كل هذا صار الآن خربة أخرى من صنف آخر.

لنتحرك من هذا المكان الموبوء، كل شيء صار خلف ظهري، كأنه حدث لشخص آخر. الخرائب التي بعتها بمبالغ زهيدة لأدفع ديون الفندق تباع اليوم أمامي بالملايين. أسمع أخبارها فأكمّدها في نفسي وأمضي مجروحا إلى مسار الفسيفساء! أبدأه بلوحة ميدوز، انظري إلى هذا الحجر الصلد، ماذا تنتظرين هنا أيتها الجميلة التي أغضبت منيرف، كل هؤلاء الذين يتأملون وجهك ليسوا سوى أحجار قديمة.. لا فائدة، صدقيني لا فائدة! لنتحرك.. أين أنت أيها الطاكسي الأحمق لنتحرك! لا قيظ أثقل من قيظ وليلي، كأنه ركام قرون من الصهد. في هذه الساعة من الظهيرة، لابد أن غلالة جهنمية بيضاء تحيط بالحقول الممتدة خلف وادي خمان.. إلى الجحيم! لا شيء يمكن أن أفعله من أجلك أيتها الأرض. إنه وقت قيلولتي المقدسة، سأمضي إلى آخر حجر تبقى لي في هذه المدينة، وقبل ذلك سأعرج على الفندق، سأطوف في البهو المتهدم والحديقة ثم أمضي تتبعني عطور سيدات وأصوات رجال مخمورين يبحثون بجهد صاخب

عن كلمات مناسبة. هل توجد حقا كلمات مناسبة؟ عندما صرخ يوسف في وجهي قائلا: إنك لست سوى قاتل غبي وعنصري، غضبت وشعرت لأول مرة منذ سنوات أن هذه الكلمات تجرحني، ولا يمكنكم أن تتصوروا إلى أي حد سعدت بذلك، فقد كنت أحسب أنني لم أعد قادرا على إنتاج هذا النوع من المشاعر جراء ما حصل لي من تخشب عام لم أعد أستطيع معه سوى إفراز زوابع غضب صغيرة تتلاشى بمجرد تجمع دوائرها الأولى.. هل كانت تلك الكلمات مناسبة تماما لاستعادة إنسانيتي، ورغبتي في الاستمرار على قيد الحياة.

كلمات مناسبة حقًا! أن يتهمني ابني الوحيد بقتل أمه، ويعتبرني فوق ذلك مجرد قاتل غبي وعنصري!. ما أسهل اللغة، يمكن أن تضع فيها ما يكفي لتدمير بلد بأكمله دون أن يرف لك جفن، وقد فهمت أن أكون قاتلا عنصريا، لكن ما معنى أن أكون قاتلا غبيا؟ القتل كله غباء، ليس هناك قاتل ذكي.. لا يهم.. سأقول له في يوم مّا إن المعنى الوحيد لإصراره على أنني قتلت ديوتيما، هو أنه كان دائما يتمنى ذلك! هه! رجل يكتب عن الحب ويُحسب على اليسار، يتمنى أن تقتل أمه على يد أبيه! تريد أن نتمخّض فنلد مسخًا؟! ليكن! ها هو المسخ يرتع بيننا!

عبثا سأحفر حول هذه النبتة الفاسدة، لن أذهب بعيدا، ولن أنجح في إنتاج ذرة واحدة من الضغينة تجاه يوسف، كل ما في الأمر أنني لا أطيق فكرة خصامنا! أريد أن يحدث بيننا تواطؤ مّا يجعلني أعثر على موطئ قدم في هذه الجزيرة اليابسة!

عندما كانت ديوتيما مشغولة بهذا الجبل، ومفتونة باحتمال العثور على كتاب جدها الشعري، كان كل شيء يبدو مستقراً في مكانه، وواضحاً، ومبشراً بمصائر مذهلة. كان يراودني شعور بأنني فعلت شيئاً عظيماً من

أجل هذا المكان، وأنني نزلت بمملكة آيلة للسقوط فنفخت فيها من روحي ووضعتها على سكة مغامرة مثيرة. وكان احتمال العثور على شعر ألماني تحت أنقاض الرومان يملأني بقناعة ناصعة أنني عثرت هنا على مهمة كونية، لكن ديوتيما رأت ببصيرتها النفاذة أننا نمضي نحو ظلام دامس. متى ولدت الفكرة في مخها؟ لا أعرف أتذكر فقط أنها كانت في إحدى شرف الفندق، فلم أنتبه لها إلا بعدما شرعتُ في صعود الهضبة قادما من الموقع، كان لديّ وقت كاف لأرتب كذبة أخرج بها من منطقة الشك، لكنني لم أفعـل. فوصلت البهو لأجدها واقفة بسؤالها:

ـ أين كنت؟

قلت: كنت أتجول في وليلي!

ـ هل كنت تبحث؟

ـ ولماذا أبحث وحدي كالمجنون؟!

ـ ألم نتفق أن لا تبحث هناك إلا بوجودي؟

قلت محتداً:

ـ لم أكن أبحث، ولا يهمني أن أجد قبعة ذلك المعتوه ولا شعره!

لكن ديوتيما دخلتها بذرة الشك، تصورت أنني عثرت على الكتاب الشعري ودفنته مرة أخرى لحسابي الخاص، ذلك أنني قبل بضعة أيام، كنت قد تركت سهوا فوق طاولة الإفطار ورقة كتبت فيها:

هيا، خليق بي أن اصمت، لا تدعيني بعد الآن أبداً

أرى ما يُقتل، واتركيني على الأقل

أمضي بسلام إلى عزلاتي

وليكن هذا وداعنا حقاً

تجرعي وناوليني من هذا السم المقدس،

ولأشرب معك من ليثيا، نهر النسيان المنقذ،
كأسا دهاقاً تنسينا
كل ما كان من بغضاء وحب
ها إنني ذاهب.
لكن قد تعود لاحقاً، يا ديوتيما
ساعة رؤيتك،
هنا من جديد.
فدمها سفحته الرغبة بكامله بعد الآن
ونحن بلا هدف نمضي[1]

وعندما انتبهت إلى أنني نسيت الورقة، بحثت عنها بعصبية، فوجدت ديوتيما جالسة في البهو جامدة الملامح، فلما وقفت قبالتها نهضت وقالت بصوت معدني:

ـ منذ متى تكتب الشعر؟

اتخذت هيأة مسالمة وشبه ساخرة وأجبتها:

ـ منذ صرنا نبحث عنه مدفونا تحت الأنقاض.

ـ لا أعرف لك ذرة واحدة من الرقة تجعلك تكتب شعرًا!

ـ لا علاقة للشعر بالرقة أرجوك، إنها فقط مسألة جرأة.

ـ وإلى أين تريد أن تذهب، وأي سم مقدس تريد أن تتناوله؟!

ـ إنها مجرد تأملات شعرية لا غير.

نظَرتْ طويلا إلى وجهي كأنها تبحث فيه عن أثر لشعر ما يختفي وراء الجلد قبل أن تخرج الورقة من جيبها وتضعها أمامي.

وكنت أطوي الورقة مضطربا وأتهيأ للعودة أدراجي عندما سألتني:

---

(١) مقطع من قصيدة لهولدرلين

ـ هل وجدت الكتاب؟

هززت رأسي بالنفي مخلصًا وصادقاً، وانصرفت.

كانت هذه الحادثة، إذا صح اعتبارها كذلك هي التي غيّرت علاقتي رأسا على عقب بموضوع الكتاب الشعري. شيء ما حدث في هذا اليوم جعلني أعتبر الكتاب وصية موجهة لي، وليس إرثا تدبره ديوتيما بمنطق النسب. أنا المسؤول عن إنقاذ هذا الشعر، بكل ما يعنيه من عنف ومنفى وجذوة خالدة. إذا كنت حتى اليوم لم أدرك جوهرية الشعر في حياتي فلأن قدري كان يحضرني لهذا اللقاء الصاعق الذي جعلني أعتبر الشعر صدفة من صدف الطبيعة، كما لو تكون ماشيا مستسلما لاستيهاماتك حتى تجـد نفسك فجأة وجها لوجه مع شلال عنيف ينزل راقصا من علو شاهق. هكذا نشأت علاقتي بالشعر فأصبحت أعثر عليه أحيانا حتى وأنا أغير عجلة الميرسديس تحت شمس حديدية.

وهكذا أيضا ولد الكتاب الضائع في حياتي مرة أخرى كمغامرة تخصني وحدي دون أي شخص آخر قريبا كان أم بعيدا من هانس رودر.

سوف نرى يا يوسف أيُّنا أقدر على ترويض الخراب؟! أبوك لم يعش يوما واحدا لم ير فيه بناء يسقط أرضا من وقفته، لم يعش يوما واحدا لم يرَ فيه الناس حوله يرفعون الحجارة والأتربة ويستخرجون أرواحا جريحة. في بومندرة كنا نبدأ اليوم برفع أطنان من التراب عن الريف كما استقر في ذاكرة هجرتنا. وفي ألمانيا كنا نبدأ اليوم بالتفكير في فردوس مفقود لا نعرف أين هو. وهنا تماهيت مع الخراب حتى أصبحت أنا نفسي دارًا مهجورة. حتى منزل الشاطئ الذي شجعتني على بنائه في الريف ذهب به زلزال الحسيمة. أحيانا أقول في نفسي، لو لم أبن هذا البيت لما وقع الزلزال، ثم ألعن الشيطان وأقول كل من رب العالمين.

قف أيها الطاكسي الأرعن! ألا تريد أن تشرب شيئا في الكانتينا؟ لماذا ترفض هذا العرض دائما؟! كل يوم أقول لك هيا نشرب كأسا في بار الفندق، ونتفرج على الفسيفساء قبل أن نذهب إلى البيت وأنت تقول إذهب لوحدك واشرب الريح! طيب! سأذهب لأشرب الريح، لا يوجد مكان مثل فندق الزيتون يمكنك أن تشرب فيه ريحا جيّدة!

لنبدأ إذاً زيارة الفندق المعلوم أو ما تبقى من آثاره الخالدة. يمكنكم الآن أن تتخلصوا من قبعاتكم ومن أثقال الماء المعدني التي تحملونها. هنا كانت تجلس ديوتيما تحيط بها الحوريات والدلافين، وهنا كان يجلس الجربى يتهارشون ويسكرون، وفي هذه الفسيفساء يغدق باخوس صدقاته السخية على الشرفاء، وفي هذه يعثر باخوس على أريان تائهة في شاطئ جزيرة ناكسوس، وها هو يتأملها فيقر أنها أجمل وأخطر وأرق وأدعى لليأس من المتاهة نفسها. وها هي الفسيفساء التي تمثل بطولومي يسقط مضرجا بدمائه يحاول ملكاً أو يموت فيعذر.

ثم ها هو باخوس مرة أخرى يلتقي صدفة بميدوز فتحوله بنظرتها الساحرة إلى حجر، ليبقى سنوات طويلة في مدخل الموقع، تمثالا من غرانيت أسمر في وضع مراهق أبدي، يحمل عناقيد من عنب باب الرميلة على كتفيه قبل أن ينزله سارق أحمق من علياء هذا العرش!

لا تستعجل أيها الطاكسي الغبي، عمك الفرسيوي جاهز للعودة المظفرة. سق على مهلك، لماذا تنظر إلى المدينة كأنك تراها لأول مرة.. غدا لا تُشغل نفسك بي سأنام في حوض الحوريات، وسأسبح مع الدلافين وفي الاتجاه المعاكس كما ينبغي لفسيفساء محترمة مثلي. وما هي الدلافين؟ سق يا ولدي سق! لا شأن لك بهذا العالم!

لا شأن لنا جميعا بهذا العالم!.

كتاب المراثي

- 1 -

توقفت عن كتابة «رسائل إلى حبيبتي»

ذات صباح جلست إلى مكتبي وأدركت حتى قبل أن أفكر في الموضوع أنني لن أستطيع كتابة رسالة أخرى إلى المرأة التي أحببتها، ونسيتها.. دون أن أنسى أنني ما أزال أحبها. فانتبهت عندئذ إلى أن كل قصة حب تنطوي على تمدد في الزمن. فما أكثر العشاق الذين يقولون لبعضهم أنني أحبك قبل أن أحبك.. أحبك منذ كنتُ مجرد فكرة في هذا الكون. أحبك خارج الزمن الذي يجمعنا.. أحبك في زمن لم يعد لنا، أحبك إلى الأبد.. وأشياء كثيرة من هذا القبيل يستعين بها العشاق لوضع فيض حبهم في لا نها ئية مستحيلة، ثم انتبهت أيضا إلى أن قصة العاشق الذي فقد ذاكرته، ولم يعد يستطيع أن يعثر على حبيبته في شكل محدد، هي إلى حد ما قصة علاقتنا بكل ما نبنيه في حياتنا، ونخلط بينه وبين أوهامنا واستيهاماتنا. إننا بعد مضي وقت ما لا نستطيع أن نجزم ما هو الجزء المادي المحسوس لهذا البناء، وما هو الجزء الذي لم يكن سوى أحلام مخذولة. ما هو المتحقق فعلا من هذا الخليط. ما الذي نسميه حياتنا، هل الأشياء التي وجدت أم التي كان يمكن أن توجد؟

عندما وضعت هذه الأسئلة حصل نوع من التداخل بيني وبين الشخصية التي ابتدعتها. وتهيأ لي أن فقدان الذاكرة، هو الشيء الذي أصابني خلال سنوات، عندما كنت أكتب تلك الرسائل وأعتبرها نوعا من التعويض

العاطفي أو نوعا من الاستباق لحالات الفقدان التي ستعتريني، ربما قمت بنوع من الإسقاط على ليلى عندما التقيت بها. ووجدت في علاقتي بها شكلا من أشكال التبادل بين ما كان وما لم يكن أبدا. لكن علاقتي معها وعلى نحو مفارق هي التي وضعتني بقوة في «الآن»، لأنها أقامت حولي سياجا من الواقعية، جعلني أسترجع دفعة واحدة تفاصيل هامة في علاقتي بالأشخاص والأمكنة، ليس كتذكر، بل كإمكانيات متعددة وفعلية.

كانت فاطمة أول من ابتهج لتوقفي عن كتابة الرسائل. وقالت لي إنها تتفاءل من ذلك وتعتبره إيذانا باستئناف حياة جديدة، ثم سألتني عن ليلى، فقلت إننا نعيش مشتبكين تماما ولكن على مسافة !

أما ليلى نفسها فلم تهتم بتوقفي، مثلما لم تكن مهتمة بكتابتي. كانت لها نظرية خاصة تزعم بمقتضاها أنني أضيع موهبة مؤكدة في نصوص غير مؤكدة، وكانت تقول لو أن لها مثل هذه الموهبة لكتبت نصوصا أدبية خالدة، عوض إهدارها في مقالات تموت فور ولادتها.

وبينما كنت أستعيد شيئا فشيئا بعض الرغبات المنسية، وأتدرب على الحياة في تجلياتها البسيطة، دون خضوع للمرارات المتوفرة بكثرة في الأجواء العامة. كان إبراهيم الخياطي يقود معارك حامية الوطيس في غابة الدار البيضاء، ويغرقنا معه في قضايا لم تكن تخطر لنا على بال، حتى أن أحمد مجد وجد في ذلك مادة خصبة لسخريته فسمى هذه المرحلة مرحلة النضال البيولوجي، نظراً لارتباطها الوثيق بالحياة الجنسية لعموم المواطنين.

كنت أقضي عطلة نهاية الأسبوع في مراكش مع ليلى أحيانا إلى أن أسرت لي في إحدى رحلات العودة أنها لن تعود معي أبدا إلى هذه المدينة. وعندما حاولت أن أقنعها بأن البيت الكبير والغالية وأحمد مجد

وحتى ليلى وابنتها، كل ذلك يشكل جزْءا أساسيا من حياتي، وأنني أعتمد عليه كمرفأ أهدأ فيه من عواصف الدنيا، قالت إنها تكره المدينة بسبب هذا المرفأ بالذات. وأنها ستنتهي إلى كراهيتي إذا استمر هذا الجو المقرف يهيمن على حياتي.. وأنها لم تقطع صلتها بأشياء كثيرة في هذه الحياة لتلقي بنفسها في خليط من فضلات ماض سحيق، وحاضر مفصول عن محيطه.. قلت إن مراكش مدينة فحسب.. ليست أسطورة، ولا أكذوبة.. إنها مجرد مكان يسمح لك باختيار مسارات متعددة لا يتحكم أحد في تدفقها! فقالت إنها لا تريد مدينة نحتاج في تعريفها لكل هذه الألاعيب اللغوية!

ثم حسمت الموضوع مؤكدة:

هل تعرف ما معنى أن تفرض علي مدينة أكرهها؟ إنك تدعوني إلى كراهيتك!

وقد وجدت في ملامحها وهي تقول ذلك توهجا لا أثر فيه للغضب ولا للعناد، بل فقط لحيرة قاتلة، كما في ملامح شخص وقع في متاهة. فضممتها بقوة وقلت:

بلا مراكش.. إلى الجحيم بالبهجة، سأذهب إليها وحيدا من حين لآخر فقط لأتفرج على انهياراتها الخفية.. معك حق! هذه مدينة لا تصلح لقصتنا، إنهـا عبارة عن زخرف كثيف، وطلاءات متراكبة، أما نحن، فنعيش حكاية بيضاء.. مثل حديقة يابانية لا نبات فيها ولا ألوان، مجرد قطع صخرية متراصة ترقص في عتماتها ملايين النبضات العذبة.

وقلت في نفسي هذه هي امرأة حياتي. عندما تستطيع امرأة أن تسقط مدينة من حياتك كورقة ميتة، فمعنى ذلك أنها بنت في دواخلك مدنا بلا حساب، وكدت أقول لها ذلك، لكن الخواء الذي يسكنني عاد من جديد ليقتل البذرة في مهدها.

صحبت إبراهيم الخياطي إلى زرهون لأساعده على التقاط معلومات تتعلق بملف زواج المثليين بقرية سيدي علي. وفي الطريق اتصلت بالفرسيوي، وعبرت له عن أسفي لما قُلته في المكالمة السابقة، كان هادئا في البداية ثم انفجر باكيا. أزعجني أن يكون متأثرا لهذا الحد بخصامنا، فكررت له أسفي وقلت إنني لم أعن حرفا واحدا مما قلت. لكنه استمر في الإجهاش، فاعتقدت أن نوبة اكتئاب جديدة قد داهمته من تلك التي أصبحت ملازمة له منذ أصيب بالعمى، فبدأت أمازحه مفتعلا خفة روح بلا معنى، إلى أن أوقفني بجملة جافة.

- لقد سرقوا فسيفساء الفندق.

قلت إنني قادم فوراً. وأنهيت المكالمة.

في بهو الفندق. كان الفرسيوي واقفاً وسط الخراب الذي خلفه الزمن واللصوص. فأحسست لأول مرة منذ سنوات بارتعاش داخلي، مزيج من إحساس بالظلم والغضب والمرارة والمحبة لهذا الرجل الذي يقاوم بقامته العمياء وحدها، عنادا تراجيديا يريد تقويضه كلما رفع الرأس.

قال الفرسيوي إنه يعرف اللص، لا يوجد أحد سواه، منذ جاء إلى المنطقة وهو لا يريد شيئا أكثر من الاستيلاء على ما بقي من الإرث الروماني؟

قال إبراهيم الخياطي:

ولكن هذا ليس إرثا رومانيا، إنه ملكية خاصة!

أمسكني الفرسيوي من ذراعي وقادني نحو بهو الاستقبال القديم.

- من يكون الرجل؟

- صديق قديم، إبراهيم، إنك تعرفه!

- لا أريد أن أتكلم مع شخص من شاكلة أحمد مجد وما جاوره.

- إنه ليس من شاكلته.

- طيب، يجب أن يفهم أن اللص يعرف أن في فسيفساء الفندق قطعا من العهد الروماني، أي خبير مبتدئ سيعرف كيف ينتقيها من ركام الفسيفساء الجديدة!

- ولكن لماذا تصر على أنه هو اللص؟!

- أعرف ذلك، لأنه صاحب المصلحة في تخريب الفندق والضغط علي لبيعه، لأنه هو الذي سرق القناديل من مخزن الموقع قبل سنتين.. هـو الذي سرق الخاتم الذهبي الذي عثر عليه الإنجليز قبل سنة!

- دعك من هذه الأشياء، يجب أن تهدأ وتفكر فيما يجب عمله دون تشنج، ثم إن الأجزاء المسروقة قليلة جدا قياسا لما تبقى!

تكلمنا مع إبراهيم فخلص إلى القول بضرورة تسجيل دعوى ضد مجهول، عوض المغامرة باتهام رجل سلطة بدون حجج دامغة. ثم أضاف إنه لا يرى ضرورة التصريح بأن الفسيفساء تحتوي على قطع رومانية حقيقية. لأن ذلك سيعني أن اللص الوحيد المعروف والمعترِف هو الفرسيوي! فاستقر رأينا جميعا على ذلك وذهبنا إلى وسط المدينة لتناول وجبة الكفتة المشوية التي اشتـهرت بها المدينة في الشرق والغرب، والتي يصر الفرسيوي على أن ميزتها الوحيدة هي الوسخ والذباب!

وأثناء ذلك التقيت ببعض المعارف القدامى لاستيضاحهم في موضوع الأعراس المثلية بسيدي علي. فلم ننل شيئا كثيرا. كانت لهم نفس النظرة المشوشة عما جرى. ونفس الانطباع حول الضجة الكبيرة التي رافقت الحدث، لكونها كانت ضجة يفوق حجمها بكثير ما عاشه الناس في عين المكان. وعندما ذهبنا إلى قرية سيدي علي، لم نجد أحدا حضر عرسا من هذه الأعراس ولا وصفا دقيقا للطقوس التي نظمت بالمناسبة. كان الناس حول الضريح يكررون أن الزوار يعيشون في أجوائهم الخاصة كما يحدث

في كل موسم. منهم من يتبع فرق حمادشة ويقاسمها جذبتها المعروفة. منهم من يتفرج على طقس الدم، عندما يعمد بعض المجاذيب إلى تكسير القلل الطينية على رؤوسهم الحليقة، أو إعمال الشواقير الحادة في تلك الرؤوس المترنحة على إيقاع الدقة الحمدوشية، منهم من يمرر قطعة خبز على الجروح الغائرة، منهم من يذبح معزة في لجة للا عيشة، أو يعلق قطعة ثوب على شجرتها «المقدسة»، ومنهم كذلك من يجلس الساعات الطوال ينتظر دوره أمام خلوة عرافة من عرافات الموسم. أما السكان فإنهم يلهجون بحمد الله، وبالترحم على الولي الصالح، جراء ما ينالهم من مداخيل استثنائية من الذبائح والأكرية، والحركة التجارية التي تبلغ أوجها في هذه القرية الجبلية المستكينة تحت ظلال الزيتون والخروب، لا أحد يسأل أحدا، لا أحد يحشر نفسه في ما لا يعنيه، ولا أحد يستطيع أن يتوقع بالضبط ماذا سيجري في البيوت المغلقة إذا أقبل الليل واستقرت الجذبة الحمدوشية في رتابتها الآسرة.. من يتزوج من؟ ومن يطأ من في هذه الغابة البهيمة؟ لا أحد يعرف، لا أحد يريد أن يعرف، إذا حدثت أشياء من هذا القبيل فإنها حدثت بمعرفة المخزن.. إذا كان المثليون يقبلون على الموسم فلا أحد يعرفهم أو ينكرهم.. إنهم هنا ذائبون في ضجيج الموسم، ربما الشرطة السرية وحدها تعرف ذلك، ربما بعض المتحذلقين ممن يخلطون بين فرويد وسيدي أحمد الدغوغي، ربما بعض الصحفيين الذي لا يهيج خيالهم سوى قصص المؤخرة. أما نحن فقد طوانا النسيان لمدة قرون، عشنا حروبا ومجاعات وأنجبنا علماء ودهاقنة وأولياء لم يهتم بنا أحد ولا نشر عنا خبر أو تعليق إلى أن ظهر وباء الفأر في قرية موساوة، ووباء الفأرة في سيدي علي.. ثم ما علينا، أين هم هؤلاء المثليون؟ هل فيهم شخص من سيدي علي أو موساوة أو لمغاصيين أو غيرها من

مداشر الجبل؟ طبعا لا أحد! لا نعرف وجها ولا إسما من هذا الصنف. إذا وُجدوا بالفعل فقد جاؤوا في ركاب التنمية المستدامة.. جاؤوا من أجل ازدهار المنطقة، وتشجيع السياحة الثقافية، جاؤوا مثلما جاءت الكاميرات والباحثون وتجار العجائب. هل حقا جاؤوا لأول مرة؟ كيف يعقل أن يرتجل طقس بهذه الدقة هكذا بين عشية وضحاها؟ وإذاً فموقع للا عيشة بنبعه المضمحل، وأوحاله وشجرته وذبائحه، وسومته الكرائية التي ارتفعت إلى اربعمائة ألف درهم في أسبوع الموسم، كل ذلك ارتجل هذه السنة أيضا، والعرافات والعرافون الذين يقصدهم أثرياء وأكابر من الدار البيضاء، والرباط وفاس ومكناس ومراكش وطنجة، ودول الخليج، كل ذلك ارتجل فجأة؟ يكذب عليك الكذاب يا سيدي، كل ما يمكن أن يخطر لك على بال يوجد في هذه القرية الوديعـة، وفي موسمها بالذات، وبمعرفة المخزن!

عندما نزلنا من القرية صوب مكناس تساءل إبراهيم الخياطي عما إذا لم تكن الضجة افتعلتها جهة ما لِغرض ما من أغراض المرحلة، فقلت إنني أعرف القرية منذ صباي. لم أسمع فيها أبدا عن هذا الطقس ولكن لا أحد يعرف كيف تنشأ الظواهر وتختفي في بلادنا. هناك كمياء غامضة تجعل أشياء متناقضة تخرج من نفس النبع. هذا موسم يقام احتفاء بالمولد النبوي، حول ضريح سيدي علي أحد أحفاد الهادي بنعيسى، وأحد كبار متصوفة المغرب، يصبح وجهة وملاذاً لطقوس المثليين والعرافين. في نفس الأمكنة وانطلاقاً من نفس المشاعر الروحية، تلتقي ابتهالات المتعبدين، بصخب الأجساد المضطربة.. كل ذلك يتم تحت هيمنة الطقس الشعبي المنوط بعائشة مولات الواد، تلك المرأة التي استقدمها سيدي أحمد الدغوغي تلميذ ومريد سيدي علي من الشرق ليعقد لشيخه عليها ويضع حدا لعزوبته

المزمنة.. فلم يكن له ذلك، لماذا لم يتزوج سيدي علي أبدا؟ ولماذا يتزوج المثليون حول ضريحه؟ لا أحد يعرف؟

قال إبراهيم الخياطي: وماذا سأقول للدفاع عن الشباب الذين وكلوني لمؤازرتهم؟

قلت:

-قل ما تقوله بعض الصحف، إنها حياتهم الجنسية وهم أحرار فيها!

فلم يعلق بشيء.

تأثرت لِما أصاب والدي في الفندق.. ثم تأثرت لما أصابه بصفة عامة، تذكرت شدته وقسوته واتقاد ذهنه، واستحضرت وهنه الحالي، وحيرته وهو يرى عالمه الخاص يهرب تحت قدميه قلت في نفسي ربما أستطيع في يوم ما أن أغفر له، وعند ذلك أرجو أن لا يكون السبب في ذلك سقوط قامته أرضا، ونهاية سطوته في نظرة خابية. كلنا ننهزم أمام الموت لكن لا شيء أفظع من الهزيمة أمام الحياة.

كانت والدتي تصارع والدي وتحبه، فكانت تبدو كما لو كانت تحاول وضع جمل هائج في قارورة. لم أرها تبكي ولا مرة واحدة. كان الصمت هو التعبير الوحيد الذي تتقنه، وتبرع في ابتكار أشكال مريعة منه تجعل الفرسيوي يخرج عن عقله ويرغي ويزبد ويتوعدها بقطع لسانها من الجذر ما دامت لاتستعمله في الكلام الذي فضل الله به الإنسان على البهيمة!

لا أحد منهما استطاع أن يدلني على الآخر، لم تفهمني ديوتيما من هو والدي، ولم يفهمني الفرسيوي من هي ديوتيما. كلاهما جعل الآخر هوة سوداء ابتلعته جملة وتفصيلا. وحين أرى اليوم والدي تائها بين آثار وليلي وآثار ذاكرته، أتصوره شاعرا خرج من أحشاء الأرض ليرصع هذه المدينة المنسية بفسيفساء دواخله، مهتما في كل لحظة بإبراز المآل التراجيدي

لكل محاولة شعرية في هذا العالم.

تحدثنا إبراهيم الخياطي وأنا ونحن في طريق العودة عن الفرسيوي، قلت سأعود إليه لأستأنف معه البحث عن باخوس، فقال إن التحقيق في سرقة أثرية لن يثير اهتمام أحد.. لقد تعود الناس على مشهد السرقة حتى أصبحت جزءًا من التقاليد المرعية. جرب أن تقول مثلا إن المغرب لم يعرف ولا سرقة واحدة منذ ثلاثة أشهر. سيخرج الناس في مظاهرات استنكارا لهذا التعثر الواضح في الحياة العامة.

قبل بضعة أسابيع ضبطت الشرطة الفرنسية لقى أثرية وجيولوجية من سبعة عشر ألف قطعة هربت من مالي وموريطانيا والمغرب، لم يشغل الخبر أزيد من موظف بسيط مشرف على التقاعد صرح لصحيفة محلية قائلا وأين كانت هذه القطع؟ تسعة عشر ألف قطعة؟ هاي هاي هاي، لا يوجد هذا العدد في أفريقيا كلها!

ولنفرض أنك تتبعت خطى باخوس حتى عثرت عليه في مجموعة من مجموعات الأثرياء المحليين أو الأجانب، ماذا سيحدث بعد ذلك؟.

قلت:

ـ لا شيء سيحدث، ربما استطعت فقط أن أثير الانتباه إلى أننا بهذه الوتيرة سنجد البلاد قريبا قد أصبحت برمتها في بلاد أخرى!

ثم تحدثنا عن توأميه كما يدعوهما، كلاهما تولع بموسيقى الشباب، والرّاب والهيب هوب والهارد روك، وأحدهما قضى بضعة أسابيع في السجن في القضية التي عرفت «بعبدة الشيطان».

أعربت له عن إعجابي الشديد بالشابين اللذين ينهيان معا دراستهما في الأقسام التحضيرية بتفوق باهر، ويملآن الدار البيضاء بمجموعتهما الموسيقية. وعندما اقتربنا من محطة الأداء بالدار البيضاء اكفهر وجه

إبراهيم الخياطي فجأة. وذكر لي بتأثر بالغ أن الشابين ربما أدركا حقيقة العلاقة التي كانت تربطه بوالدهما، وأنهما قد يضمران له بسبب ذلك نفورا مستحكما. قلت: ألا يمكن أن تفاتحهما في الأمر؟

- مستحيل، هل تتصور أنهما سيتفهمان ذلك؟!

- ولماذا لا يتفهمان؟. هل يتفهمان أن تكون أنت أنت، وأن تعمل من أجلهما كل الذي عملت؟!

هل يتفهمان أن يعيشا في الترف الذي يعيشان فيه، وأن يحققا ما يحققانه بفضلك. ولا يتفهمان أن تكون أنت كما أنت قبل أن يولدا وقبل أن يكون لهما رأي؟!

قلت هذا غاضبا، لأنني فجأة أدركت الظلم الذي تنطوي عليه علاقاتنا الاجتماعية المنافقة. كل واحد منا لا يتورع أن يلتهم كل ما يقع عليه بصره، دون التوقف عن استنكار الطريقة التي وضعت بها الأطباق في فمه.. كل واحد يعيش في مخه نظام سخرة يجعل الآخرين، كل الآخرين، خدما في طاعته!

وبسبب هذا الغضب الذي اعتراني قلت لإبراهيم:

- اسمع يجب أن تقول لهم الحقيقة، وتقول لهم إذا كان يسوؤكم أن تكونوا أبنائي بسبب هذه الحكاية القديمة فما عليكم إلا أن تخرجوا من بيتي ومن حياتي، سترى عندئذ أين سيتوجه نفورهم!

- ولكن إذا كانوا سيبقون معي من أجل ما أوفره لهم فقط، فتلك مأساة حقيقية!

- يجب إذن أن تضطرهم إلى التعبير عن الاعتزاز بك، وتشترط عليهم للاستمرار في كنفك أن يحبوك علانية، وبكل ما أوتوا من قوة!

ضحكنا لهذا التوتر المفاجئ، ثم تكلمنا كثيرا عن المطاعم الجديدة

في الدار البيضاء. وقال إبراهيم إن العيطة لم يعد لها مكان تقريبا في هذه المدينة. قلت في كل الأحوال لم أكن لأذهب معك إلى هذه الأمكنة حتى ولو كانت موجودة!. بصراحة لا أعرف ماذا تحب في هذا الصراخ القبيح! فلم يغلق إبراهيم فمه إلا ونحن بعد ساعات من اللف والدوران نجلس قبالة نادل متعب ونطلب منه قدحين باردين.

قلت:

ـ الآن انس الموضوع تماما. العيطة هي أرقى ما أنتجه هذا الشعب، هل يمكن الآن أن نتحدث عن شيء آخر؟

ابتسم إبراهيم وقال:

ـ إننا بلد متزمت بشكل لا مثيل له. انظر إلى الطريقة التي تتعامل بها مع الموسيقى والرقص والغناء. لم يوجد في بلادنا صنف من هذه الفنون لم يتعرض للاحتقار والاضطهاد منذ العيطة إلى الهيب هوب!

قلت: إنك تبالغ، كل التعبيرات الفنية كانت طبيعية وتلقائية حتى حل الطاعون الظلامي فحرم ما حرم وحلل ما حلل! ومع ذلك لم ينتصر على الرقص والغناء، بل استطاع فقط أن يفرض الحجاب والعمرة على الشيخات!

- 2 -

عادت ليلى من سفر سريع إلى مدريد، فذهبت لاستقبالها في مطار الدار البيضاء، واقترحت أن نحتفل بعودتها في بيت إبراهيم، بدت سعيدة بذلك وقالت أحب هذا الرجل! قلت: إما أن تحبيه أو نذهب إلى مراكش!

فافتعلت بملامحها امتعاضا مُداعبا، وقالت إنها تحبني وأنها لأول مرة يحدث لها هذا الشيء بشكل مختلف تماما. شكل هادئ مريح ومبهج! كأنه تنفس منساب، بلا إجهاد ولا تلاحق.. أخذت يدها الصغيرة في يدي وتنفست عميقا قبل أن أقول:

أنا أيضا!

قالت:

ـ أنت أيضا ماذا؟

قلت:

ـ أنا أيضا يحدث لي هذا الشيء بشكل مختلف تماما!

قضينا وقتا ممتعا مع إبراهيم وتوأميه، كانت فيه ليلى مشتعلة، تتحدث عن كل شيء بحماس كبير. وعندما جرى الحديث عن أغاني المجموعات الجديدة، نشب خلاف حاد بين ليلى وعصام ومهدي. لأن ليلى كانت تعتقد أن هذه الأغاني باستثناء نفَسها الساخر والمتمرد أحيانا، فهي في غاية الرداءة، كلماتها سوقية وبدون خيال، وموسيقاها بدائية وغير مكتملة.

أما عصام الذي سجن في قضية «عبدة الشيطان» فكان يعتبر هذه

الموسيقى والراب والهيب هوب والهاردروك، تعبيرا عن هوية جديدة، هوية المدن الحديثة التي ترزح تحت ثقل المتناقضات، وتنام على تهديد الخلايا النائمة، ومع ذلك تجد الوقت لابتكار أفراح مدهشة.

يقول مهدي نحن نحب البلاد رغم كل شيء.. لكن جيلكم لا يفهمنا ولا يفهم هذا الحب. ثم نحن لا نريد أن نكون فلاسفة أو سياسيين، نحن نريد فقط أن نغني ونرقص ونحب البلاد على طريقتنا.

عندما ذهبنا لغرفتنا داعبت ليلى بجذبة مضطربة على نغمة آش كاين. حنا مغاربة. هذا ريتم عيساوة شاخذة. راها نايضة.. نوووض!

فضحكت كثيرا. وقالت هذه ليست عيساوية، إنها صلاة بوذية.. تحرك قليلا.. هكذا. بكتفيك وقدميك.. لا تحرك ذراعيك.. اقفز بجسدك وليس بقدميك. لا. لا. دون أن تثني ركبتيك.. ودون أن تحرك رأسك.. دع رأسك متجها للسماء واتبعه بجسدك كما لو كنت ستخرج من سحابة.. الله عظيم الله عظيم.. هَا إيه إيه هكذا.. كيف قلت؟ راها نايضة ماذا؟ راها نايضة نوووض. يا الله راها نايضة راها نايضة نوووووضه. لماذا تنظر إلي هكذا؟ هكذا كيف؟ كأنك تريد أن تقفز في هاوية، أو كأنك قفزت؟

ياسين يقول إن شيئا مرعبا يحضر في مراكش.. من ياسين؟ ابني، هل نسيت؟ يوسف، أرجوك دع يدك حيث هي، لا أريد أن أعرف، لا تقل شيئا. هل تعتقدين أنه لا يزال على علاقة بهم؟. لا أعرف كيف تشتهي أن تفعل ذلك؟ يبدو أنه يلتقي بهم ويطلع على مشاريعهم، أنظر إلى قدميك. لم أر في حياتي قدمي رجل بهذه الروعة.. أريد أن تداعبني بأصابع قدميك.. دعني أريك كيف تفعل. هكذا. هل تحب ذلك؟ نعم، أحب فكرة استمتاعك بقدمي. بصراحة، هذا ترف لم يدر في خاطري أبدا. شيء يرفع المعنويات حقا، أن تحب امرأة قدميك.. شيء مدهش حقا. ماذا؟ أحس كما لو

أنني أفعل ذلك.. .! نعم نعم، هو كذلك فعلاً! وليس كما لو! لا تتوقف أرجوك! هل تتصورين أن ياسين يخدعني؟ أعرف أنك ستطلب مني قريبا شيئا تحبه. نعم أعرف أنا أيضا أعرف، وستفعلين حتى دون أن أطلب! هو كذلك! أعرف أن هذا يثيرك! يثيرك كثيرا! يثيرك أو لا يثيرك؟. يثيرني جداً! ألتذ كثيرا عندما تكون هكذا! تنظر إلي كأنك ستقفز من النافذة.. تريد أن أستدير؟ أنا أيضا أفضل ذلك. أفضل أن أسمع صوتك وأن أتخيل نظرتك وأنت تسقط من النافذة.. أحبك. أحبك.

ليلى!

مــه!

ليلى!

نعم

هل تعتقدين أن ياسين سيجرؤ على الإيقاع بي في قضية سيئة؟

هل أنت جدي؟

طبعا.. هل تعتقدين أنه أمر يحتمل الهزل؟.

قفزت ليلى من مكانها. حسبتك اختلقت قصة مجنونة فقط لتضخيم الإثارة.

سحبتها نحوي وقلت ضاحكا:

حسبتك لم تفهمي المناورة!

على مائدة الإفطار قالت لي ليلى قبل أن يصل الآخرون، حتى ولو لم نعش معا تحت سقف واحد. فلا بد أن نرتب طقسا رسمياً ولو فيما بيننا، لنعلن لأنفسنا أننا سنرتبط مع بعضنا إلى الأبد. قلت لا بد أن نفعل ذلك. وانصرفت إلى ترتيب الطقس في مخيلتي.

وصلوا تباعا، كان واضحا أن عصام ومهدي يحبان ليلى ويبتهجان

بوجودها، ولا يترددان في إحاطتها بعناية خاصة. وكان واضحا أن ليلى تمارس عليهما تأثيرا سحريا يسبغ عليهما نضجا سابقا لأوانه. طلب مهدي منا معا أن نحضر حفلا تقيمه مجموعتهما الموسيقية «أرتروز»، ابتسمت كما في كل مرة أسمع فيها الإسم، فغضب عصام مرة أخرى وقال تريد أن نسميها «براعم» أو «انسجام» مثلا؟ قلت لا أبدا «أرتروز» إسم ملائم جدا، البلد كلها تمشي معوجة بالأرتروز! الفن الوردي إذا اعتبرت الإسم مركبا مثل الفهد الوردي والحي الوردي وما إلى ذلك! طبعا سنأتي للحفل، أنا شخصيا لا أحب هذه الموسيقى، يجب أن نكون واضحين، ولكن أحب الروح التي تهيمن في مثل هذه الحفلات، وأحب خصوصا القناعة التامة التي تبدو في ملامح العازفين والمغنيين والراقصين.. قناعة شبه عقائدية بأنهم عرفوا طريقهم!

في القطار الذي قطعت فيه المسافة بين الدار البيضاء والرباط غائبا تقريبا، كنت أردد في نفسي إسم ليلى، معتقدا أنني أنادي عليها، وأنها قد تكون غادرت العربة قبل قليل، وقد تصل بين الفينة والأخرى لتُرجِعني من هذا الغياب. ولكنها لم تعد. وتابعت النداء عليها، متمتما من حين لآخر، كلميني أرجوك، كلميني باستمرار.. كان يخامرني شعور بأن كلماتها حتى ولو كانت بدون معنى ستجعلني على صلة مستمرة بالحياة. وأنها إذا توقفت فكأنها ستوقف تيار الكهرباء المغذي لوجودي، وعند ذلك سأنزل لا محالة إلى العتمة. كانت يدها تربت على خدي ولكن الصوت لم يكن صوتها، وسمعتها تقول إنني هنا. ثم سمعت صوتا غريبا يقول إنه يعود، ثم سمعت صوتا حادا يقول لا فائدة لقد فارق الحياة. وكأنما استفزني هذا التأكيد الأخرق، انتفضت فجأة وجلست قبالة امرأة مشدوهة وشخص حياني بحرارة، وقال لقد عاينت هذه الظاهرة في القطار السريع عدة

مرات، يجب أن لا تقلق من ذلك، ربما يكون هناك حقل مغناطيسي ينتج هذه النوبات لدى أشخاص معينين، من يدري، عندما يعمم القطار السريع كما أعلن عن ذلك سيغمى على نصف المغاربة! ولكن كلام الرجل لم يسعفني ووجدتني مرة أخرى فريسة اكتئاب ما بعد النوبة.

يحصل لي منذ فترة أن أتغلب على هذا الاكتئاب بالرجوع إلى العلبة كما تقول ليلى، والعلبة هي خزانة الأحاسيس والصور والكلمات التي نضع فيها تلقائيا كل ما يحصل لنا في لحظات الحب الكثيفة. في العلبة ألتقي بشخص يكاد يكون أنا كما أشتهي لنفسي. منطلقا، حقيقيا، مستمتعا، وأكثر من ذلك قادرا على إسعاد شخص آخر. ألتقي فيها بجسد يخرج عن مراقبتي يتمدد في ظل رغباته وألتقي فيها بامرأة لها قدرة خارقة على جعل الكلمات والأشياء متعادلة تماما في الكثافة والهشاشة والزمنية. ألتقي فيها بشهوتها العارمة ودقة التذاذها، وسرعة اشتعالها وانطفائها، وقدرتها على استباق كل شيء وأسْر كل ما يعبر المجال الحيوي لتوترنا، الرؤى والأحلام والاستيهامات المكبوتة والروائح والألوان والمفردات الطائشة والإشارات. وألتقي فيها أيضا بالحكايات. ذلك أن العلبة هي أصلا صندوق حكايات، ركام إمكانات غير محدودة لما حدث، ولِما لم يحدث، وربما يكون هذا التعدد، هو الذي يساعدني على الخروج من حالات الاكتئاب، إذ أن الفجوة الأولى هي ما أحتاجه بالضبط، أي ذلك الخيط الضوئي الذي يجعل الجدار فجأة قابلا للاختراق.

تحدثت مع ليلى وأنا أغادر القطار. قلت إنني سأعود للبحث عن باخوس، سألتني إذا كان ذلك سيريحني، قلت نعم سيجعلني على الأقل قريبا من الفرسيوي. لا أحب أن أراه منبوذا ومنسيا، فأعربت عن إعجابها بالفكـرة. قبل أن تقول بدون مقدمات، ولماذا لا تكتب قصة عن إبراهيم

الخياطي؟ قلت لا بد أن نتحدث عن ذلك في مناسبة أخرى!

خلال الأيام الموالية فكرت أن أضع خطاطة أولى لرواية محتملة عن إبراهيم، فوجدتني في نهاية الأمر أستعرض علامات بارزة في حياته الفعلية: مثليته، تفوقه المهني، انتحار عشيقه، زواجه بأرملة عشيقه، علاقته بأمه، بالتوأمين عصام ومهدي، انخراطه في الاهتمام مهنيا ونضاليا بقضايا شائكة مثل قضايا الموسيقيين الشباب، وقضايا زواج المثليين، تعرضه لمحاولة اغتيال، وعموما خروجه من غبار سنوات السبعينات بدون قناعات ولا مرارات، ثم ظهوره في نهاية القرن كتعبير بليغ عن مقاومة مستعصية على التصنيف. عندما انتهيت من وضع هذه الخطاطة الأولى، أدركت أنها حياة إبراهيم الخياطي لا أقل ولا اكثر، إنها ليست رواية، أو إذا شئنا التدقيق إنها الرواية المكتوبة في جبين إبراهيم منذ الأزل. ولا تحتاج إلى أحد لكتابتها من جديد. إذا شئت أن أكتب رواية عن إبراهيم، فيتحتم علي أن أبتكر له حياة أخرى، حياة تكون قريبة من السيناريو الواقعي لشخص بلا معجزات. وهذا عمل ضخم، يتطلب طاقة لا أتوفر عليها وينطوي على مغامرة غير مضمونة النتائج!

قلت للفرسيوي، لماذا لا تقول لي ببساطة من سرق باخوس.

اعتدل في جلسته وأجابني: اسمع يا يوسف، يا ولد ديوتيما، لشهرين متتابعين وهذا العبد الضعيف يُعلق من رجليه، ويجلد آناء الليل وأطراف النهار، هل تظن أنني لو كنت أعرف، كنت سأستمر في الاستمتاع بالعصا لله ولوجه الله؟

-ولكنك تقول أشياء كثيرة منذ ذلك الوقت.

-أنا أقول ما يحلو لي!

-ومن ذلك أنك دفنت باخوس في باحة مسجد بإحدى قرى الجبل!

-وارد جدا! احتمال من بين احتمالات أخرى.

-أنا أعرف أن لك حسابات كثيرة تريد أن تصفيها. ربما أردت أن تنزل عقابا بهذه المنطقة بإتلاف أثر من آثارها الخالدة.

-ليس أثرا ولا هم يحزنون.. إنه مجرد تمثال عادي لإله الخمر، في وضع مراهق أسمر.. حتى من الناحية الفنية لا يعتبر هذا النموذج إنجازا رائعا، هناك في متحف البرادو بمدريد، وفي متحف فلورنسا بإيطاليا نماذج رائعة من مرمر أبيض أحدها، لا أتذكره الآن ذهب لحد نحت ظل العنقود على كتف باخوس، تصور أين ذلك من الهيأة الكابية لمراهق الغرانيت واقفا - زغمًا - كأنه خرج للتو من فخد جوبتير، كل أرض ترث على قدر ما وهبها الله من ذكاء وطيبة. كل هذا الضجيج، والبعض من خطله يبكي على الذاكرة المسروقة! انهض، يا لها من ترهات!

-طيب، طيب، لا داعي للتوتر، أنا قلت ربما، ربما يكون هذا احتمالا ضمن احتمالات أخرى! بغض النظر عن قيمة باخوس وليلى، فهو قد اختفى في ظروف غامضة، هل بإمكانك أن تساعدني على العثور على مسرب للبحث عنه؟

-ليست لدي أي فكرة!

فتحت حقيبتي، وأخرجت منها ديوانا شعريا صدر قبل بضعة أسابيع في فرانكفورت بعنوان «مراثي».

قلت للفرسيوي:

-تعرف؟ لقد صدر ديوان شعري مثير في فرنكفورت بعنوان «مراثي» لشاعر مغمور يدعى هانس رودر..

أشاح بوجهه يمينا كما يفعل عندما يرهف السمع.

انتظرت أن يقول شيئا لكنه لم يفتح فمه. ظل جامد الملامح منصتا

ومضطربا بعض الشيء قبل أن يسألني:

-هل يمكن أن ألمسه؟!

ناولته الكتاب، فتحسسه طويلا بأصابعه الدقيقة الوسخة، ثم فتحه ووضع وجهه بين صفحاته مستنشقا عبير الورق والحروف والمطبعة.

-لا شك أنه كتاب جيد!

-إنه حدث الموسم الثقافي في ألمانيا.

-ألمانيا أمة شعرية عظيمة..

-ليس هذا هو أكثر ما عرفت به!

-لا يهم.. هي تعرف نفسها.. والشعر يعرف نفسه..

-يقال إنك على علاقة بهذا الكتاب!

ضحك الفرسيوي بعصبية.

-هل يوجد شيء في هذا العالم لست على علاقة به؟!

-يقال إنه الكتاب الشعري الذي دفنه هانس، جدّ ديوتيما في أطلال وليلي!

-فكرة طيبة، لم لا؟ ولو أنه أمر سيهتز له رفات ديوتيما في قبرها!

-تقول مقدمة الكتاب، إن دار النشر توصلت بالكتاب عن طريق مرسل مجهول، وأن الأشعار هي لجندي ألماني أسير عاش في إفريقيا وشارك في حفريات موقع روماني. ألا تعتقد أن هناك أكثر من عنصر يدل على أنك صاحب الاكتشاف وصاحب المراسلة؟!

-هل توجد في الكتاب مرثيتان إحداهما لجوبا الثاني، والثانية لديوتيما؟

- نعم، نعم. قلت بحماس، والمقدمة تقول إنهما أروع قصائد المجموعة!

-إذاً فقد نكِتُ هانس رودر بهاتين القصيدتين!

-ولكن لماذا لم تنشرهما باسمك؟

-لست مهتما لذلك، هو دفن قصائده في وليلي، وأنا دفنت قصائدي في قصائده، لا أحد سيعرف أبدا ماذا يوجد تحت الأنقاض، وماذا يغلي فوقها؟ ثم إنني فعلت ذلك من أجل ديوتيما، كتحية أخيرة لروحها القلقة.

فتحت الكتاب في الصفحة التي يبدأ فيها رثاء ديوتيما.. قرأت سطرين فأوقفني الفرسيوي بإشارة من يده وهو ينهض، كان وجهه قد أينع بهذه الحكاية، وبدا فخورا بنفسه، وسعيدا إلى حدّ مّا. اتجه نحو خزنته في أقصى الغرفة واستخرج منها ظرفا كبيرا قدمه لي قائلا:

- هنا يوجد مخطوط جدك الشعري، لم أعثر عليه إلا عندما فقدت بصري. في إحدى الأماسي وقعت في اكتئاب حاد، وجرني قنوط العمى إلى التيه بين الخرائب، إلى أن وجدتني أنفض الغبار عن كومة من الورق وقبعة مهترئة، كان ذلك في غرفة خربة، غير بعيد عن منزل «الفتى الجميل» قريباً من ذكر منحوت في وضع أفقي كناية عن الخصب الذي لم يعمر طويلا في هذه الابهاء، وقد دسست في المخطوط قصيدتين لا علاقة لهما بالكثافة الوحشية لأشعار هانس رودر، وضعتهما في رثاء شخصين أساسيين في حياتي، لم يعيشا في عصر واحد، ولكنهما سكنا معا جوانحي لمدة طويلة وفي نفس العصر.

- وباخوس؟!

إسمع، عندما تبدأ الحفريات، هناك احتمال واحد أن تجد ما تبحث عنه، واحتمالات لا نهائية أن تجد ما لم يخطر لك على بال. أنت وجدت المخطوط، دعك من المراهق التافه!

- 3 -

وجدت رسالة مكتوبة على هاتفي المحمول من فاطمة تقول إنها سافرت مع عشيرها إلى هافانا، وأنها ستفعل ذلك من أجلنا معا. وفي اليوم الموالي راودتني فكرة مجنونة أن أسافر إلى هافانا وألحت علي طوال اليوم مختلطة بخوف غامض من شيء ما قد يحدث لفاطمة. وفي المساء كنت منهكا وحزينا فتلفنت لها غير منتبه لفرق الساعات، فكان صوتها القادم من سبات عميق يحاول تهدئتي، بينما رحت أهذي مؤكدا لها أن هافانا لا تصلح أن تكون حلما، إنها مجرد سجن يشبه حانة الفرسيوي تتجاور فيها أوهام من عصور مختلفة. قالت فاطمة.. ماذا جرى لك؟ هافانا مدينة حقيقيـة.. بها متسكعون وحالمون وسكارى وبشر يكدون من أجل لقمة العيش ورقصة عابرة!

ثم، اسمع! هذه مدينة لها ليل.. ليس لها سوى الليل، ليل سريع، كثيف ومدهش. قلت لها عن الكتاب الشعري، فقالت إنني محظوظ جدا أن يكون لي أب بهذه الكثافة. قلت إنني أشعر بضباب كثيف يلفني، فتثاءبت ورجتني أن أقول لها ماذا ستفعل بالرجل الذي ينام في سريرها بعد هذه المكالمة. قلت نصف مازح:

ـ اخنقيه بوسادة كبيرة، وقبلتها قبل أن أطفئ الضوء!

مرت بضع دقائق فيما أتصور، قبل أن أحلم أنني أنزل لاَكَايي، مغادرا فندق ناسيونال ثم أعبر 23، لأمُرَّ أمام المَرَاكَا، ثم أعود أدراجي بسرعة إلى

الناسيونال. حيث تركت فاطمة قبل قليل، وقد قلت في نفسي إذا وصل أرسينيو كوي قبلي، فإنه سيضاجعها لا محالة. وهذا ما يفسر هجومي المباغت عليها، عندما وجدتها في البهو تتصفح برنامج حفلات الليل. سحبتها بقوة إلى ركن في الحديقة حيث تهيمن حرارة ورطوبة شديدتان وأخذت في التهامها بشراسة كانت ترد عليها بمقاومة فاترة تتخللها من حين لآخر اندفاعات وحشية سريعة. وخامرني شعور أنني سأنزل قبل أن تبلغ شهوتها فخفضت إيقاعي قليلا، وعندما احتجت لاسترجاعه أفلت مني، فصرت أدنو من الإنزال ولا أصل مرات متكررة حتى غرقت في عرقي وأفقت فزعا وسط حرارة لا تطاق، ثم حلمت أنني مع فاطمة وسلفسترو كوي نسهر في السّكاي كلوب، ونستمع إلى استريلا رودريكيز. ثم بعد ذلك غادرت المكان متسللا، ووقفت في نهاية الشارع تحت المصباح المضبب أنصت إلى «بوستروفيدون» يتحدث عن نساء كوبا ويردد أغنية قديمة تقول:

«الفتيات اللواتي بلا سحر
بدون مشية متخايلة
وبدون روعة الملكات
لسن كوبيات»[1].

أمشي في شارع صاخب أتبع شخصا يخطو بسرعة، سيتبين لي فيما بعد أنه ياسين. ماذا تفعل هنا أيها الطالبان؟. هل تبحث مثلي عن وجه غيفارا لتدسه في حقيبة قديمة. أجري خلف ياسين بقوة تُسمعني تلاحق أنفاسي، ثم ألمح غيفارا يدفع عربة خضار وسط الطريق، أقف لأقول له، ربما يكون خطيرا أن تدفع عربتك بين السيارات المجنونة.. لا بأس، ياسين كذلك

---

(١) من أجواء رواية الكاتب الكوبي: غييرمو كابريرا إنفانتي: ثلاثة نمور حزينة

يعتقد أن فاطمة في خطر. أنها لسبب ما ستجد نفسها في المستشفى أو في مستودع الأموات وليس في بار.. الناسيونال..

يوقظني هاتف ليلي: أين أنت؟

- في هافانا تحديدا!

- هل أنت بخير؟

- تقريبا.. لماذا لا نهرب إلى كوبا؟

- هل جننت؟ حتى كاتبنا الكوبي المفضل يوجد في لندن!

- صحيح! لنهرب إذاً إلى لندن!

مرت ساعات ثقيلة دون أن أستطيع مغادرة فراشي. كنت أفكر في ليلى وهافانا وياسين ومراكش وإبراهيم الخياطي، وأفكر في معاناة الفرسيوي وفي معاناة بهية، في أحمد مجد، في الدار الكبيرة، في مغامرات جنسية مبهمة، وفي مسبح كبير أغطس فيه أتنفس عميقا تحت الماء. كنت أفكر في كل ذلك دفعة واحدة، لا أستطيع الوقوف عند تفصيل واحد. وعندما أفعل تهجم علي تفاصيل مختلفة من مواضيع متناقضة، فيجعلني ذلك أبذل مجهودا خارقا لإيجاد سبيل واضح بين هذه الأدغال. وعندما انتشلت نفسي أخيرا من هذا المستنقع، خارت قواي فلم أجد شيئا أفضل من الاستلقاء على الأريكة، والاستغراق مرة أخرى في نوم مضطرب.

في نهاية الأسبوع ذهبت أنا وليلى إلى الدار البيضاء. حضرنا حفلة عصام ومهدي. غرقنا في صخب «الأرتروز» وضحكنا من الكلمات البريئة التي يحاول شبان المجموعة أن يقولوا بها غضبا لا أثر فيه لأي جدية، وقد لاحظت ليلى أن أغلب الأغاني تتضمن نفحة دينية بسبب العبارات التقليدية الموجودة أصلا في أغاني گناوة وعيساوة والروايس، فقلت لها إن أغلبهم حوكم في قضية «عبدة الشيطان» بسبب التيشورت الذي يلبسه

وليس بسبب الأغاني التي لهج بها، وعندما وصل الصخب أوجه غادرنا قاعة «الفول». وتسكعنا قليلا في ليل البيضاء قبل أن نضع أنفسنا بين أيدي إبراهيم الخياطي متأكدين أنه سيفعل بنا كل خير.

وجدنا أحمد مجد في «البالكون» فنشبت بينه وبين ليلى ملاسنة حادة، حول مراكش، بدأت بعتاب خفيف حول مقاطعتها وانتهت بصرخة قوية من ليلى.

- تريد الحقيقة، أنا أكره مراكش، وأكره بيتك السخيف الذي تسميه الأندلس، أخرأ على كل ذلك الزخرف الفج الذي تباهي به الأجانب.. وإذا شئت فإنني أكرهك أنت أيضا.. وأنت أكثر من كل ما ذكرت!

ولا أعرف كيف جرى التلميح إلى سنوات المعتقل، فما هي إلا ثوان حتى انفجرت ليلى ساخرة ممن يريد الزبدة وفلوسها.. لا أحد له الحق في أن يتسَلْطَنَ علينا بسنوات سجنه. خصوصا إذا قبض الثمن. ألم تقولوا إنكم تصالحتم؟! أنا لا أعرف مع من. ولكن من كان يسكر بفلوس المصالحة في «البلكون» فعليه أن يضع لسانه في جيبه.. أنا لست مدينة لأي معتوه بأي شيء! إذا كنت لا تستطيع أن تكون فخورا بالثمن الذي أديته، فمعنى ذلك أنك أقرضت النظام بعض سنوات من عمرك، ثم استرجعتها بمعدل فائدة لا بأس به!

سحبت ليلى من خصرها وقلت: يجب أن نغادر فورا! فلم تعاند، وفي الطريق قلت لها إنني لا أفهم عدوانيتها مع أحمد مجد. قالت: وأنا لا أفهم أن يكون لك أصدقاء بهذه الرداءة.. ثم أضافت، أكره أصدقاءك. قلت ألم تقولي إنك تحبين إبراهيم الخياطي. أتراجع عن ذلك. أكرهكم جميعا. أخذت يدها فلم تمانع. وبعد فترة صمت قالت باكية: لقد كنت فظيعة مع أحمد مجد. يجب أن أعتذر له. وحتى لا نغوص في الاكتئاب، سعيت

إلى بناء سهرة أخرى على أنقاض سهرة البالكون الفاشلة في بيت إبراهيم حيث برع أحمد مجد في استغلال اعتذار ليلى وتحويله إلى اعتراف جماعي وعلني بفضائله التي لا تحصى. وأثناء هذه السهرة استمعت لأول مرة بنوع من الاستغراق والذهول إلى ثرثرة الرجال والنساء الذين جاؤوا في موكب إبراهيم. لم يكن يبدو عليهم أي تصنع أو حِرَفية مبالغ فيها، كتلك التي نعهدها في زبناء الصالونات البيضاوية.. هنا يمارس جيل جديد من الأطر والمقاولين وأصحاب المهن الحرة حياة في غاية الخفة، يتحدثون عن العمليات التجارية الكبرى، وعن دخول بعض المقاولات إلى البورصة، وعن استثمارات الأجانب، وعن عقار الدار البيضاء وفنادقها الجديدة والمطاعم التي فتحت، والمراقص التي نجحت.. كل ذلك بدون أية مرارة أو استهجان أو تأسف مفتعل. بل بنوع من الرضى عن المدينة التي أصبحت قادرة على بذل مباهج متجددة. وبدا لي أثناء ذلك أن النجاح والثروة أصبحا كائنين لطيفين، كأن نسيما عذبا دفع بالغول الذي كانا يمثلانه إلى ركن قصي.

ثم راق الجو وعمت الخفة كل شيء في السهرة، فاندلقت الألسنة بالنكت المالحة، والقصص الجنسية الفاضحة التي تحبل بها المدينة، وعند ذلك توترت ليلى ورجتني أن ننسحب من هذا الجو السوقي.. صحبتها إلى غرفتنا ببيت إبراهيم وهناك قالت إنها لا تفهم كيف يكون لي أصدقاء بهذه السوقية. قلت إنهم أصدقاء إبراهيم.. قالت مع ذلك.. أنت أيضا كنت تضحك لنكتهم حاولت مداعبتها فانكمشت. عند ذلك قبلتها ورجعت إلى السهرة السوقية!.

في هذه الليلة حدث شيء مروع وضع حدا للخفة التي سادت منذ بداية المساء. فقد هتف شخص إلى إبراهيم وأخبره أن انفجارا كبيرا حدث

في ملهى «الخيل والبارود» بمنطقة عين الذئاب، وأن سيارات الإسعاف والشرطة تشتغل منذ أزيد من ساعة وسط اضطراب مهول، مما يدل على أن الضحايا بأعداد كبيرة.

ذهبنا إلى الشاطئ، وقبل أن نصل إلى مكان الحادث وجدنا حواجز أمنية حالت دون تقدمنا. حاول إبراهيم أن يقنع رجال الأمن بضرورة مرورنا دون فائدة. فوقفنا هناك وسط جموع متوترة صاخبة، اتصلنا مرارا بعصام ومهدي فلم نعثر سوى على صوت علبتهما الصوتية. قلت لا شيء يدل على أنهما كانا في الملهى. قال ولا شيء يدل على أنهما لم يكونا هناك. تعالت أصوات هستيرية لنساء وشباب حاولوا اختراق الحاجز. ومرت سيارات إسعاف متتالية، وكلما مرت إحداهما تبعها عويل النساء والرجال. جاء أحدهم من الجهة الأخرى وارتمى على الحاجز وهو يقول إنهم ضحايا بالمئات وأن الأشلاء تناثرت على مساحة تصل إلى البحر.. ارتفع العويل مرة أخرى قبل أن يؤكد رجل أمن، إنه انفجار لقنينات غاز، لم يسفر سوى عن بعض الجرحى. قالت امرأة من خلال عويلها، الله يبشرك بالخير! لكن شخصا آخر ارتمى على الحاجز مرة أخرى وقال إنهما شخصان انفجرا بجسديهما وسط الملهى. هل هناك قتلى؟ هل هناك قتلى؟ أجاب الشخص، إسألي هل هناك أحياء؟. .

قلت لإبراهيم من الأفضل أن نعود إلى البيت، هناك يمكن أن نحصل على أخبار أقل عشوائية. لكن إبراهيم كان من رأيه أن نمر على مستشفى ابن رشد، لنتأكد أن عصام ومهدي، ليسا ضمن الضحايا. ذهبنا هناك، فلم نجد أثرا للانفجار، وسألنا فقيل لنا إنهم في المستشفى لم يتلقوا إشعارا بتوجيه ضحايا بأعداد كبيرة إلى المستعجلات. عند ذلك توجهنا إلى البيت منكسرين. وعندما كنا نعبر الحديقة تناهت إلى أسماعنا أصوات قيثارة

مضطربة. فما إن فتحنا الباب حتى هوت علينا أصوات عصام ومهدي ومجموعتهما. كانوا يحتلون الصالون وهو ما يزال يرزح تحت أثقال السهرة السابقة.. .صرخ إبراهيم:

- أوقفوا هذا الماخور!

وعندما عم الصمت، انهار إبراهيم على أقرب أريكة وراح يرتعش بكل جسده بينما توجهتُ نحو المجموعة محاولا تفسير ما يجري. لقد حدث انفجار في «الخيل والبارود» قال مهدي نعرف كنا هناك.. يقال إن شاحنة غاز هي التي انفجرت في موقف السيارات قريبا من الشاطئ.

قلت والملهى؟

قال عصام، أفرغ عن آخره مخافة أن يكون هناك انفجار آخر في البرنامج.

- إذاً لم يكن هناك قتلى؟!

- لا نعرف، ربما يكون هناك ضحايا، يجب معرفة ذلك من نشرات الأخبار.

قلت: وبالنسبة إليكم.. لا يهم ما حدث.. أن يكون هناك قتلى أو جرحى أو مروعون من بينهم إبراهيم الذي كاد يفقد عقله.. كل هذا مجرد تفاصيل؟!

قال مهدي:

- إنها تفاصيل وليست مجرد تفاصيل!

ضحك الآخرون، وتدخل أحدهم بنوع من الجدية المفتعلة:

- كل ما في الأمر أن الانفجار الموجود في مخك لم يحدث!

تملكتني رغبة في أن أصفع الشاب، فسيطرت عليها بصعوبة ثم توجهت نحو إبراهيم فانتشلته من الأريكة وقدته إلى غرفته وأنا أصرخ

دون أن أستدير:

- لا نحب أن نسمع حسكم.

سمعت عصام يقول بعربية متكلفة

- «تصبحون على خير»..

وسمعت المجموعة ترد عليه بضحكة صاخبة.

ثم ها هو الصباح الذي أكرهه. ليلى بمزاج فاسد. الشباب نائمون على أرائك الصالون.. إبراهيم مضى إلى مكتبه.. الخادمة لم تصل بعد. المطبخ مقلوب رأسا على عقب. والقهوة بعيدة المنال. ها هي الإمكانية الوحيدة المتاحة: أن تنتعل حذاءك وتمضي. وأثناء ذلك يهتف أحمد مجد، ويسأل عن انفجار البارحة. تقول له كان فقط حادثة غاز! يردّ شبه مستغرب:

- إذاً لم يحدث شيء لعصام ومهدي..

- لا.. لم يحدث شيء.. ولو حدث لكنا الآن في موكب الجنازة، وأنت في فراشك، تنتظر أخبارا مفصلة عن الحادث.

تخرج من عطن البيت المغلق فيستقبلك الهواء البحري رطبا ندِيًا، وتمسح الأشجار وجهك النائم.. أحتاج ليوم كامل كي أعبر هذا الصباح..

بكت ليلى وهي تمشي بخطى سريعة. قالت إنها خائفة. وقالت إنها تريد أن ترى ابنتها فورًا. ذهبنا إلى محطة القطار، كان علينا أن ننتظر نصف ساعة فاقترحت أن نشرب قهوة، أجابت محتدة:

- لا أريد قهوة ولا أي شيء! أريد أن أرى ابنتي! أنا خجلة من نفسي.. كيف كنت سأقول لها لو هلكت في الانفجار. ماذا كانت ستفعل.. هي التي لا أحد لها سواي؟

قلت: ولكنك كنت نائمة في فراش لم ينفجر فيه شيء!

ـ لا، كنت في مطعم البالكون وفي الشارع وفي تلك السهرة السخيفة!

شربت قهوتي بسرعة وقرأت في الصحف عناوين بارزة عن اعتقال خلايا نائمة تنتمي لتنظيم القاعدة. كانت هذه هي المرة الثانية التي يحدث فيها ذلك خلال ستة أشهر. قرأت الأسماء بِتَأَنٍ كأنني أحاول التعرف على ملامح أصحابها. كان يخالجني شعور مبهم أنني سأعرف أحدهم. دائما هناك شعور مبهم بالتعرف على واحد منا يوجد في اللائحة.. أقصد واحدا من هذا الكم الملتبس الذي لا نتوقع إطلاقا أن يكون في تنظيم إرهابي. ذلك الشخص الذي يأكل معنا ويشرب ويضحك ويرانا أشلاء متطايرة وهو يحدق في وجوهنا.

صعدنا إلى القطار وجلسنا صامتين جنبا إلى جنب. وعندما دخلنا محطة أگدال أمسكت يدي وقالت وهي تضغط عليها:

- هل تكرهني؟

قلت:

ـ ليس بعد!

خلال أسبوع كامل لم أر ليلى، كنا نتكلم في الهاتف لساعات، نتكلم في أي شيء، في أخبار ابنتها، في خصوماتها الصغيرة، في شؤون بيتها، في طرائف زوجها السابق، في أشيائنا المحدودة التي تكفي دقيقة واحدة للسيطرة عليها، ولكنها تغير الموضوع بسرعة إذا جرى الحديث عن لقائنا المحتمل، كأن انفجار تلك الليلة قد وضع ظلالا سميكة على علاقتنا.

ثم حدث أن اتصلت بي فاطمة بعد عودتها من هافانا، كان واضحا أنها مضطربة بعض الشيء فخمنت أنها لم تعد على وفاق تام مع عشيرها الكوسوفي، لكنني لم أسألها. تحدثنا عن أحمد مجد وبهية وابنتهما وعن إبراهيم الخياطي. كانت تضع أسئلة غير عادية عن أفراد الشلة وترغب في

أن تعرف إلى أي حد يوجد كل واحد منا في علاقة طيبة مع نفسه. قلت لها ممازحا:

- إن الشخص الوحيد الذي أعرفه على علاقة طيبة مع نفسه هو أنت!

فردت بنبرة حاسمة: هيهات!

وفي الأسبوع الموالي فاجأتني ذات صباح واقفة في باب مكتبي بالجريدة، تحيط بها ضجة الزملاء الذين استقبلوها بفرح غامر. ذهبنا لمطعم الشاطئ حيث طلبت قبل أن نجلس وجبة سرطان البحر، وشرائح السلمون في صلصة الخيار وقالت ضاحكة:

- أعرف أنك لن تشم شيئا من هذه المجزرة!

قلت: بل سأشم أدق الروائح وأوهنها شذى!

تطلعت نحوي مندهشة فقلت لها إن معجزة حدثت جعلتني أسترجع حاسة الشم كأقوى ما تكون.

ابتسمت بحنو وسألتني بعد فترة صمت..

- ما هي أول وجبة فاجأك عبيرها؟

قلت منكسرا: قمصان ياسين.. سنوات بعد مقتله!

تأملت وجهها ذا الملامح الأطلسية الدقيقة، كانت عيناها قد اتسعتا قليلا وأصبح سوادهما ظِلاً شفيفا يحيط بوجهها كله. وكانت شفتاها نافرتين كأنهما امتلأتا في رد فعل على بروز وجنتيها. قلت إن نحافتها جميلة جدا، فابتسمت دون أن توقف معالجتها الوحشية لسرطان البحر، وعندما غطست أصابعها الطويلة في صحن الماء والليمون، هجم علي كل حزن الدنيا ولم يعد يهمني سوى إنهاء هذه الجلسة في أسرع وقت ممكن.

نحن الآن نغادر شارع الجزائر، بعد أن مررنا بالاوداية وتحدثنا عن نفقها

المنتظر، وبعد أن حاذينا سور الملاح وضفة أبي رقراق، ومررنا بسوق الحبوب الذي تحول إلى ورش تزينه واجهات ضخمة تعلن عن المقاولة الإماراتية التي تشيد شيئا جميلا تتخلله صفحات ماء زرقاء ووجوه متوردة لأطفال سعداء. سألتني فاطمة عن البناية التي تتعالى مجللة بقباب ثخينة قبالة مسجد السنة من جهة، وقبالة وكالة الأنبـاء التي تشتغل لحسابهـا.. قلت إنه متحف الفنون المعاصرة.. أبدت انبهارها بما حدث للرباط دفعة واحدة، فقلت لا تتعجلي، يجب أن تزوري فيلا الفنون، قبالة المسجد من جهة أخرى ويجب أن نتنتظري تحول إقامة ليوطي إلى محراب آخر للفن في العاصمة، لتري كيف تخرج «المدينة الممنوعة» من جحرها. سألتني مازحة:

- ولماذا يحيطون هذا المسجد المسكين بكل هذه الفضاءات الشيطانية؟

قلت: لا تبالغي، لا يوجد شيطان واحد في العاصمة!

نزلت فاطمة قبالة البرلمان، قالت إنها تريد أن تمشي في المدينة. وتابعت طريقي خلف البناية الكلونيالية، متسائلا عما إذا لم يكن فظا وسوقيا هذا البناء الموازي الذي أريد به توسيع البرلمان وإعادة إنتاج نفس معمار المحكمة القديمة. لماذا هذا الاصرارعلى تناسق وهمي، بينما التنافر هو السبيل الأفضل لإنتاج جمال مفاجئ. وصلت إلى شقتي منهكا فشربت حبة دوليبران واستسلمت لنوم عميق.

فاطمة تقول إنها تجد المغاربة بعد عودتها من الغربة متفائلين ومقبلين على الحياة.. قلت:

- بالله عليك أين تجدين هذا الصنف الرائع؟!

أكدت، كل من قابلتهم هم كذلك. في الحفلات والمناسبات العائلية،

في الشارع، بل وحتى في القطار!

عندما يزج بي في أحاديث مماثلة، أُصاب بالاكتئاب، أقول لنفسي هناك هوة كبيرة تفصلني عن الحقائق المحيطة بي. وأنني لن أفهم أبدا ما يحدث على وجه الدقة، أرى من مرصدي أن الناس يعيشون مخطوفين بالأشياء الجديدة التي تحدث حولهم، متحمسين للاندماج في وتيرتها المتسارعة. وأراهم قد فقدوا كل إمكانية للإفلات من هذا الفخ، ولا أستطيع أن أخمن ماذا سيحدث لهم عندما يستفيقون. ولكني أرى في الصورة التي تبعثها مراصد أخرى، بلدا يمشي دون أن يلتفت حتى للذين يسقطون من عرباته المفتوحة.

تحدثت مع ليلى في الموضوع فقالت بشكل قاطع:

ـ أنت على حق. ليس لك أدنى سبب لتكون متفائلا، دعك من القشور المذهبة. إذا ألححت قليلا ستجد طبقات من الصدأ والخواء.

قلت:

ـ فاطمة رجعت من مدريد

لم يبد أنها كانت سعيدة بذلك أو حتى مكترثة.

قالت: لا أريد أية علاقة مع هذه السيدة على الإطلاق!

- ولكن لابدّ أن نذهب معها إلى مراكش..

- يجب أن تنسى ذلك تماما..

وعندما ثقل صمتي أضافت:

-إذا كان الأمر يضايقك فما عليك إلا أن تلغي برنامج مراكش.

- مستحيل!

- طبعا مستحيل.. أعرف أنك تفضل التخلص مني على التنازل عن مراكش.

حاولت لمرات متتالية بعد ذلك أن أقنعها بأن اهتمامي بفاطمة، ومرافقتي لهـا في رحلة مراكش، شيء أساسي، ولو أنه لا يعني على الإطلاق شيئا يحدث بين رجل وامرأة.. إنها ليست امرأة بالمعنى الجنسي أو الغرامي للكلمة، إنها أكثر من ذلك ظاهرة جغرافية في حياتي.

حاولت أن أنتشل ليلى من دوامة عداء مستحكم تجاه فاطمة. لم أنجح في ذلك. كانت قد أخذتها زوبعة من الغيرة الهوجاء جعلتها تقرر بطريقة لا تقبل المراجعة أن علي أن أختار بين ذهابي مع فاطمة، وبين استمرار علاقتنا. وقد غاظني ذلك كثيرا فقلت محتدا:

ـ أختار الذهاب مع فاطمة!

في القطار الذي أقلنا إلى مراكش، تحدثت فاطمة بشكل مقتضب عن عشيرها الكوسوفي. قالت إن شيئا منحطا نبع منه فجأة في هافانا، شيئا جعلني أدرك بارتياع أنه لا يتوفر على ذرة واحدة من النخوة!

قلت: ثم ماذا؟

قالت: عند عودتنا إلى مدريد وصلنا إلى المطار في السادسة صباحا، كان أول شيء فعلته بتصميم، هو وضع حقيبتي في العـربة وتوجـهي نحو باب المغادرة دون انتظار. وعندما انطلقت بي سيارة الأجرة، التفت فقط لأتأكد أنه لم ينس شيئا من أغراضه. وبعد أقل من سـاعة كنت في شقتي التي احتفظت بها أهيّئ الفراش الذي سيستقبلني وحيدة كما كنت دائما!

سألتها إن كانت نادمة على شيء ما، قالت إنها فقط مغتاظة لكونها لم تفهم في الوقت المناسب.

ثم سألتني عن ليلى، فقلت إنني أدرك بصفاء كامل أنها أفضل ما حدث لي في السنوات الأخيرة، ولكنني لا أعرف كيف أرتب حياتي معها.

قالت فاطمة: إنها قصة حب حقيقية، لذلك لا يمكنك أن ترتب شيئا،

يجب فقط أن تطلق العنان لخيالك لتكتب قصة حب غير مسبوقة.

أزعجني جوابها، فقد لمحت في ثناياه تلويحا بأنني لن أعيش شيئا حقيقيا مع ليلى، بل فقط نوعا من الخيال الأدبي، لذلك أجبت بنوع من الحدة:

ـ ولكن ليلى حقيقة، وليست مجرد خيال أدبي.

قالت فاطمة:

لم يحدث لك في الواقع سوى أنك من حين لآخر تضاجع سيدة استطاعت أن تصالحك مع المتعة.. لكن أنظر إلى القصة التي نسجتها حول الموضوع!

انسددت فجأة فصمت، ونظرت إلى الحقول الحمراء العارية من كل نبات، سوى كتل من الصبار المتفرقة، هناك في الأفق القريب يمر الطريق السيار إلى مراكش، وبعده سيستمر حتى أگادير.. خلال سنوات ستصغر البلاد بهذه الطرق الخاوية التي تنمو حولها أناشيد القرب وفك العزلة.

فاطمة تحب الطرق والقناطر والأشغال الكبرى، تقول إنها تناسب تماما روح هرقل. تناسب فكرة الأرض الخلاء التي يستخرج المغامرون من أحشائها ملامح جديدة.

نزلنا «بالدار الكبيرة «لنجد الغالية قد فتحت منذ الظهر ورش العشاء، وبهية غارقة في صخب أهوج مع الغالية الصغيرة، وأحمد مجد يتكلم في الهاتف بهدوء من استفاق في جزيرة خالية. تركت فاطمة لتعيد ربط نفسها بهذا المجال الحيوي، وتوجهت رأسا إلى غرفتي مصمما على النوم حتى يزف الليل.

- 4 -

وضع ياسين يده على خدي كما كان يفعل عندما كان رضيعا، فتحت عينيّ مستنشقا عبير طفولة بعيدة، وابتسمت له، قال إنه يظهر لآخر مرة في حياتي ثم سيختفي إلى الأبد! اسمع، لا أريد أن تفهمني خطأً، إنني لست مبعوثا برسالة من أحد! لست على علاقة بأي كان، لا يوجد أي خيط رابط بين ما يحصل لي، وما يحصل لك، لا توجد علاقة بين ما كنتُه، وما أستطيع قراءته في صفحة الغد، ستشغل نفسك طويلا بكيف حصل ذلك، لا «كيف» في الموضوع. الفكرة لا تعمر طويلا كفكرة. جرب أن تقفز مترا واحدا. وجرب أن تفكر في الأمر أكثر من ثانية. ستعجز عن القفز إلى الأبد. كل ما في الأمر أن شعاعا يخترق مخك. يقول لك: لم لا؟ فتقفز. هكذا وجدت نفسي هناك. لم أكن أعرف أنها نهاية أو بداية، كنت أعرف فقط أنني إذا لم أفعل ذلك سأظل معلقا إلى الأبد في تلك النقطة من الرصيف التي سمحت فيها للفكرة أن تعمر أكثر من اللازم. هذا إذاً لننتهي من الموضوع، أقصد لأنتهي منه. أما أنت فلن تتوقف عن الحفر في هذا القبر، ستتبع خطى أجدادك الحفارين، هل ستجد شيئاً؟ لا أعرف، ربما استخرجت مدينة من أحشائك، خليطا من زرهون وديسلدروف، والرباط، وبومندرة وفرانكفورت وبوضيرب، ومراكش. ربما وقعت على شعر ضائع في هذه الخرائب النثرية التي تحيط بك، لا شيء من ذلك يعنيني! يجب أن تعرف أنني سأنجح دائما في الإفلات من هيمنة السلالـة. سأحلق

لوحدي، وأسقط لوحدي كما فعلت دائما.

اسمع جيدا، جامع لفنا. النادي المتوسطي. مدخل المدينة جهة بائع الرؤوس المبخرة. جنب دكان الزيتون والفلافل. انتشل نفسك من شرفة المقهى. لا شيء يستحق أن تستغرق من أجله في هذا التأمل، اتبع نداء شخص يطل من نافذة ضيقة لبيت قديم، إنه يكلم شخصا آخر في سطح بيت مجاور، يسأل هل وصل المعني بالأمر؟ والآخر يقول بأعلى صوته إنه لا يعرف. أما أنت فيجب أن تقف تحت النداء تماما أو تحت النافذة، أنظر جيدا صوب الذين يخرجون من الدرب ويذوبون في ضجيج الساحة، لا شأن لك بالذين يدخلون المدينة. أعرف أنه في هذا المكان الضيق من الصعب أن تميز بين داخل وخارج، ولكن كل شيء يتوقف على هذا التمييز، سترى أن لافتة تظلل الممشى برفيفها الرتيب وستقرأ فيها عَرَضًا أن مراكش ترحب بعشاق السينما. ثم سترى ملصقا كبيرا يغطي مجالا واسعا في الجدار. في الملصق يمكنك أن تتعرف على البرنامج الكامل للمهرجان. لا تقرأه أرجوك لو استغرقت في قراءته - وأنا أعرف أن إغراء عارما سيلح عليك.. - فإنك ستخسر اللحظة الحاسمة.

لماذا أقول لك كل هذا؟ لماذا أقع عليك أنت بالذات؟ إنه قدرك، أو قدري لا مجال للإفلات من ذلك.. الوجه وجه طفل كبر بسرعة، وجنتاه ما تزالا وجنتي رضيع معافى، وعيناه عينا رجل متعب، وجه يشبه وجوها كثيرة، يشبه وجه بائع الخضر جنب محطة الوقود في شارع الزيزفون، يشبه وجه معلم المدرسة الخاصة خلف منزل الجنرال، يشبه وجه صهرك الذي يعيش في ألمانيا ولم تره منذ سنوات. أنظر الآن إلى يديه، لماذا يزحف السواد على أظافره كلها. لماذا يقبع الخاتم الفضي ضئيلا في خنصره الثخين، ويعطي لليد شكل يد ميتة؟ من أين صعد الرجل؟ من سيدي

يوسف بن علي؟! من الداوديات؟ من قبو في المدينة القديمة! من حوز مراكش، أم من ليل الدار البيضاء؟ أم من هوامش بدون إسم؟ مرة قلت لي إنك تعرف أصل الناس من مشيتهم! تمعن إذاً في هذه المشية المتئدة، المائلة قليلا كأن صاحبها يحاول تجنب عثرة طارئة. هل يمكن أن تعرف وجهة الناس من مشيتهم.. لا.. لا يمكن أن تعرف ذلك، لا أحد يمكنه أن يعرف ما إذا كان الشخص يتوجه إلى قلب الساحة، أو إلى قصر المؤتمرات أو إلى فندق المامونية، جسده يمتد نحو كل هذه الأمكنة دون أن يأخذ الوجهة التي تدل عليها. إنه تمويه شخص يعرف ما يريد!

في الساحة تصطف الباصات الأنيقة لينزل منها مئات السواح المتعبين. الشمس فرن يلف هذه المدينة «الطنجية»، ويطهوها على صهد ثقيل. هذه هي نهاية المسار، بعد قبور السعديين وقصر البديع، وقصر الباهية والكتبية ودار سي سعيد، ودار الباشا، والمنارة وقبة المرابطين.. هنا تحط الوجوه المسلوقة رحالها، قبل أن تتوزع على فنادق المدينة. هل تظن أنه هنا في منعطف صغير ينتظر تجمهر الأجانب على الباصات.؟! هل تظنه يراقب الأمر جيدا خلف عربة بائع متجول؟. تفرس جيدا في ملامحه إذا استطعت الاقتراب منه. إذا كانت لحظة التصميم قد وصلت فإن صفرة فاقعة ستملأ وجهه فلا تغادره أبدا.. أما إذا كان الأمر ما يزال بعيدا، فإن لفحة الشمس ستجعل وجهه ميالا للزرقة. دعك إذاً على مقربة منه، دون أن تنظر إلى وجهه إلا نادرا، أنظر بالأحرى إلى قدميه، قدمي بطة مستعجلة، في نعليه المُرْتجلين وجوربيه من الماركة الرياضية المزورة. وإذا لم يكن هناك؟ ستسأل نفسك إذا لم يكن سوى صورة نبعت من الخوف الكامن في كل واحد منا، إذا لم يكن رغم جوربيه وقميصه الباكستاني، ونظرته المرتعشة سوى بنَّاء في عطلته الأسبوعية، أو خادم في بيوت الأجانب خرج من

حمام سريع قبل أن يطلع الظهر على الجنابة. في هذا الوقت بالذات، عندما تضع سؤالا من هذا النوع يمر الشخص من الزرقة إلى الاصفرار الأبدي. حذار أن تدخل في هذا الشك وأنت لا تراه. إذا لم يكن هناك حيث تركناه قبل قليل فإنه الآن في مدخل المامونية، حيث تتزاحم السيارات والباصات وسيارات الأجرة، وحيث يمتد دخان السيجار الكوبي من بهو المطاعم حتى شرفة تشرشل، أو أورسن ويلز، لا تجازف بمغادرة هذا المربع الذهبي. هنا يمكن أن تتزاحم ثروات ضخمة في متر مربع واحد، وهنا يمكن لصاحبنا أن يرفع أعمدة الجنة في المتر المربع نفسه!

لماذا تنظر إلي هكذا؟ أنت أيضا لست مكلفا بمهمة، ولست مبعوثا من أحد. أنت فقط أنجبت ملاكاً ساذجا حلق من التروكاديرو إلى قندهار، متأكدا أنه عائد لا محالة.

قل لي أنت الذي تفهم في كل شيء، عشرون سنة؟ هي تقريبا لا شيء! لماذا لا نبدأها من الصفر؟!..

أردت أن ألمس وجنتيه فلم أدرك سوى الابتسامة التي صاحبت حركة يدي، وفتحت عينيّ على ظلام الغرفة وأصوات بعيدة في الطابق الأرضي. حملت نفسي على عجل ونزلت الدرج دون أن أقوى على الرد على هاتفي المحمول الذي يلح منذ أزيد من ساعة.

شربت ماءً كثيرًا وسألت فاطمة وأحمد، عما إذا كانا يتحدثان منذ مجيئنا، فردا بالإيجاب. قلت:

ـ لا أرى شيئاً يمكن أن يفلت من هذه الثرثرة!

وفي هذه اللحظة هتفت ليلى.

ـ ماذا في الأمر؟ قلت بجفاء.

جاءني صوتها مسالما:

ـ أسأل عنك. هل يستفزك الأمر لهذا الحد؟!

قلت إنني مضطرب جدا. ربما بسبب أشياء غريبة تحدث لي مع ياسين. رجعت إلى موضوع فاطمة من جديد، وقالت إنها ترغب في أن نلتقي مع بعضنا في الرباط. وافقتها الرأي وقلت إنني أرغب في أن أكون معها الآن، وأنني مشتاق إليها، وسألتها عما إذا كانت جميلة جدا هذا اليوم. فقالت إنها فعلت كل ما في وسعها لتكون كذلك. ثم قلنا أشياء كثيرة مما يقوله المراهقون عادة، دون أن ننتبه لما في هذا الأمر من خفة زائدة. وقبل أن ننهي المكالمة، أحسست أن شيئا ثقيلا يجثم عليّ، كما لو كنت لم أقل شيئا كان يتوجب علي قوله، أو كما لو كنت قد أخللت بشيء كان علي أن أفعله. ووجدتني أتوجه نحو الباب لأفتحه وأطل على الدرب الذي أصبح حافلا بأصوات جديدة بلغات مختلفة.

نظرت صوب السور المقابل للدار الكبيرة، فوجدت أن الحمامة التي كانت تحتضر عند وصولنا قد فارقت الحياة، وتكونت حول رأسها بقعة خضراء من سائل ما يزال ينز من منقارها. أقفلت الباب وعندما مررت بالمطبخ قلت للغالية:

ـ لقد ماتت الحمامة!

قالت إنها كانت متكومة على نفسها في الدرب منذ البارحة. هززت كتفي قائلا:

ـ على الأقل لم تمت مذبوحة!

حسبت أنني أمزح فردت ضاحكة:

ـ ليست كالحمام الذي أعده للعشاء، قضى سيدي أحمد صبيحة اليوم في ذبحه وهو يصوصو ويضرب بجناحيه ظناً منه أنه يهم بإطعامه.. مسكينة هذه الطيور لا يفكها من الآدمي سوى الموت!

ألقيت بنفسي على الأريكة وكنت أهم بأن أسأل أحمد عن مشاريعه العقارية الجديدة، عندما رن هاتفي من جديد، كان إبراهيم الخياطي على الخط يقول بصوت مرتعش وبنبرة باكية إن عصام اختفى منذ يومين. وضعت أسئلة غبية في الموضوع ثم صمت. قال إبراهيم إن مهدي يكاد يجن وأنه لا يعرف ماذا يفعل، قلت منفعلا، سأجيء اليوم، أو غدا في الساعة الأولى.

كان عشاءً فاترا، تحدثنا فيه بأصوات خافتة كأننا نخاف أن نوقظ أحدا، ثم انقسمنا بعد العشاء إلى مجموعتين، مجموعة ضيوف أحمد مجد التي ارتفعت أصواتها في نقاش حاد حول مآل الأرض التي اشترتها مجموعة الجوهرة في وسط المدينة. والمجموعة الصغيرة التي جمعتني بفاطمة وأحمد مجد لفترة قصيرة وضعنا فيها على الطاولة كل الاحتمالات المتعلقة باختفاء عصام، بما فيها الأكثر تراجيدية، لكن أحمد مجد عنّفنا قائلا إننا من الصنف الذي يدفن الإنسان قبل حتفه. فلم نعانده. وقالت فاطمة وهي تمضي لغرفتها:

ـ لا أرى داعياً للهلع، الأخبار السيئة تأتي دائما بسرعة!

صعدنا قطار السادسة صباحا، وعندما تحركنا صوب الدار البيضاء قالت فاطمة إنها لم يغمض لها جفن. قلت:

ـ حاولي أن تنامي، أمامنا يوم طويل!

ثم فتحت الجرائد لأجد صورة عصام في الصفحة الأولى للجريدة التي أشتغل بها. قرأت المقال بلهفة فوجدت بعض التفاصيل المتعلقة بالاحتمالات التي تفكر بها الشرطة. منها ما يتعلق باختطاف تكون جماعة إسلامية متطرفة قد دبرته، أو حادثة ترتبت عن تصفية حساب داخل ما عرف بـ «مجموعة عبدة الشيطان» ومنها ما يتعلق بهروب محتمل خارج

البلاد بعد فترة اضطراب نفسي لأسباب متداخلة. ثم قرأت نداء توجه به إبراهيم الخياطي إلى عصام يدعوه فيه إلى التفكير بأمـه التي فقدت القدرة على النطق منذ ذيوع خبر اختفائه.

كل هذا قلته لفاطمة وهي مغمضة العينين، فلم تبد أي رد فعل. وقد كنت منهمكا في قراءة رد أحد المنعشين العقاريين على تعليق صحفي يتعرض لحصوله على أرض في ملك الدولة بثمن رمزي. عندما قالت فاطمة:

ـ غريب نداء إبراهيم في الصحيفة!

انتظرت أن تفسر لي وجه الغرابة فلم تفعل.

قلت: إذا علم عصام أن أمه في وضع سيء بسببه فسيعود بسرعة.

ـ وإذا لم يعلم؟!

ـ فمعنى ذلك أنه قد حصل له شيء.

ـ أو لم يقرأ الصحف!

ـ تعتقدين أن إبراهيم يفعل ذلك من تلقاء نفسه؟

ـ لا أعتقد شيئا، كأنني أعيش في فيلم!

ـ معك حق فيما يخص نداء إبراهيم، لماذا يقول إن هنية، قد فقدت النطق منذ اختفاء ابنها؟ هل سمعتها تتكلم مع أحد أبداً.

ـ بالطبع كانت تتكلم وتنمم، وتسخر وتضحك. كل ما في الأمر أنها كانت لا تفعل ذلك مع كل الناس، أو في الجماعة.

تساءلت عما إذا لم تكن الاشارة إلى ظروف عصام النفسية، هي في الواقع إشارة إلى العلاقة المضطربة بين إبراهيم الخياطي وأبناء عشيقه السابق، فقالت فاطمة:

ـ ستنهش الألسنة كل شيء!

ثم استوت في جلستها، معبرة بذلك عن نبذها الكامل لفكرة النوم،

وقالت:

ـ تبدو مصائبي صغيرة جدا، أمام ما يحدث للآخرين!

ابتسمت لأشجعها على الحديث فاستطردت، قالت إنها تعيش انفصالها عن عشيقها الكوسوفي بألم لا يطاق، حتى وأنا مصممة ومقتنعة وحاسمة. لا أتصور أنني سأشفى ذات يوم من هذا الجرح. إنه شعور بخسارة عميقة تغطي كل حياتي. تصور، لمرتين متتاليتين حملت، ثم فقدت الحمل على بعد عشرة أسابيع من الولادة. لا يكون هناك أي أثر لشيء غير طبيعي حتى أفيق ذات ليلة وأنا أسبح في ماء رحمي. أزور الطبيب عشر مرات في الشهر، كل شيء على ما يرام.. أي أعراض؟ لا يمكن أن تكون هناك أعراض لشيء لا وجود له.. إنه طفل جيد أؤكد لك. إلى أن يحدث الطرد المباغت، وينزل الطفل حيا ثم يموت تحت بصري، ويتمدد بكل قامته في تلك العلبة المضاءة مغمورا بدموع جسدي كلها.

هل تعرف؟ جسدي وحده كان يرفض هذا الأمر. من تلقاء نفسه ودونما حاجة لتدخلي، كأنه كان يعرف عنف هذا التلاقح الأحمق ويرفضه.

ثم عرفت ذات يوم أنني منذ اللحظة الأولى كنت مخطئة تماما. كأنني نزلت مسرعة من الطابق السابع لأذهب مع رجل أنتظره، فذهبت معه فِعْلا، وأكلت وشربت، ومارست الحب، وحملت وأجهضت، وقرأت وسهرت ورقصت وسافرت، ثم اكتشفت فجأة أنه ليس هو!

ـ ولكن أين هو الرجل الذي كنت تنتظرين؟

نظرت في عيني طويلا ثم ابتسمت:

ـ أنتَ.. ذات يوم، سأقتلك!

وضحكنا لأول مرة منذ البارحة.

قلت لفاطمة ونحن ندخل بيت إبراهيم الخياطي، أتمنى أن نجد عصام

قد رجع والحكاية قد انتهت.

لكن عندما وصلنا للصالة غمرنا الوجوم السائد فنفضنا أيدينا من هذا الوهم. كانت ليلى أول من هب للقائنا، بعينين دامعتين متورمتين، أما إبراهيم فظل جالسا في مكانه ساهما، يحملق في فضاء الغرفة ولم يبد عليه وهو يصافحنا أنه قد تعرف على أحد منّا.

قضينا ما تبقى من الصباح في أحاديث متوترة مع مهدي وإبراهيم، ثم مع بعض شباب المجموعة الذين لم يتوقفوا عن التردد على البيت. أما هنية فقد ظلت في فراشها كأنها في حالة غيبوبة. وكانت المرة الوحيدة التي اجتاحتها نوبة عصبية طارئة هي عندما وضع إبراهيم يده على وجنتها في محاولة لإخراجها من حالة الوجوم.

في الثانية بعد الزوال أخذت ليلى وفاطمة لنتغدى خارج البيت، ونحن نغادر الحديقة تقاطعنا مع فرقة الأمن التي تحقق في الاختفاء فاستوقفتنا في دردشة عابرة انتهت بالتحقق من هويتنا وبإثارة انتباهنا إلى أن التحقيق سيستفيد من كل معلومة صغيرة أو كبيرة يمكن أن نزودهم بها.

في الشارع تخلصت ليلى من هدوئها الطارئ وراحت تحقق في الاختفاء مباشرة، غير مكترثة بانشغالنا بالبحث عن مطعم قريب، وبدا لي تدفقها العارم محاولة لتدبير وجود فاطمة والالتفاف عليه، فأمسكت بذراعها وقلت يخيل لي أنني لم أرك منذ شهور. قالت لا يجب أن يخيل إليك، أنت فعلا لم ترني منذ دهر! ثم دخلنا إلى المطعم الإيطالي جائعين ومرتبكين.

ذهب التحقيق في اتجاهات مختلفة، فقد كان عصام وفرقته في وضع ملتبس، عداء مستحكم مع الحركات الإسلامية بسبب الأغاني التي اتخذت الهِندام واللحية والحجاب موضوعا لسخريتها اللاذعة، والتي استعملت

عددا من العبارات المسكوكة في اللغة اليومية لهذه الجماعات موضوعا للتهكم. الشيء الذي أوصل الأمر حتى قبة البرلمان في سؤال عما تنوي الحكومة عمله لوقف هذا الاستهتار الذي اتخذ البسملة والحوقلة والحسبلة موضوعا للتهكم والسخرية.

من جهة أخرى نشب عداء مرضي بين مجموعة ارتروز وباقي المجموعات المحسوبة على «عبدة الشيطان»، لكونها لم تكتف بإنكار أي علاقة بينها وبين تيار يمجد الشيطان وينتصر له، بل ذهبت إلى حد الإعلان عن اعتبار نفسها مجموعة غنائية إسلامية، مما جعل أحد الزعماء المحليين الإسلاميين يوجه لها دعوة لإحياء سهرة في المدينة التي يرأس بلديتها. إلا أن السهرة تحولت إلى تراشق بالكراسي عندما استجابت المجموعة تحت ضغط الجمهور وغنت أغانيها المستفزة عـــن «إسلام الشْرَاوَطْ» و«ما بقاتش فالشطابة»، ومع ذلك أصدر الزعيم المحلي بيانا يشجب فيه المدسوسين في السهرة الذين اصطنعوا فتنة بإيعاز من جهة حاقدة، وجدد تحيته وتقديره لفناني المجموعة الذين يدعون إلى التمسك بجوهر الدين ونبذ قشوره الزائفة. وفي هذه الفترة ظهرت على يد عصام فكرة استبدال إسم المجموعة «أرتروز» «بالمشكاة»، إلا أن مهدي وباقي أعضاء المجموعة رفضوا ذلك رفضا باتا مما ساهم في توتر إضافي في العلاقات بينهم.

كانت تجربة الاعتقال في قضية «عبدة الشيطان» هزة عنيفة في حياة عصام الذي اكتشف مثله مثل عدد كبير من أفراد المجموعات الشابة، أنه «ينتمي» إلى تيار عالمي يدعو إلى عبادة الشيطان. وعندما تلا ممثل الحق العام مقاطع من بعض المنشورات، ونماذج من العبارات المطبوعة على القمصان والقبعات جن جنونه. صحيح إنه ليس متدينا، ولكن من المستحيل

أن يكون في حركة تروج لهذه الأفكار، وتنشرها بدون أي احتراز أو تبصر، وقد سأله القاضي عما إذا كان مقتنعا بأن الشيطان صديق للبشر، متواطئ معهم، حليف لرغباتهم فكادأن يجيب: ومن هو هذا الشيطان الجديد؟!

لولا أن رمق عيني المحامي تقصفانه بنظرة صارمة، عند ذلك أجاب بكل بساطة: أنا مؤمن بالله وبرسوله.

وبناء على هذه اللحظة حـول أحمد مجد مرافعته إلى سيل من العبارات الساخرة اهتزت لها المحكمة، عن علاقة الشيطان بالموسيقى، وعلاقة الشباب بالشيطنة، عن فوبيا المحافظين من كل شيء يخرج عن سياق أذواقهم السائدة، عن الدولة التي تخاف من ظلها، عن الراب الذي يبدأ بالصلاة على النبي، وقد فهم عدد من «النبهاء» مجيء أحمد مجد وهو صديق «أوساط عليا» إلى المحكمة، وانتصابه للدفاع في قضية من هذا النوع، على أنه إعلان رسمي عن التعاطف مع الموسيقيين الشباب، وحَمْل ما روجوه من مناشير وملصقات على طيش الشباب ونزقه، مما يؤشر على إرادة للتحلل من الحماس الزائد للأجهزة الأمنية التي كيفت التهمة بحذْق مبالغ فيه. ثم جاءت البراءة لتؤكد حدس «النبهاء» سواء كانوا على خطأ أو صواب.

لا يعرف أحد ما إذا كان الأمر له صلة بهذه المرحلة، لكن اعتكاف عصام لفترة طويلة ونزوعه إلى نوع من الدروشة المضطربة، التي تمزج بين طقوس صوفية سنية وطقوس شعبية، وأخرى من ديانات وحركات روحية مختلفة، يرجع على الوجه الأرجح لتداعيات تلك المحاكمة. وكان من النتائج المباشرة لهذا التطور المفاجئ أن زادت حدة المناقشة بين عصام وإبراهيم الخياطي، مناقشة اتخذت في نهاية الأمر شكل محاكمة قاسية. لمرات متكررة عادت علاقة إبراهيم بالأب البيولوجي لعصام إلى

الواجهة، يقول مهدي إن عصام لم يكن يترك مناسبة تمر دون أن يعرض لهذه العلاقة، ودون أن يتوجه إلى أمه أيضا بسيل من العبارات الملغزة التي لا تخفي الازدراء الكامن وراءها والإرادة المعدة سلفا لاحتقار علاقتها بإبراهيم، وكأنما أخرج هذا التطور الدرامي هنية من انسحابها الصامت، فامتشقت شراسة لا مثيل لها، صبتها في البداية على عصام ومهدي، ثم وجهتها كاملة إلى إبراهيم.

خلال تلك الشهور الصعبة حدثت أشياء متلاحقة بعضها أغرب من بعض. فقد أصر عصام على الانخراط العلني في تدين صارم الطقوس في الوقت الذي استمرت فيه مجموعة أرتروز وهو أساسا كاتب كلماتها في تحقيق نجاحات متوالية. وتسبب هذا التدين المعلن في جر إبراهيم إلى نوع من الامتثال جعله يوقف بكثير من الاكتئاب المضمر نمط حياته الخاص، القائم على السهر والعشاءات الجذلانة، والخروج إلى ليل الدار البيضاء. . ثم بدا له أن يتوج هذا «البَيَات القسري» بعمرة سريعة. وأتذكر أنني سألته عند عودته منها، عما إذا كان قد شعر بشيء استثنائي وهو يؤدي مناسكه فاعترف لي أن الأمر لم يمسه لا من قريب ولا من بعيد. وأنه على العكس من ذلك كلما اجتهد في استبطان التجربة، كلما هربت منه هذه الأخيرة بطريقة تبعث على اليأس، واستقوت هنية بما حدث حولها فبدا لها أن تبسط نفوذها على البيت. فكان منظرها يثير الشفقة، هي التي استظلت مذعنة بشجرة اسمها إبراهيم الخياطي، كانت تبدو بهلوانا يكسر الأغصان ويَمْضغ الأوراق والبراعم ويصدر أوامر لا معنى لها سوى ذلك الصراخ الذي يحملها رغما عنه.

أما مهدي فكان يتفرج على انهيار عالمه بكثير من الصبر والحكمة، فكتب في تلك الفترة أغنيته الشهيرة «أدخل للواد»:

إلى حصلتي ودارو بيك

ومشيتي.. وجيتي

وبان لهم لبلان فيك

ادخل للواد

ومَنَّغ الطرح

ولا عليك

ليس صحيحا أن عصام دل الشرطة على أحد من «عبدة الشيطان»، حتى مهدي يؤكد ذلك، ويؤكد أن سهراتهم في المايلز، وتيكيدا، والسامبا هاوس، وبيري بيري لم تكن إطلاقا مسرحا لأي طقس شيطاني كما أورد تقرير الضابطة القضائية، والمقالات الصحفية الحاقدة. لم نعرف أبدا يقول مهدي أي معلومة تجعلنا نشك في شيء. كنا نغني ونرقص ونعزف، وكان يحدث لبعضنا أن يختفي لبضع لحظات مع صديقته.. ولكن ما يقال عن القرقوبي، والمضاجعات الجماعية مجرد خيال. لو عرض علي شخصيا أن أشارك في مضاجعة جماعية لما قبلت أبداً!

مع ذلك فإن الاستغلال الإعلامي لحالة عصام وتقديمها في بعض الأحيان كتوبة باهرة، ثم تزامن هذه الحالة مع اعتقالات جديدة في صفوف الموسيقيين الشباب جعل فتيل العداوة يشتعل بقوة بين مجموعة أرتروز وباقي المجموعات البيضاوية. ولذلك اتجه التحقيق أيضا في هذا الاتجاه مما جعلنا نعيش لمدة أسبوع كامل أخبارا متناقضة عن اعتقال مجموعة عبدة الشيطان التي اختطفت عصام، ثم اعتقال خلية إرهابية ادعت أنها اختطفت عصام وقتلته. وأبلغ إبراهيم الخياطي عن مكالمة تلقاها تقول إن عصام بخير، وأنه يحتاج لبعض النقود والأدوية.. وبما أن المكالمة لم تتجدد بعد أسبوع فقد تبخر كل أمل في العثور على خيط من هذه

الوجهة.

وعندما بدأ مهدي يستعد للسفر إلى باريس لمتابعة دراسته بالأقسام التحضيرية، لا نعرف كيف استقر في خواطرنا جميعا احتمال عثوره على أخيه التوأم هناك في تلك المدينة القادرة على كل المعجزات.. وقد أصبح الاحتمال من كثرة ما راودناه شبيها بموعد مؤكد خفف من الآلام المترتبة عن هذا الاختفاء، حتى أننا بدأنا من حين لآخر نعثر في بيت إبراهيم الخياطي على بقايا من مناخ قديم مزيج من خفة واغتباط وسلوان.

ذات ليلة، تذكرت ليلى ونحن نعود من عشاء مع فاطمة، أن عصام كان يحبها، فانتحبت بحرقة، وقالت إنها لا تفهم كيف لا يصل التحقيق إلى شيء.. ولا تفهم خصوصا كيف يسمح للنسيان بالتسلل إلى هذا الموضوع.

وعندما أثرت انتباهها إلى تعقد قضايا الاختفاء والاختطاف والاغتيال، زاد ارتياعها واعترفت لي أنها تفكر بشكل جنوني في احتمالات مرعبة. قلت مثل ماذا؟ قالت أتردد في كشف ذلك. أخاف أن تكون دودة خبيثة قد استقرت في داخلي تجعلني أشم عن بعد رائحة شيء فظيع.

جلسنا على حافة السرير نحاول ترتيب أفكارنا.

عصام كان يكره إبراهيم. كان يكره فكرة أن يتصرف معه كأب، وأن يتصرف مع أمه كزوج، كان يعرف مثليته، ويعرف علاقته بأبيه، ويحس جراء ذلك بخجل لا يطاق، ولم يكن له من متنفس سوى ملاحقة إبراهيم كلما أمكنه ذلك بسيل من الإهانات والشتائم والازدراء، حتى أنه ذات مرة صفعه وهما في المسبح وطلب منه أن لا يدخل المسبح أبدا وهو فيه. لا أريد أن يقترب مني جسدك أبدا، أنت لست جسدا، أنت ماخور متحرك.. قلت مرتاعا.. هل قال ذلك حقا؟! هل صفعه بالفعل.. قالت ليلى، بل أكثر

من ذلك، أكد لي مهدي أنه ذات مساء، كانا جالسين في الحديقة مع باقي أعضاء الفرقة يتدربون على أغنية جديدة، فدخل إبراهيم من سهرته مترنحا بعض الشيء، وحيا الشباب من الباب الزجاجي للصالة قبل أن ينصرف إلى غرفته. عند ذلك قام عصام متجها صوبه فسأله مهدي عما يفعله.. قال ببساطة: سأقتل هذا الوغد!

قلت لليلى كل هذا الحقد! كأن إبراهيم ربى أفاعي سامة في فراشه وليس ذرية بريئة.

فأجابت ليلى بهدوء مفزع، لأجل ذلك أتصور أن إبراهيم قتل عصام في المسبح ودفنه في الحديقة.

- انتفضت مذعورا. كان ما قالته ليلى يستجيب تماما لتوجس غامض يُلازمني منذ أيام، ولكنه في نفس الوقت يقذف بي في احتمال مريع لم أكن لأتوقعه. فكرت بكل تلك الحياة الهادئة التي عبرها إبراهيم الخياطي بعيدا عن أجوائنا المتوترة، مستغرقا في تفاصيل الحياة التي يحبها بدون ادعاء، ولا افتراضات مرهقة، وتصورته ينتهي من دفن قتيله ويجلس إلينا واجما يتحسر على هذا الاختفاء، ثم تخيلت للحظة كل تلك العذابات الصغيرة التي انهالت عليه، وهو يرى عصام يفلت من حياته، وهنية تخرج من جلدها. كنا نلتقي، ونتحدث، وربما تكلمنا مرة أو مرتين عن اضطرابات التوأمين، ولكن لم ننتبه إلى الحريق الذي كان يضطرم في الدواخل. بهذه السهولة يولد الوحش، بهذه البساطة يُعبر إلى ضفاف الجحيم.

خالجني شعور باليأس من هذه الحياة التي لا ترضى بغير تدميرنا وبخوف كاسح مـن أن أبقى وحيدا، قلت ذلك لليلى فحاولت مواساتي بتمرير أصابعها على وجهي ورأسي دون أن أجد لذلك أثرا. ثم قالت بدون حماس، يمكن أن تبيت هنا إذا كنت مستعدا لمغادرة الفراش قبل السادسة.

تخلصت من ملابسي بسرعة واستلقيت على فراشها متأكدا أنها أنقذتني من عذاب لا يطاق.

في اليوم الموالي كنت حوالي العاشرة صباحا مستغرقا في كتابة تعليق قصير عن استرجاع بعض ديون الأباطرة من قبل الصندوق العقاري والسياحي، متسائلا عن السر في إفلات ثلاثة رؤوس كبيرة من هذا الاسترجاع. والحال أن السبب في فك عقدة هذه الديون يرجع إلى الارتفاع الصاروخي لأثمنة الأراضي المرهونة لدى البنك والتي مكنته من التفاوض المريح حول تدبير مديونية بعض الزبناء، وكنت في نقاش حاد مع رئيس التحرير لإقناعه بضرورة نشر أسماء الرؤوس الثلاثة التي ترفض إرجاع ديونها في الغلاء والرخاء معا، عندما تلفن لي أحمد مجد وألقى علي مثل سطل ماء بارد خبر اعتقال إبراهيم الخياطي وتقديمه لقاضي التحقيق بتهمة قتل عصام.

سألته بتلقائية إن كانت الشرطة قد عثرت على الجثة في الحديقة فقال:

ـ لا توجد جثة في الحكاية!

الغربان

- 1 -

هجَمت على الفرسيوي نوبة يأس مفاجئة، فاغتنم فرصة عودة أختي وزوجها من المهجر، وباع لهما الفندق بسرعة، مشترطا فقط أن يسترجع الفسيفساء الرومانية المتبقية في صحونه وجدارياته. ولهذه الغاية قضى الفرسيوي زهاء ستة أشهر جالسا في بهو الفندق، يمرر قطع الفسيفساء بين أصابعه، ويلقي تلك التي يعتقدها رومانية أصلا وفصلا في كيس إلى جانبه، مستثيرا سخرية وشفقة العاملين والمالكين الجدد. وأثناء ذلك كان يلتقط بسمعه المرهف كل ما يدور حول الفندق من برامج ترميم وتوسيع وإضافات وتصحيحات مما لو يود لو كان له معه من الجهد والحق ما يسمح بتقويضه في جملة واحدة واقتراح ألف بديل له، وقد وصل إلى سمعه أن صهره أبرم شركة مع زوجة رجل السلطة المعلوم، وسمع صوتها ذات يوم تخاطب المقاول في شأن الفسيفساء فلم يزد على أن ترنم لأزيد من ساعة وبكل اللهجات والمقامات: «اقرئي العقدة يا بنت عمي».

عندما انتهى من جمع الفسيفساء الرومانية وضع الكيس دون أن يبرحه أبدا على ظهر حمار استقدمه من المدينة مع جمهرة من أهل الريف، وانحدر في موكب صاخب من أعلى الهضبة حتى طريق زكوطة من جهة عين الشكور، ثم اخترق زيتون الأحباس حتى ضفاف نهر خومان، ثم مال يسارا ليدخل وليلي من جهة باب طنجة، ويبدأ في النزول عبر الشارع الرئيسي باتجاه قوس كراكالا، كأنه موكب النصر العائد من حرب وضعت

أوزارها.

كان الفرسيوي يخاطب أهل بومندرة ممن استوطنوا المدينة ولبوا نداءه في هذا اليوم المشهود، ويذكرهم بكل شاذة وفاذة من ملحمته الخاصة، من يوم اقتحم السوق بزوجته الألمانية المشدودة إلى ذراعه إلى هذه اللحظة التي يُرجع فيها الفسيفساء إلى الدولة، هي التي فرّطت في مملكة جوبا، ولم تكتف بالإهمال وإغماض العين على اللصوص، بل انتهت إلى إطلاق يد الحاكم بأمرها في الحرث والنسل، تريد زوجة العبقري أن ترصع مسبحهـا بالفسيفساء الرومانية، والله لا تصل إلى ذلك أبدا، لا يكفي أن تكوني لصة يا حبيبتي، يجب أن يكون لك المخ الذي يفرق بين فسيفساء الرومان وفسيفساء باب بردعيين.. عمك الفرسيوي يعرف ذلك بأصابع يده، عندما جربتم سرقتي في العام الماضي تعمّدت أن أبكي ما ضاع مني أمام الخاص والعام، والواقع أنني ما إن لمست الفراغات التي تركتموها بعد السرقة حتى رقص قلبي في صدري من السعادة والشماتة، لم تأخذوا سوى طين المنطقة مُجللا بالأزرق الفاسي. يا للحماقة، إنها ليست قطعا نقدية لتتعرفوا عليها بهذه السهولة، ولو أن زوجك المحترم كثيرا ما شـك في البصقة فاعتبرها قطعة فضية من العهد السعدي، إنها فسيفساء، أي شظايا النفس البشرية مشتتة في أرض الله، نقطة لقاء بين الماء والطين والنار، ذكاء الخيال الذي يجعل القطعة البلهاء نورا يتلألأ في وجوه الحوريات. لا تفهمون شيئا؟ سأدفع لكم أجرة يوم عمل كامل، فقط لتملأوا هذا الموكب بأجسادكم، وتشهدوا أنني سلمت للدولة المغربية جزءا مما فرطت فيه من تراثها العظيم. هذا الكيس يا ولدي مليء بالوجوه المكسورة، وجوه محاربين وأبطال وآلهة ونساء ووحوش. سيذهب بعد قليل ليضاف إلى الأكياس والصناديق المليئة هي الأخرى بوجوه وأجساد

متشظية والمركونة في مخازن تلعب فيها الفئران والجنادب، أنظروا كيف تنتهي الحضارات العظيمة المشرقة بأشكالها وألوانها وجمالها في عتمات أولاد الكلب.. كذلك حضارة الفرسيوي «ياميس أوما» أو يابن أخي بالجاهلية الفصيحة.. ستنتهي هي الأخرى في عتمات بلا قعر، الدولة التي أدخلت لهذه الأرض معصرة الزيتون الكهربائية، ومضخة البنزين بالتريسينتي، وكبريت الجرب، ودواء دودة الزيتون، وتجارة الخروب، وفندق الزيتون، وكانتينة الباخوسين الأفاضل، والحرب على البلاستيك، ومعالجة النفايات الصلبة، وتربية النحل، والعازل الطبي. الدولة التي جعلت منكم أيها الرعاع الملقطين من قبائل منسية شعبا يحسب له ألف حساب، دولة الفرسيوي العظيمة، ها هي تقوم اليوم بآخر نشاط رسمي لها في هذه البقاع، يتقدمها حمار عظيم يحمل على ظهره كيس حضارة أخرى ودولة أخرى.

إلى الجحيم أيتها الدولة المهزومة تشيعك ابتسامة ديوتيما في مرقدها الأخير.

كان الموكب ينصت ويتبادل ابتسامات متواطئة، ويمشي خائفا ومندهشا، بينما الفرسيوي مستغرق في هلوسته يمسك بفم الكيس المغلق بعناية ويتوجه بملامحه صوب الجبل الأزرق، إلى أن وصل إلى بناية المحافظة، حيث تم التسليم في طقس غير جدي، كأنه مجرد دعابة عابرة، دعابة لم تمنع المحافظ من تسليم وصل طالب الفرسيوي بأن يتضمن عدد القطع بعد عدها.. فسأله المحافظ عن عددها فأجاب الفرسيوي 13624 قطعة، فسجلها في الوصل وختمه بجلبة مقصودة جعلت الفرسيوي يغادر الموقع في كامل الرضى.

بعد هذا الحدث الذي أرخت له المدينة باستسلام الفرسيوي، ووضع

كنزه من الفسيفساء الرومانية بين يدي محافظ الموقع، تتابعت الأمور بسرعة فائقة. فقد أصدر وكيل الملك أمرا باعتقال الفرسيوي الذي غادر المدينة يراه الناس ولا يراهم، بعد أن تناول فطوره الرسمي في مقهى السوق، ولكن أحدا لم يلق القبض عليه.. ذاب الرجل في الجبل الأزرق كما كان يدعوه.. مضى غير مكترث بشيء، أما رجال الدرك فقد سارعوا إلى إعلان فشل البحث، وكأن استحالة العثور على الأعمى هو الإنجاز الأكثر إعجازا.. وقد كان كذلك بالفعل، إذ سرعان ما امتلأت شاشة التلفزيون بوجه الضابط في كل النشرات وهو يعلن مبتسما أن قواته تعقبت الهارب من العدالة في كل تلافيف الجبل دون أن تعثر له على أثر.

وعندما وصل الأمر إلى هذا الحد، قررت أن أنغمر بدوري في البحث عن والدي متوجسا أن يكون اختفاؤه لا يرجع إلى مكر خارق، بل إلى حادث مؤلم، وفي اليوم الذي وصلت فيه إلى بومندرة معولاً على التقاط خبر يقين عن اختفائه، اتصل بي الفرسيوي برقم هاتف محمول لا أعرفه، وقال إنه لا يريد أن أبحث عنه، ولا أن أنتشله من النسيان. وقال إن المتابعة التي دفع إليها «العبقري» كما كان يدعو غريمه رجل السلطة المعلوم، لا تستند إلى أساس. فقطع الفسيفساء ليس حتى الآن سوى تراب في تراب.. أنا الوحيد الذي أدّعي أنها رومانية، تمعن في هذه البلادة العظيمة. رجل أعمى يجلس في بهو فندق خرب، يمرر قطع الفسيفساء بين أصابعه، ويقول هذه رومانية من قبل الميلاد، وهذه من الفخارين في مطلع الألفية الثالثة بعد الميلاد. وهذه من أفران التجمعتي بفاس مطلع القرن الواحد والعشرين. والقوم الهُبَّل يصدقون ذلك، ويحركون المتابعة. الاعتراف سيد الأدلة، ما دام الفرسيوي نفسه يعتقد ذلك، فلا خوف من أن تثبت أحدث المختبرات أنه كان يضحك عليكم جميعاً.

قلت: ولكن لماذا هذه الحروب الكاذبة؟.

قال غاضبا: أعطني حربا صادقة أنهي بها حياتي.. هل تريدني أن أموت بسلام كما يموت أي كلب؟..

وخلال أزيد من ساعة تكلمت مع الفرسيوي كما لو كنت أحلم به. كان يشير من حين لآخر إلى أحداث تربطني به. كأن كل شيء قد انتهى منذ زمن بعيد، كأنه اختفى فعلا وإلى الأبد، كنت أستمع إلى صوت يحدثني عن الفرسيوي الذي لم يقتل ديوتيما، عن الفرسيوي الذي عاش غراميات مبهمة، وكتب قصائد عن موت الحب، عن الفرسيوي الذي دفن باخوس في صحن مسجد ضائع في زرقة الجبل.. عن الفرسيوي الذي لا يحب حياته مطلقا.. نعم لا أحب هذا الإسم، ولا السلالة التي يحيلني عليها، ولا هذه القرية التي تبحث عني فيها، ولا الريف الذي يفترض أن يكون فردوسا مفقودا وهو ليس سوى ممر للريح. لا أحب ديوتيما التي سرقت مني مقتلها، ولا هانس رودر الذي ابتلع قصائدي.. لا أحب سوى هذا العمى الذي يسترني.. هذه العتمة التي تشبه بابًا ضخما أقفله الخالق على نفسي، لأفعل ما أشاء بعيدا عن المتلصصين والفضوليين.

انتهيت في لحظة ما من المكالمة إلى أن الصوت قريب مني، كما لو يكون الفرسيوي خلف الحائط المتهدم لمنزل العائلة القديم.

سألته: هل أنت هنا؟

أجابني بعد فترة صمت: نعم.. أنا هنا.. في قلب العتمة.

قفزت من النافذة المتهدمة إلى وسط الدار، وجريت في كل الاتجاهات، أدخل غرفا بلا أبواب ولا سقوف، تطير منها فزعةً طيور لا أشكال لها..

سألته مرة أخرى: أين أنت.. هل أنت هنا؟

جاءني صوته بعيدا في الهاتف الملتصق بأذني:

ـ أنا في باحة المسجد التي يختبئ في أحشائها باخوس ممددًا، بعد وقوف طويل على الحجر الصلد.. ذات يوم سيختلط رفاتي برفاته.. أنا ممثلا للجنس البشري في أسماله الأكثر فصاحة، وهو ممثلا للخيال المنسي، للعلاقة بين الحلم والغرانيت.. لا تنس أن تزورني من حين لآخر.. ليس من أجلي، بل من أجلك أنت.. من أجل الخيط الواهي الذي يضحك علينا..

عندما انقطعت المكالمة كنت وسط الدار الخربة. فخامرني شعور بالوحشة والخوف، جعلني أخرج سريعا إلى الحقل المجاور، وأستجمع قواي بسرعة لأنأى عن هذا المكان وعن الهاتف الذي كنت ما أزال أحس به لصيقا بأذني.. كأنه أصبح جزءا من ملامحي.

مشيت في الممر الذي يخترق القرية إلى الأعلى حيث توجد المقبرة، ولما ولجت السيارة أحسست أنني أرى هذا المكان للمرة الأخيرة.

عندما هدأت عاصفة البحث عن الفرسيوي أمكنني أن أرى الأمور بنوع من الواقعية، فقد سحب معه مرحلة من الصراع والعنف المعلن والمضمر، لتحل محلها مرحلة سكينة تناسب العصر، حيث الناس تتواطأ وتربح في صمت وفي نوع من اللامبالاة المهينة.

هكذا استأنف فندق الزيتون حياته، وسط انتعاش سياحي، لا يهم من استفاد من وراء حجاب، المهم أن طرقا جديدة فتحت حول المدينة وخارجها، وداخلها، وتناسلت دور الضيافة، وتجارة الصناعة التقليدية. وارتفع الاستهلاك، وانتعش العقار من جديد بل وظهرت حتى في هذه المدينة المنسية فرق غنائية ومجموعات المديح والسماع، وربما أيضا ظهرت بعض المفاسد المتسترة حوقل لها الناس دون أن يتطاير الشرر من عيونهم.. في نهاية المطاف، كان اختفاء الفرسيوي عنوانا لانسحاب

التراجيديا من الحياة العامة، كما حدث على نطاق واسع في البلد إرضاء للمتباكين والرثائين. ومع ذلك فإن هذا الوضع لم يُسِغْ لي أن أعود إلى الفندق رغم إلحاح أختي وزوجها. لم أستطع إلغاء جلسة والدتي في البهو، ولم أجرؤ على إلغاء روح الفرسيوي المسيطرة على المكان. بدا لي أن العودة إلى الفندق في وضعه الجديد ستجعلني في مواجهة مباشرة مع كائنين ضخمين لا قبل لي بمحاربتهما.

لكن الواقعية ليست دائما بالبساطة التي نتوقعها، ففي غمرة هذه التحولات التي لا مكان فيها للمقاومة أو للرفض، ارتأت الدولة أن تخضع فسيفساء الفرسيوي إلى فحص مختبري بإيطاليا، هكذا سافر وفد من الأثريين الكبار، بنفس الكيس الذي تلقته محافظة الموقع إلى روما، تطبيقا لاتفاقية التعاون بين البلدين. وهناك شرع في تحليل القطع قطعة قطعة حيث أثبت التقرير النهائي بشكل حاسم أن القطع وهي تصل في مجموعها إلى 13624 قطعة، هي فسيفساء رومانية كانت في الأصل رسما يمثل هيلاس، صديق هرقل، ليس كما في الفسيفساء الموجودة حاليا في وليلي، والتي تمثله في صراع مع حوريتين تمسك إحداهما بذقنه والأخرى بمعصمه، ولكن في وضع آخر، تسقيه إحداهما في قدح مزخرف، بينما يضم الأخرى إلى صدره، وينظر بغضب إلى نمر يتأهب للانقضاض على الحوريتين.. كما يمثل الرسم بشكل مطابق للفسيفساء الموجودة حتى الآن مشهد الصياد المتسلل والطائر القتيل، والمحاكمة، ومشهد افتراس الصياد المذنب من قبل النمور الجائعة.

إنما ينقص حوالي 2000 قطعة ليكتمل الرسم فيما لو أردنا تركيبه من جديد.

اتصلت مرات عديدة بالهاتف المحمول للفرسيوي في محاولة يائسة

للتحدث إليه، ليس لأزف له خبر التقرير، ولا لأعرب له عن فرحتي العارمة بهذا الإنجاز المعجز، ولكن لأتوسل إليه أن يكشف لي تلك الشخصية الفذة التي استخرجت من فسيفساء هيلاس فسيفساء عبد الكريم الخطابي والفرسيوي يصارع أفعى الواد الميت، وما إلى ذلك من الرسوم التي رصع بها فندق الزيتون.. وإذا كان هو بنفسه هذه الشخصية الخارقة، لماذا لم يقل لي؟ لماذا قضى سنوات يحول مجرى هذا الخيال الأثري ليسكبه في أساطيره الخاصة دون أن يتحدث عن ذلك أبدا.

بعثت لفاطمة رسالة بالبريد الإليكروتي ضمنتها هذه الحكاية وأسئلتها، فأجابتني بأن الفرسيوي لم يفعل سوى تكرار ما تفعله الإنسانية منذ فجرها الأول، تعيد إنتاج خيال واحد بسيناريوهات وشخصيات مختلفة. فاعتبرت هذا الجواب مراوغة فلسفية للتخلص من موضوع لا يهمها، ودخلت في فترة اضطراب صارت بؤرتها الأساسية كما يتردد في كوابيسي، وقفتي في تلك الدار الخربة وسط الغبار والسقوف المفقوءة والطيور الفزعة، يتراءى لي وجه الفرسيوي بين الأنقاض ثم يختفي، ويتعاظم صوته ويخفت، وأسمع صوت انهيارات بعيدة أو انفجارات.. لا أستطيع تحديد ذلك.. وكلما خرجت من هذا الكابوس المتكرر، خالجني ندم شديد كوني لم أقترب من الفرسيوي ولم أفهمه، وكوني اعتبرته دائما مجرد شخصية فاقعة الألوان، بهلوانا قاسيا يجيد المشي على الكلمات والمشاعر محتفظا بتوازنه وباختلالاته المدروسة. ثم بدت لي هذه المفارقة في مسار كمسار الفرسيوي نعتبره مرتبكا متقطعا، وغير متجانس، بينما هو في غاية التماسك. والانتظام تتواشج حلقاته بمنطق لا غبار عليه، وقد جعلني هذا الأمر أشعر أن المعنى الحقيقي لحياة ما هو هذا المنطق المبهم، وليس أي شيء آخر.

وفي محاولة للخروج من فترة الاضطراب التي هيمنت علي، ذهبت إلى منزل الفرسيوي، وحاولت بمساعدة أختي أن أجد شيئا هناك، أوراقا، بقايا قصائد، وصية.. لم نجد شيئا على الإطلاق، وجدنا صندوقا مفتوحا، بداخله قطعة فسيفساء واحدة ونسخة من الكتاب الشعري الذي صدر في فرانكفورت، ثم في مكان آخر وجدنا رسالة لي كنت قد بعثتها له من هناك، وفيها أستمر في اتهامه بقتل أمي. أما في دولاب الملابس فلم نجد سوى جلابة الريف التي يحتفظ بها منذ مراهقته، وعندما حركت الجلابة في فراغ الدولاب لمست جسما صلبا وراءها، وعندما أزحتها تماما تجلى تمثال باخوس كما عرفته بنظرته المطفأة وعنقود العنب الذي يتدلى من كتفه، لكن دهشتي وفرحتي لم تعمّرا طويلا، إذ سرعان ما أدركت أنه نسخة من الفخار الهش لا يكاد يقوى على الحركة، ولا يعرف أحد في أي ظروف أنجز، ولا من هو الشخص الذي أنجزه بكل تلك الدقة المدهشة، جسما طينيا أجوف جعلته النار أقرب إلى السواد منه إلى الحمرة، وعندما فحصته جيدا تبين لي أن هوس الفرسيوي قد ذهب به إلى حد إنتاج النسخة بقدم مثلومة كما يُتوقع أن تكون عليه النسخة الأصلية بعد اقتلاعها من قاعدة التمثال وقد وجدتني بعد فترة تأمل قصيرة أبادر بلف النسخة في ثوب أبيض، كما لو كنت أودعها كفنا، وأمضي بها بنوع من الطقوسية الحازمة إلى ذلك البيت المهجور في بومندرة، حيث تسكن الطيور الموحشة والعناكب، ثم وجدتني أحفر عند قاعدة السور الغربي الذي يشكل ما تبقى من الغرفة المهيبة التي كانت تأوي الفرسيوي الأكبر، أب الهجرة الأولى، وهناك دفنت باخوس الطّيني، التمثال المتبقى من سرقات مبهمة، والذي يعتبر هو نفسه في صيغته الفخارية سرقة موصوفة مندمجة تماما في هذا التيه الأبدي.

سألتني أختي ونحن في طريق العودة من بومندرة، لماذا دفنت التمثال؟ قلت لا أعرف. لم أجد شيئا آخر أفعله به. وعندما نزلت من السيارة في مدخل فندق الزيتون، استدارت فجأة قبل أن تقفل الباب ودست في يدي قطعة الفسيفساء الوحيدة التي تبقت من كل هذا الضجيج. ولسبب غامض خفق قلبي لهذه الحركة، فأحسست بابتهاج عميق لمجيء هذه القطعة في حياتي، وأحسست لأول مرة أن السيدة التي أغدقت علي هذه الفرحة ليست فقط ابنة الفرسيوي، بل إنها أيضا أختي، وأنني حتى ولو كنت متيقنا من أنني أغادر هذه المدينة بصفة نهائية ودونما أي ندم على الإطلاق فإنني سأظل مشدودا إليها بهذا الرباط العارم من الامتنان والأخوة.

- 2 -

انحدرت نحو الطريق المحفوفة بالظلال والصمت، فتراءت لي الهضاب الزرقاء المتمددة كحيوانات كسولة، وتراءت لي الأبنية التي بدأت زحفها من حي سيدي محمد بن قاسم نحو الجبل، أبنية متراصة غامضة كأهلها لا يميزها شيء سوى بياضها المستفز، وعندما استدرت يسارًا نحو مكناس لم ألق على وليلي سوى نظرة باردة، كأنني فقط أتأكد من خلو الملتقى من سيارة أخرى.. وعند ذلك عاودني الاكتئاب كأن الصعوبة التي أجدها في ربط شغف ما بالأمكنة قد حركته من جديد، فوجدتني أقاوم سواد هذه اللحظة بالتفكير في هافانا، في الواجهة البحرية، وعلب الليل، في الكلمات التي تنشأ في العتمة، ليس لأننا في حاجة إليها، بل لأن الشارع الكبير، والأرواح القلقة، والغناء الذي يصعد من أحشاء البحر، كل ذلك يحتاج إلى كلمات عابرة، كلمات تشتعل وتنطفئ كأعواد ثقاب، لا نقول بها شيئا، بل فقط نبني بها سلالم نحو النشوة..

انتشلني هذا التفكير من الكآبة المحيطة بي، وبدا لي أنني سأقوم بعمل رائع واستثنائي لو ذهبت إلى هافانا واقتسمت مع بوسيدفون ثرثرة مازحة حول: الحمونية: لم لا؟ لنعتبر الحمونية تنويعا على استريلا رودريكيز، الأولى تهاوت بعيطتها الباكية في الدار البيضاء، والثانية ابتلعها ليل المدينة في هافانا.. هانا / أنا، هانا.. منين أنا،، منين أنت، آهيا وين، هيا ها هافا، هافا، ها أنا هاهي، هافا، أنا فاه، هوفاه.. هافاه هافاها، هافانا، هافانا جميعا، فاهاني، فاهوني هافوني.. هافاك هافاك، ها ها ها، نانا فانا هافانا. هاه..هاه

كلمت فاطمة، كانت مشغولة في حديث على هاتف آخر، رجتني أن أكلمها بعد فترة، لكنني أصررت: أريد أن نسافر معا إلى كوبا.

صرخت: هل تعرف الطقس الذي يجثم على البلد الآن؟

ليست لي أي فكرة.

-إنه ببساطة جحيم مائي !

قلت: والفكرة؟

قالت: من زمن آخر.. كانت ستكون فكرة جميلة لو حدثت ولكن فات الأوان.. لقد ذهبت إلى هافانا بدونك، أو مع غيرك، وانتهت أوهامي بهذا الخصوص..! هل يمكن أن نتكلم فيما بعد؟

قلت نعم، نعم، سنتكلم فيما بعد، وضعت الهاتف جانبا، وسقت وأنا أفكر في الما قبل والما بعد، في الأوان الذي لم ينجح أحد في ضبطه منذ بدء الخليقة.

في الأيام التي تلت هذه المكالمة أصبحت فاطمة تحدثني بنوع من الفظاظة، كأنها تصفي معي حسابا، وأصبحت لا أجد شيئا مريحا أنهي به مكالماتنا الهاتفية، ولا أجد جملة مرحة أدسها في الحديث. وذات مساء تركت لي رسالة صوتية تقول فيها إنها عازمة على مرافقة صديق صحفي إسباني في رحلة إلى المغرب تستغرق أسبوعين للقيام بتحقيق في موضوع «عبدة الشيطان» واختفاء عصام الخياطي. ولم تضف أي كلمة رقيقة كعادتها، مما جعلني أعتبر ذلك نوعا من إعلان الحرب، وعندما قلت لها ذلك فيما بعد ضحكت وقالت إنها منذ سنوات لم تعد تحارب؛ ولكنها احتفظت منذ بدأت زيارتها بنوع من البرودة تجاهي جعلت جل تعاليقها وردود فعلها خلال مناقشاتنا تتسم بالحدة، الشيء الذي اغتاظت له ليلى ونسجت حوله استنتاجات متسرعة أبرزها أن فاطمة تعبر عن

غيرتها المكبوتة بهذه الطريقة، وأنها لم تستطع أن تشفى تماما من استحالة علاقتنا. وقد ذهب الأمر بليلى إلى حد مساءلتي مرة أخرى عن حقيقة علاقتي بفاطمة، فكررت على مسامعها تفاصيل القصة بما في ذلك ما يعتريني أحيانا من شعور بالخسارة، كوني أدرك إلى أي حد كانت فاطمة أساسية في حياتي دون أن تكون إمكانية فعلية لعلاقة بين رجل وامرأة.. ومرة أخرى غضبت ليلى من إحساسي بالخسارة، واعتبرته خطرا كامنا من شأنه أن يطفو ذات يوم على سطح علاقتنا، كما اعتبرت توتر فاطمة الحالي إيذانا بعودة البركان إلى السطح.. ولكن الأحداث المتتالية التي جرت بعد ذلك ساهمت في إخماد هذه الفتنة. فقد سهرنا معا في بيتي بعد أسبوع من وصول فاطمة والصحفي الإسباني، فتخلل سهرتنا نوع من المرح المبهم، كان تعبيره الأقوى هو انخفاض حدة فاطمة، وميلها إلى نوع من المودة الدافئة تجاهي وتجاه ليلى على وجه الخصوص.. ثم سرعان ما فهمت أن السبب في ذلك يرجع إلى زيارتها لإبراهيم الخياطي في سجن سلا، وبالضبط إلى شيء قاله إبراهيم. وعندما جرى الحديث عن هذه الزيارة في نهاية السهرة اعترفت فاطمة أنها كانت مغتاظة جدا من الطريقة التي تنازلنا بها عن «براءة إبراهيم» المفترضة على الأقل، ومن السهولة التي محونا بها هذا الرجل الأساسي من حياتنا، وقالت ليلى إن المسألة لا علاقة لها بالبراءة أو بعكسها. فحتى على افتراض أن إبراهيم قد قتل عصام فعلا، فإن ذلك لا يجعله شخصا آخر، إنه نفس الشخص الذي غمر حياتنا، أقصد حياتكم على وجه الخصوص، بمشاعر استثنائية. لكن فاطمة ألحت على الطابع المؤلم للنسيان الذي أحاط بإبراهيم، نسيان زوجته وابنه مهدي وأصدقائه ومعارفه.. لذلك تضيف فاطمة فإنه يعتبر تذكركما له من حين لآخر نوعا من الإعجاز الإنساني.

بعدما أوصلنا فاطمة والصحفي الإسباني فندقهما قالت ليلى إنها تجد خواكين شخصا لطيفا، وأنها تتمنى أن يحدث بينه وبين فاطمة شيء ما. قلت المهم أن تتمنى فاطمة ذلك.. قالت أشعر أنها تبحث عنه وأنها ربما لا تجرؤ على أن تتمناه.. وقلت على سبيل المماحكة إنها تكبره بسنوات، فردت مرحة، لا تجزع لذلك، سيشيخ سريعا فتصبح أصغر منه.

خلص التحقيق الذي أنجزته فاطمة وخواكين، إلى أن المجموعات الموسيقية التي حشرت في تيار «عبدة الشيطان» لم تكن سوى مجموعات جنينية، ليس فيها عازف واحد محترف، وليس بينها من له إلمام حقيقي بالغناء والرقص، وأغلب أعضائها طلبة وتلاميذ تستهويهم موسيقى الهارد روك، والهيفي ميتال، والتراش، والديث ميتال، والبلاك ميتال. ورغم أنهم أعطوا لمجموعاتهم أسماء تحاكي أسماء المجموعات الموسيقية العالمية خصوصا في الدول الإسكندنافية (ارتروز، العين المفقوءة، الدماغ الملوث، هواء المقبرة، أورگازم، دم الأفعى...) فإنهم لم يسافروا أبدا، ولم يشاركوا في أي مهرجان عالمي، ولم يقدموا أعمالهم إلا في القاعة المرتبطة بالمعهد اللاييكي Fol بزنقة ابن نصير وفي قاعات أخرى هامشية بالدار البيضاء. وجل أعضاء هذه الفرق الموسيقية يعيشون هوايتهم أساسا في القنوات التلفزيونية، HCM، وMTV، وVIVA. ومثلهم الأعلى هو بعض المجموعات التي سبقتهم مثل Total Eclips، وImmortal Spirite، و Carpedlem.

وبالرغم من حالة الاستنفار القصوى التي صاحبت اعتقالهم فإن الشرطة لم تحجز سوى بعض الأقراص الموسيقية لفرق الهارد روك، والبلاك ميتال، وبعض الأقمصة السوداء التي تحمل شعارات النجمة الخماسية والجمجمة والصليب المقلوب، وبعض المجلات مثل الهارد

روك ماغازين، وبعض الملصقات الدعائية لمجموعات موسيقية غربية مثل Heact untrond، وDark Feneral، وBurzum، وDimmu Borgir. . .

لكن المثير حقا هو أن أغلب هؤلاء الشباب لم يكونوا على علم بمحتوى الأغاني الإنجليزية في غالب الأحيان، وعندما ألفوا كلمات لموسيقاهم كانت حول فلسطين والضجيج في الدار البيضاء، وصعوبة العيش بدخل محدود، والطاكسي الأبيض.

شيء واحد برز في المعلومات التي جمعت من هنا وهناك، أن كل هؤلاء الشباب بما فيهم عصام ومهدي، كانوا يترددون على مقهى عند المصري ومقهى گلو- گلو، وليزيريس، وكانت تتردد على هذه الأماكن أيضا وعلى الملهى الليلي «ثري أيز» مجموعة كانوا يطلقون عليها إسم «الغربان» لأن أفرادها كانوا يرتدون ألبسة سوداء ومعاطف جلدية سوداء، وأحذية سوداء مثل أحذية الجنود، ويضعون أساور حديدية في معاصمهم وخواتم بأظفار مخلبية، وأقراط في آذانهم وأنوفهم وحواجبهم، ويتخذون هيئة متجهمة، ويرتادون كل هذه الأماكن وهم في حالة تخدير أو سكر، ومعهم فتيات اشتهرن بأسمائهن الغريبة، «بيش بيش» «مورغانا» «گايشا»، وبسراويلهن التي تكشف عن السرة وجزء كبير من الردفين.

يتزعم هذه المجموعة شخص يدعى «الفَامْبَايَرْ». كان ينظم سهرات في بيته يردد فيها بعض ما تدعو إليه أغاني البلاك ميتال من سخرية من المسيح وتحريض على الحرية الجنسية، واستحضار للموت واللذة والعنف، ولكن ترديده لذلك لم يكن يتخذ صبغة دعوة إلى تيار «عبدة الشيطان» بل فقط طابعا استعراضيا انتهى به في بعض الأحيان إلى اصطحاب أصدقائه لمقبرة قريبة وتنظيم جلسة شراب حول شمعة مثبتة على جمجمة من البلاستيك. وفي إحدى المرات كانت ترافقه الفتاة التي تدعى بيش بيش،

فشجعها بحضور أصدقائه على تقبيل عصام. ثم الاستلقاء معه على قبر، ومصاحبة الموسيقى الصاخبة برقصة تكاد تكون ممارسة جنسية.

كان مهدي يتحاشى الحديث عن هذه المرحلة، ربما لأنه لم يكن شريكا كاملا في أطوارها.. ربما لأنه يعرف أشياء لا يريد أن يبوح بها. لكن فاطمة تعتقد أن التطورات التي لا يعرفها أحد، هي تلك التي حدثت في علاقة عصام بالفَامْبَايَرْ، لا أحد يعرف ما أدت إليه سهرات المقبرة، ولا العلاقة المزدوجة التي ربطت بين عصام وبيش بيش من جهة، وبين هذه الأخيرة وزعيم المجموعة. ولا أحد يعرف خصوصا ماذا جرى بعد إغلاق مقهى «عند المصري»، واعتقال الغِربان، والمحاكمة الشهيرة.

يقول خواكين، ليس مستبعدا أن يكون عصام قد ذهب ضحية طقس من طقوس عبدة الشيطان بإيحاء مباشر من الفَامْبَايَرْ، ولا يستبعد أن هذا الطقس قد اختلط بتصفيات حساب قائمة على الغيرة والانتقام وباندفاعات سَاذَجَة تحت تأثير الشرب والموسيقى. وقد حاولت أن أرد على هذه الاحتمالات باستبعاد عناصر الإثارة والتهويل التي يشجع عليها الموضوع بشكل بديهي الشيء الذي أغاظ فاطمة مرة أخرى، فردت علي بعصبية وادعت أن التشبث بتوريط إبراهيم الخياطي هو مخرج سياسي للقضية. وعندما ابتسمت تابعت متجهمة:

-نعم، كما تسمع، فبعد الضجة الإعلامية وأسئلة البرلمان، ومظاهرات التضامن مع الشباب، جاء قرار التهوين من خطورة القضية، وإطلاق سراح الشباب، لذلك لم يكن ممكنا العودة إلى التصعيد بوضع جريمة قتل في قلب القضية. معقول؟ أليس كذلك..

قلت: معقول، إذا شئت!

في مساء ذلك اليوم، عدنا إلى الموضوع بحضور ليلى التي لم تتردد

في السخرية من سيناريو فاطمة وخواكين مؤكدة بطريقة وجدتها متسرعة أنه مـن الأفضل لعصام أن يقتل على يد إبراهيم، كما في سيناريو الشرطة القضائية، وأن يدفن في الحديقة إذا أمكن.. ولا أعرف كيف حدث ذلك، لكنني عندما عرفت، كانت فاطمة تجهش بالبكاء.. وكان التوتر قد أخذ مكانه بيننا مهيمنا على كل شيء.. لم أستطع تهدئة فاطمة، ظلت نوبة البكاء مسيطرة على جسدها كله، وبلغت من القوة ما جعلها تجمد أطرافنا جميعا، فلم يقو أحد على القيام بشيء، بينما راحت ليلى تقنعنا بهدوء غير معتاد، بأن أفضل شيء نفعله هو أن نترك النوبة تمضي إلى منتهاها.

عندما صعدنا للسيارة كانت فاطمة قد استعادت هدوءها تماما. جلست إلى جانبي، وقالت إنها آسفة جدا لما حدث. لا يليق بي أن أنهار كطفلة.. كل ما في الأمر أن إبراهيم الخياطي يؤلمني.. يؤلمني إذا لم يفعلها، يؤلمني إذا فعلها، يؤلمني لأنه يبتسم كالأبله ويسألني هل زُرت مهدي وهل قال شيئا، ولماذا لم يزره أحد، ولماذا لا تزوره الغالية كما كانت تفعل مع الآخرين أيام زمان، يؤلمني أن نقبل ما حصل، كأنه كان لا بد أن يحصل، وأن نمّر إلى شيء آخر، كأننا لسنا نحن، أو كأن الآخرين ليسوا هم.. ثم ماذا؟ ماذا بعد؟ أجيء إلى مدينة أعرفها فلا أعثر لها على طعم، وأجد نفسي في شقّة تشبه شقق المراهقين، أطعم زميلا في المهنة، مجرد زميل لا يتسع لأي احتمال آخر، وأتماحك مع ليلى، وهي واثقة من نفسها، فرحة بأفعالها، وأضطرك أنت، أنت بالذات لإرجاعي إلى الصواب.. يا له من بؤس.. لماذا لا نهرب إلى هافانا؟ قلت محتجا: قلت فات الأوان؟.

آه.. نعم، نعم. قلت ذلك، لكنني أحدثك الآن عن الملهى الليلي هافانا بالدار البيضاء. كان آخر ملهى دخله عصام قبل أن يختفي..

قلت ذهبت مرة مع مهدي، إنه مكان لا يصلح لنا، مجرد فقاعة ضخمة

تصخب داخلها حناجر بلا أعنة..

وقفت في باب الفندق قبالة فاطمة، كان خواكين يبدو بجانبنا مثل طفل تأخرنا عن موعد نومه، وكان الليل خاويا، نظرت في عينيها الصافيتين بعد البكاء، ثـم تقدمت بدون تردد وقبلت شفتيها.

قالت ضاحكة: معليهش، ولو بعد فوات الأوان!

أيقظتني ليلى في الثالثة صباحا، بصوت حاد وجمل متلاحقة، كانت تريد أن تعرف ما إذا كنت قد استبقيت فاطمة معي.

قلت: ولماذا أفعل ذلك؟..

-لا أعرف، حدست ذلك أو حلمت به..

أجبت متناوما: تأكدي بنفسك، ها أنت ترين كم أنا ضئيل في هذا الفراش العريض.. لا توجد امرأة هنا..

قالت غاضبة: وكنت تود أن توجد؟!

-لا.. لا.. لا.. أود فقط أن أنام!

عند ذلك رقت ليلى ورجتني أن أنام جيدا، وأن أتمتع بأحلام جميلة، وتأسفت جدا لأنها تصرفت بهذا الشكل، وسألتني عما إذا لم أكن أود أن تخرج لي من التلفون.. قلت نعم نعم نعم، فقالت إنها تحبني، وأنها ستفعل ذلك لوحدها!

استمرت فاطمة وخواكين في تسقط أخبار من هنا وهناك حول علاقة عصام بالفَامْبَايَرْ، وحول ما إذا كان هذا الأخير قد أغوى عصام بنوع من العلاقة الشيطانية، جعلته يعود إليه حتى بعد المحاكمة، وبعدما قيل عن خيانة مجموعة «آرتروز» عند ذلك تخمن فاطمة، قد تكون هذه العلاقة المشبوهة قد أفضت إلى توتر مأساوي أدى بدوره إلى اقتراف جريمة. لكن عندما أخذتها وزميلها الصحفي الإسباني بعد يومين إلى المطار، كانت

قد وضعت مسافة معقولة بينها وبين هذه الحكاية. وبدأت تعتبر أن وضع إبراهيم الخياطي في الاعتقال قبل المحاكمة تدبير جيد، لأن هذا الإجراء سيحميه لا محالة من تصرف أخرق لمهدي وأمه.

ثم أضافت إن إبراهيم مقتنع تماما أن عصام قد عبر إلى الضفة الأخرى، وأنه قد يكون الآن في معسكر للتدريب، في مكان مّا على يد خلية نائمة..

اقشعر جسمي وأنا أسمعها تتحدث عن الأمر بكامل التلقائية كأن ذهابه إلى هذا المصير التراجيدي هو مجرد احتمال عادي ضمن احتمالات أخرى.

وكنت أريد أن أطلب منها أن لا تعير هذا السيناريو أي اهتمام، وأن تواصل مراسلاتها مع إبراهيم في محاولة لمساعدته على المقاومة، وكنت أريد أيضا أن أقنعها بالتخلي عن فكرة نشر تحقيقها في الصحافة الإسبانية، نظرا لما يعتري بعض المسؤولين عندنا من توتر كلما ظهر شيء في هذه الصحافة.. وقلت في نفسي في النهاية ليس للتحقيق سوى أهمية محدودة، إنه لا يخرج عن دائرة الإثارة التي توفرها محاكمات من هذا النوع. وكأنما سمعت فاطمة ما يدور في خلدي فقالت فجأة: إن ما سيثير في هذا التحقيق هو العلاقـة المحتملة بين البلاك ميتال، والجماعات الإسلامية!

قلت: سيكون ذلك مجرد لَعِب لا علاقة له بالحقيقة.

فطلبت مني أن لا نضيع الوقت القليل المتبقى لنا قبل الإركاب في ثرثرة مهنية.

استجبت لها متوددا ولم أعد للموضوع، فراحت تحثني على الاهتمام بنفسي.. بالفحوصات السنوية التي يجب أن لا أنساها، خصوصا فحص البروستات، ومراقبة الضغط، ثم لماذا لا أخصص وقتا أكبر للكتابة. لماذا لا أسافر، تعال إلى مدريد.. أنت تحتاج إلى مدينة لها ليل حقيقي.. ثم

لماذا لا يتضح أي شيء في علاقتي بليلى؟ وماذا تريدين أن يتضح؟

أقصد كل شيء، وأول شيء هل هناك قصة حب؟ وكيف تريدين أن أعرف؟ أعرف أن هناك قصة، ولكن أعرف الأهم، هو أنني مرتاح جدا في هذه العلاقة.

وسألتني عما إذا كنت أصبغ شعري. أبدا، قلت غاضبا فاستدركت، لديك فقط بعض الشعيرات البيضاء، هنا، وهنا أيضا، وهناك، ومررت أصابعها في الأماكن التي تعني.

قلت: إذا بقيت على قيد الحياة، ولم يشتعل رأسي شيبا سأجيء إلى مدريد!

وقفت لتتجه نحو باب الإركاب، وعانقتني بسرعة كأنها تتخلص من أمر مزعج وقالت وهي تجمع أشياءها بعصبية:

لا تقل أبدا إذا بقيت على قيد الحياة، إنها جملة تصيبني بالانهيار.

في طريق العودة من المطار، توترت أعصابي بسبب هذا الوداع السيء، ووجدتني منغمرا في ملاسنة بعدية مع فاطمة حول الطريقة التي تلومني بها ضمنيا على شيء لم أقترفه. ماذا تريدني أن أفعل؟ كان يجب أن أخون زوجتي معها منذ اليوم الأول.. ولو فعلت لكانت علاقتنا قد انتهت على أحسن ما يرام منذ سنوات. ولكننا لم نفعل.. وتركنا الأمر مفتوحا على المواعيد الخاطئة. وأثناء ذلك أصبح كل واحد منا ضرورة قصوى لاستمرار الحياة. ماذا تريدين أن أفعـل؟! هل من الممكن بناء شيء على الأنقاض.. حتى الفرسيوي لم ينجح في ذلك.. ثم ختمت هذا المونولوج الغاضب بسيل من الشتائم المختارة وجهتها لنفسي ولفاطمة لأسباب بديهية، ثم للفرسيوي بدون سبب ظاهر.

- 3 -

تلفنت لأحمد مجد لأستحثه في موضوع الشقة التي اشترتها ليلى من مجموعته بالرباط.. كانت قد طلبت إجراء تعديلات بسيطة داخل الشقة فتأخر ذلك.. وعلى هامش الموضوع سألني أحمد عما إذا لم أكن أرغب في الحصول على معلومات ثمينة حول فضيحة عقارية جديدة.. فأجبت مازحا:

- هل تتعلق بمجموعتك أم بالمجموعة العقارية المنافسة؟!

لكنه لم يضحك وقال إنه يفضل أن نتحدث في الموضوع بشكل مباشر.

مررت بالمشروع الكبير الذي يشيده أحمد في ضواحي العاصمة، عمارات من النوع الممتاز، وسكن اجتماعي لتبرير الأرض المفوتة له بثمن بخس، ومنطقة فيلات، كل ذلك في الأرض التي كانت تأوي مرافق المستشفى القديم ومؤسسات العمل الاجتماعي لعدد من الوزارات. وقد تم تفويت هذه الأرض لمجموعة أحمد مجد قريبا من الحزام الأخضر الذي لم يكن ممكنا استعماله لهذا المشروع، ودخلت الدولة إلى الحزام نفسه متذرعة بدورها الاجتماعي. وفي هذه العمارات الجديدة اشترت ليلى شقة صغيرة، وضعت فيها كل مدخراتها كما ستضع فيها نصف راتبها الشهري لأزيد من 10 سنوات.

تساءلت عما إذا لم يكن مناسبا بالنسبة لي أن أشتري أنا أيضا شقة في

نفس العمارة. وبذلك نقترب من شيء يشبه حياة عائلية نقتسمها بدون ضغوط السقف الواحد. وراقتني الفكرة فعرضتها فورا على ليلى التي بقيت شاردة بضع لحظات قبل أن يتدفق حماسها بطريقة جعلتني أدخل فورا في مغامرة عقارية غير محسوبة العواقب.

كان هذا أول قرار اتخذته في حياتي من أجل ليلى. قبل ذلك كنا نتحدث ذات يوم عما يساهم في بناء علاقة ما، فاعترفت لي بأن عناصر الحياة اليومية تنقصها بشكل مأساوي في علاقتنا، أن تأتي بقنينة الغاز مثلا، وتركبها بنرفزة من لا يتقن هذه الأشياء، أو أن تعد الإفطار، أو تنسى فتستعمل فرشاة أسناني، أو أن أصرخ في وجهك لأنك تركت الفوطة المبتلة فوق الفراش، أنت تعرف أن ذلك يثير أعصابي، لماذا تلقيها هكذا، والجوارب؟ أكره جوارب الرجال حتى ولو كانت نظيفة، بل وحتى لو كانت جديدة لم تستعمل أبدا. هل يحدث لك أن تترك الثلاجة مفتوحة مثلا؟ نعم ودولاب الملابس، وصنبور الماء في المطبخ.. يا إلهي، هذه أشياء يمكن أن أقتل بسببها!

قلت من الأفضل إذاً أن لا نقتسم شيئا يتسبب لنا في نهاية دموية! وعند ذلك عبرت لي ليلى عن شيء مفاجئ، فقد قالت إن ما يسعدها في علاقتنا هو أنها منذ اليوم الأول منبع للدهشة، إنها تستغرب كيف وقعت علي، وتستغرب كيف نستمر، تستغرب كيف لم نلتق منذ سنوات، وتستغرب كيف لم نخطئ بعضنا في الطريق رغم أن كل شيء كان يدعو إلى ذلك.. وتستغرب خصوصا أننا نعيش حباً لا نقوله، لا نتوقعه، ولا نحتاج إلى تدبيره..

خفق قلبي عندما تحدثت عن الحب، كما يحدث لمراهق يفكر لأول مرة في ذلك، وكما حدث لي عندما استعدت حاسة الشم وأنا أضع وجهي

في قميص ياسين، أحسست بليلى تنهال علي دفعة واحدة، كما لو تكون ماءًا احتبس لمدة طويلة خلف صخرة عظيمة، قبل أن ينجح في إزاحة الصخرة والتدفق بكل قواه على كياني.. ولم يكن لي خيار سوى أن أترك نفسي لصخب الماء يحملني لا أعرف أين أطفو وأغوص، متحللا من الزمن طالما أن الزمن كله تكثف في هذا التدفق العارم.

سأقول لليلى مساء هذا اليوم، ونحن نغادر بيتها إنني أحبها، وستجيبني بكل بساطة، أعرف ذلك.. قلت بغير قليل من الخيبة، ولكنني لم أقلها لك أبدا، قالت، بلى قلتها مليون مرة دون أن تنطق بها. قلت.. لا لا لا، هناك سوء تفاهم فظيع.. العاطفة نفسها.. أقصد عاطفة الحب، لم تراودني أبدا.. أنت تعرفين، كنت أحس أن الشخص الذي هو أنا والذي لا يحس بعاطفة الحب، هو في الحقيقة يحبك.. لكن هذا الإحساس لم يكن سوى إدراك بارد، لا علاقة له بما أشعر به اليوم.

صعدنا إلى السيارة، وعندما استأنفت الحديث أوقفتني قائلة: إن هذا الموضوع لا يهمها إطلاقا، ثم استولت على يدي وضمتها إلى صدرها وقالت إنها تريد أن تنام قليلا وأنا أسوق باتجاه المطعم الياباني، ثم قالت أنظر إلى السماء كم هي رائعة.. هذه السحب، وهذه الألوان الذائبة، والضوء، يا إلهي، هل ترى الضوء؟. . نعم نعم.. قالت إنها سماء من أجلنا.. ضحكت مستغربا فأصرت.. حقا إنها سماء من أجلنا كلما مارسنا الحب حصلنا منها على هذه الهدية..

سقت صامتا ويدي عندها تحت أنفاسها، وعندما وقفت قرب مطعمنا كانت ليلى مستغرقة في نوم عميق فأطفأت هاتفها وهاتفي، واستلقيت دون أن أسترجع يدي غير عابئ بفضول المارة..

لمرات عديدة قالت ليلى إنها طوال حياتها كانت تبحث عن رجل مريح،

وأنني قد أكون ذلك الشخص، وكنت أوعز حماسها هذا إلى عجزي الكامل عن مطالبتها بأي شيء، لكنني انتبهت فيما بعد إلى أن الأشياء القاسية التي مرت بي جعلتني أتحرر من أجزاء كثيرة من نفسي دون أن أخطط للأمر أو أعبئ له جهدا استثنائيا لذلك صرت أراقب ما يحدث لي كأنه يحدث لشخص آخر، وصارت هذه المسافة تمنحني قدرة دائمة على سخاء مريح لا أفهمه على وجه الدقة إلا عندما ألمس آثاره البهيجة على محيطي.

لكن ليلى كانت تعرف كل شيء. كانت تعرف كيف أشتغل، وما هي أعطابي على وجه التحديد، وكانت تعرف أنني في مكان ما من مساري الذي يشبه مسار البهلوان، توجد لحظة اختلال يمكن أن تسقطني في فخ هاوية سحيقة.. لذلك كانت تخاف جدا من أن تفاجئني هذه اللحظة في مكان خطير، أو في مقام يخل فيه سقوطي بكرامتي. وأنا أيضا كنت أخاف أن تداهمني النوبة وأنا معها، لم يكن يهمني إطلاقا أن تحدث لي في القطار أو في الشارع. ولكن ليس معها.. إلى أن حدثت ذات يوم، فرجوتها أن تستمر في التحدث معي، ليس في شيء محدد، بل فقط بكلمات مسترسلة كأنني سأتنفس بهذه الكلمات.. ففعلت ذلك ببراعة مذهلة كأنها تدربت عليه لسنوات، وبعد ذلك لم أحتج أبدا للإيحاء لها بما يتوجب فعله، كانت تعرف أن النوبة قادمة قبل أن أحس بها، وكانت تمسك يدي وتعبر بي تلك اللحظة المعتمة، كأنها توصلني إلى مقعد مريح.

كانت ليلى تعرف أيضا أنني أحبها، أنني أستعيدها من مخالب فقدان مفترس، أنني أجري وراء وجهها الغائب في تفاصيل حدثت في حياتي أو لم تحدث، أنها أصبحت إمكانا لا يتجزأ منذ اليوم الأول. كانت دائما ممكنة. وإذا لم تتجسد في لحظة ما فليس لأنها لم تكن هنا، بل لأن اللحظة لم تكن.. والآن هي في لحظة لا نهائية.. وأنا أيضا. هناك صحراء أعبَرها

وأعرف أن الفردوس يوجد في منعطف ما من هذه الشساعة.

هي تعرف ذلك، وتقول ردا على كل وضع يربكنا.. هذا شيء لا يخصنا، إنه يحدث لأشخاص آخرين، مستعيرة صورة تعرف أنها تعبر بدقة عن علاقتي بالعالم.

تسلمنا شقتينا معا في نفس الأسبوع. لكنني أمضيت شهرا كاملا أصفي ممتلكات البيت القديم، ذلك لأنني قلت لليلى ليس هناك أي معنى لهذه الشقة إذا لم أتمكن من أن أحقق فيها رغبة تسكنني منذ المراهقة وهي أن يكون لي بيت خاو أبيض، وبدون جدران تقريبا. وكذلك كان. ساعدتني مقاولة من مقاولات أحمد مجد على تحقيق فكرتي. حجزت مكانا من الشقة وضعت فيه غرفة النوم والحمام. وجعلت الباقي كله فضاء واحدا بشرفة ضخمة تمتد على الواجهة الغربية كلها، حيث يبدو المطبخ يمينا عندما ندخل ويمتد الباقي حتى البقعة الزرقاء التي تظهر من المحيط. وفي كل هذه المساحة البيضاء لا توجد سوى ستائر بيضاء، وطاولة واطئة كبيرة سوداء وأربعة طنافس بيضاء للجلوس، وفي ركن المطبخ حرصت على إدماج كل الأدوات المنزلية في إطار من الخشب الأسود بأحجام مدروسة تجعل منها جدارا محايدا لا يشوش على الخواء المُهيمن. وأضفت لذلك قطعة واحدة من رفوف مكتبتي وضعت فيها عددا ضئيلا من الكتب احتفظت بها لما تبقى من الصحراء، وقد وضعت الكتب في المطبخ اقتناعا مني أنها من صنف التوابل والزيوت والمصبرات، وفي الأدراج السفلى للمطبخ كدست الوثائق والصور التي لم تطاوعني نفسي على إحراقها. وقبل يومين من استقراري بالشقة الجديدة، كنت قد بعت كل لوحاتي، مستفيداً من الإرتفاع المذهل لأثمنتها، ووهبت مكتبتي لجمعية بحي يعقوب المنصور بالرباط، وتنازلت عن أثاث البيت لأول صديق قديم قَبِل

بذلك، وابتكرت للشقة مفتاحا واحدا كبيرا من النحاس الأحمر الخالص.

لكن لا أحد أحب بيتي على الإطلاق، كل الأصدقاء الذين زاروني وجدوه باردا وموحشا وسخروا من نظرية الدار الجرداء. حتى ليلى قالت إنني استوردت الفراغ الياباني إلى ثقافة لا تجد نفسها إلا في الزحام. ومع ذلك صمدت في موقفي مخافة أن أصاب بانتكاسة نفسية إذا رجعت إلى الوراء، ثم انتبهت فيما بعد إلى أنني لا أشغل من الشقة سوى غرفة النوم في أغلب الأحيان. وأن ذلك الفراغ الأبيض لا تسكنه في نهاية المطاف سوى أرواح غامضة.

ثم حدث ذات مساء أن جلسنا ليلى وأنا في هذا الفضاء الروحي وتناولنا عشاء بطيئا سمح لنا برؤية ظلالنا ولهب الشمعة، والسمكة البرية كما أدعو منحوتة الوزاني الواقفة على الطاولة، في زجاج الشرفة، بينما السماء ما تزال مضاءة بغروب طري. وكنت أذهب إلى المطبخ وأعود منه دون أن أقطع حديثي معها أو أن أغيب عن أنظارها.. فقالت إنها فكرة عملية ولطيفة أن يكون المطبخ كله مفتوحا على غرفة الجلوس. فالمفاجآت عندئذ تتركز في مذاق الأشياء، وليس في أي شيء آخر، لقد رأيت منذ البداية تضيف ليلى، أنك كنت تهيّء سمكا لكن ذلك ضاعف مفاجآتي بمذاق الزعفران الحر في شرائح الدوراد - المنقوعة في زيت أرگان و«الليمون الدق» لدرجة أن المكان والأكلة سيظلان إلى الأبد وجهين لعملة واحدة. شيء مدهش حقا هذه العلاقة التي تنشأ بين الطعوم والأمكنة.. وعندما أظلم الأفق تماما طلبت ليلى أن أسحب الستائر، لأنها تتخيل دائما أحدا ما يراقبنا من قلب العتمة. ففعلت ذلك متأكدا أن الثوب الأبيض المتهدل، ذا المظهر المحبب، سيعطي لهذه الواجهة الزجاجية بعدا قطنيا يغير تماما حسية الفضاء الداخلي.

وبالفعل ما أن اختفت أنوار المدينة ونزل بياض الستائر على شفافية الزجاج، حتى أينع شيء ما في هذا الجو، وأصبح الضوء والفراغ مثل ريح مجنونة تعبث بالعقل، وتزرع في كل الأشياء شهوة متقدة. قالت ليلى لولا أنني خجولة لمشيت عارية في الغرفة، فدنوت منها، وأخذت في استدراج عريها مستسلما في ذلك لأصابعي ولشهوة عارمة لم أذق لها طعما منذ سنوات، أحسست في لحظة ما أنني لا أعرف حركاتي، أن شيئا ما يجعلها تنبع من جسدي من تلقاء نفسها، كما أحسست أن تفاصيل جسدها تداهمني لأول مرة دون أن تمر من تلك المصفاة الذهنية التي كانت تقودني إليها، وصلتني عبر جيدها وصدرها ونعومة ظهرها، وأغمضت عيني مستسلما لأناملها تجوس في ملامحي، وداخل كل رعشة تخترقني، وسمعت لأول مرة أصواتها الداخلية تنمو بين يدي، تأتيني من تدفق غائر، ليس لغة، بل عزفا مشدودا، ثم وجدت نفسي داخل أنفاسها، داخل عذوبتها، داخل محارة مغلقة أتحول فيها إلى مجرد شذى بحري تنثره أملاح وطحالب بعيدة. ثم وجدتها تقاوم اقتحامي باندفاعات متوترة، مزيج من مد وجزر، إلى أن نجحت في ابتكار انكسار صغير في موجتنا، فقالت إنها تريد أن تمشي عارية، فتبعت بيدي وشفتي نهوضها التدريجي،حتى وضعت بوقفتها قدمين صغيرتين بأصابع طويلة مرسومة بعناية على نفس الرخام الذي أدفئه بوجنتين ملتهبتين، رأيت أصابعها تتحرك عندما لمستها بشفتي، ثم رأيت القدمين تنتقلان مثل أجسام مضيئة. بقيت ممددا كما كنت، لا أرى من مشيتها في الفراغ الأبيض سوى قدمين ترتفعان عن التماعة الرخام وتعودان إليها بتناسق مبهج، وعندما لسعني البرد اعتدلت في جلستي وطلبت من ليلى أن تقف على خلفية الستائر، ففعلت ذلك بامتثال مثير، عند ذلك رأيت لأول مرة تعبير وجهها. فأحاط بي ما يشبه سحبا كثيفة

جراء ما رأيت، كان وجهها قد امتلأ بالخواء الذي مشت فيه، فأصبح له بعد ميتافيزيقي كما لو أن المجهود الذي بذلته، والرقصة السرية التي مارستها قد سكبا في تعبير وجهها مسافات لا نهائية، مددت ذراعي نحوها لمدة طويلة فلم تتحرك، ظلت واقفة بكل شهوتها أمام الستائر. عند ذلك قلت لها متوسلا.. أرجوك.. المسي جسدك.. فحركت يديها معا ابتداء من وجهها ثم نزلت بهما على كامل جسدها حتى وصلت بيد واحدة إلى أسفل بطنها، عند ذلك سحبت يدها الأخرى جزءا من الستائر وغطت به حركتها المهتاجة التي لم يعد يبدو منها سوى ارتعاش الثوب وامتلاء وجهها بظلال لذة كاملة.

وقعت في غرام شقتي منذ هذه الليلة.. ومنذ هذه الليلة أيضا أحسست بشكل واضح أن ليلى ستأخذ مكان الأرواح الغامضة، وستسكن في هذا البيت كما تسكن في جلدي، خصوصا وأنها وجدت فكرة الكتب في المطبخ فكرة جيدة، بل وساعدتني على التخلص من كتب كنت أعتبرها أساسية في حياتي، مثل بعض الأعمال الشعرية الكاملة لهولدرلين، وريلكه، وهنري ميشو، وبيسوا. قالت إن الشعر لا يكون جميلا عندما يكون في متناول اليد، عندما تريد قراءة أحدهم، اذهب إلى المكتبة واقرأ قصيدة واحدة.

ثم طورتُ نظرية الحد الأدنى لتشمل ما أحتفظ به من موسيقى وملابس، وكنت سعيدا أن أرى نفسي مجردا من أثقال السنوات التي تجعلك تتعلق بأشياء تافهة، وتكدسها حولك متوهما أنك تحتفظ بالسنوات نفسها، بل بدا لي أن هذا التجديد الذي لحق الأشياء في حياتي قد شحنها بروح جديدة، كأن شخصا إضافيا جاء ليعزز المعركة التي أخوضها من أجل البقاء.

- 4 -

عندما لاحظ الطبيب الذي يعالجني هذا التحسن العام في أحوالي نصحني باستكمال عافيتي بالمواظبة على رياضة تجمع بين الجسدي والذهني، وأشار علي بنادٍ لليوغا على طريقة البيلاطيس، الشيء الذي استجبت له بحماس طفولي، لكنني لم أطق الطابق التحت أرضي الذي يوجد به النادي، ولم أطق كذلك أن يضحك الزبناء من حركاتي المضطربة، فانسحبت بهدوء لكنني مررت في هذه المحاولة بتجربة عنيفة، فقد التقيت شابا يشبهني تماما، بل يشبه ياسين كما تشبه نقطة ماء نقطة أخرى، وعندما قلت له ذلك أجابني مبتسما:

- جائز جدا أن تكون أبي، فأنا ابن طبيعي لامرأة ماتت عازبة.. ثم أضاف: إذا كنت قد تعرفت قبل أربع وعشرين سنة على مدرسة شابة من مدينة خنيفرة، وعشت معها ما يمكن أن يسفر عن خلق جديد، فمعنى ذلك أنني طفلك الضائع وأن عليك أن تجد لي من الآن مكانا في حياتك.

ثم ما لبث أن انفجر ضاحكا عندما رأى ما بدا علي من اضطراب وتوتر، وقال متوددا:

لا تخف، لن أحاصرك، لا أريد أبًا يتوجب علي أن أقتله لأعيش بسلام.

ولم يكن يعرف أي قنبلة يلقيها في حياتي بجمله المقتضبة ذات النبرة العابثة، لأنني ببساطة كنت ذات صيف قبل 24 سنة على علاقة حميمية مع

امرأة تدعى زليخة، ثم افترقنا بشكل بديهي عندما حل الموسم الدراسي، ولم يكن في هذه القصة أي شيء استثنائي سِوى أنها كانت تشبه الممثلة الفرنسية رومي شنيدر، لذلك كنا ندعوها أنا وأصدقائي رومي. وها أنا اليوم أتذكرها وأكاد أشعر بأن المأساة الحقيقية الوحيدة التي عشتها هو اختفاء هذه السيدة في خريف بعيد، ثم موتها المفاجئ الذي لم أعلم به، ثم ظهور ابننا المحتمل مهندس الإعلاميات الذي يحب اليوگا والأفلام الكوميدية. وعند ذلك داهمني الشك في أن تكون زليخة هي المرأة التي ضاعت مني، ولم أستطع تذكرها، وربما تسرب إلي خبر موتها دون أن أدرك ذلك جيدا، فتبعت كل إمكاناتها المرجوة في الحياة، وصنعت منها ضالَّةً غير واضحة. وكان هذا الشك سببا في تعذيبي ليس فقط لأنني أخيرا وجدت معنى لتيهي الوجداني، ولكن وبالأساس لأنني عثرت على المعنى ولكني لم أعثر على المرأة حتى كمجرد ذكرى بعيدة!

وإذاً يمكن للفرسيوي أن يطمئن على السلالة، فقط لو يظهر من جديد، ويتأكد أننا مهما حاولنا الأفلات من بذورنا، فإنها تختط لنفسها مسارا يوقعنا عاجلا أو آجلا في شرك السلالة.

عشت بضعة أسابيع في دوامة هذا الاكتشاف الصَّاعق الذي أخبرت به ليلى فعلقت ساخرة:

ستكون غبيا إذا اعتقدت أن الأبوة مجرد بذور طائشة!

أما فاطمة فقد طلبت مني فقط أن أتريث قليلا وأسأل الشاب عما إذا كانت أمه تدعى فعلا زليخة. فرجعت إلى النادي من أجل ذلك، وعندما خرج من القاعة اقتربت منه وسألته فرد مبتسما:

- طبعا اسمها زليخة!

ثم سألني بجدية بالغة:

- هل تريد أن تقطع الشك؟

هززت رأسي بالإيجاب فقال:

ـ لنقم بتحليل للحمض النووي، فإذا ثبتت بنوتي لك فسيكون الأمر واضحا.. يجب أن تمر للنادي في أقرب وقت وتدفع لي واجب الاشتراك الشهري!

رأيته يبتعد ملتفتا نحوي بضحكته ووجهه المرح، فلم أجده يشبهني ولا يشبه ياسين للحد الذي توهمته في المرة السابقة، لكن قلت في نفسي ربما يشبه زليخة كما لا أتذكرها الآن، هي التي لن أتذكرها أبدا.

وفي الطريق إلى البيت فكرت مليا في ما يحدث لي، وقلت هذا أيضا احتمال من احتمالات أخرى يمكن أن يدخل على الخط. أن تكون مشغولا في تدبير فقدان ابنك الوحيد، ثم تجد نفسك فجأة أبًا في قصة أخرى. أن تكون في انتظار مولودة بكل ما أوتيت من فرح، فتجيء معاقة بشكل يصادر حياتك كلها.. وأن تظن بأن حياتك قد انتهت بمجيء هذه المولودة، فإذا بها تصبح لأول مرة ذات معنى. لا يعرف أحد ماهو الاحتمال الأكثر قدرة على إراحته، قلت هذا لنفسي، لأنني شعرت بأنني كنت أقرب إلى السكينة في الفجيعة التي جسدها ياسين، مني في هذه الحكاية الجديدة.

وقد قلت ذلك لفاطمة، فاقترحت علي أن نخرج من هذه المياه الضحلة، بتبني طفل معًا، حتى دون أن نكون مع بعضنا. حاولت أن أتفادى الموضوع، فألحت، لن يتطلب منك الأمر شيئا، سوى أن تكون أبا عن بعد، أن نشترك في بناء إنسان، سترى، لن يتطلب الأمر سوى بضع سنوات، ربما أقل مما تتطلبه شجرة، فيصبح هذا الإنسان كائنا يملأ القلب والعين.. ثم، تصور، كم من الأشياء سنصلحها بهذه المغامرة، حتى تلك التي أفسدها الزمن..

قلت لفاطمة، إنني لم أعد أقوى على شيء من هذا القبيل. فجعلني صمتها في الهاتف أتألم لما قلته لأنني أدركت أنها لم تقل ما قالته إلا كصرخة استغاثة قصوى.

وفي نهاية اليوم كنت أمشي في زحام سوق العكاري، حيث يجعلني ذلك الغليان المرتبط بالأكل أقل توترا، فإذا بي أجد نفسي وجها لوجه أمام الشاب الذي كان يشبهني، رأيت أول ما رأيت ابتسامته العريضة ومرح ملامحه، قبل أن يفاجئني بتحية مبالغ فيها وبالحركة السخية لذراعه وهي تمتد لتطوق شخصا خجولا يمشي إلى جنبه، قال ضاحكا:

هذا أبي المسؤول الشرعي والوحيد عن هذه الكارثة، وأشار إلى نفسه معتزا.

غالبني الضحك أنا أيضا لكنني تماسكت وقلت له معاتبا:

- إنها دعابة قاسية!

خبطني على كتفي ورد متأففا: اطلق راسك.. الدنيا هانية، خلينا نضحكو.

عند ذلك أحنيت رأسي وانصرفت مستسلما دون أن أنجح في تحديد دقيق لمشاعري التي اختلطت فيها الخيبة بالفرح الغامر بالنجاة.

رويت جزء من هذه الحكاية لليلى بنوع من التفكه، فقالت إنها تجد كل هذا مؤثرا للغاية، وأنها قد أحبت الشخص كما لو كان ابني فعلاً، أو كَمَا لو كان ابننا معا من علاقة محتملة جرت قبل سنوات. وقالت إنها تحب هذه الخفة لدى شاب يُفترض أن يكون مثقلا بأعباء البدايات. وعندما سألتني عن اسمه استغْرَبْتُ لكوني لم أهتم بمعرفته، كأنما قصدت بذلك أن يظل مجرد احتمال. أما ليلى التي لا يعلم إلا الله كيمياء مشاعرها فقد أجهشت باكية، وقالت إنها تتألم لكوننا لا نستطيع أن ننجب طفلا. وعند ذلك لا أعرف

كيف سَهُل عليّ الأمر، فاقترفت أبشع سرقة يمكن لإنسان أن يقترفها، ذلك أنني اقترحت على ليلى ببساطة أن نتبنى طفلا وأن أكون أباه عن بعد، قلت لها ذلك وأنا ألح بشكل مرضي على أن يظل الأمر مكتوما كأنني أتمنى أن يمضي الكتمان إلى حد إلغاء الاقتراح جملة وتفصيلا. أما هي فقد انغمرت في أدق التفاصيل المتعلقة بالتبنى ومساطيره ومؤسساته مرددة من حين لآخر لماذا تلح على كتمان الأمر؟ هل تظن أن إفشاءه يهمني؟.

وهكذا جاءت مَي في حياتنا. لم نقل لأحد إنها طفلتنا ولكن كل أصدقائنا بمن فيهم فاطمة فهموا ذلك ولم يعلقوا عليه، إلا بهية، فقد فتحت معي الموضوع مرتين أو ثلاث، مرة بشكل غير مباشر، متحدثة عن ليلى ومعربة عن إعجابها الشديد بها، مؤكدة إن فيها شيئا خالصا يجعلها متحررة من كل شك.. ثم أشارت إلى مَي باعتبارها تعبيرا عن هذا الصفاء العميق.. ومرة أخرى سألتني عما إذا كنت مقتنعا أن الطفل يمكنه أن يبني شيئا في علاقة رجل وامرأة. قلت ربما يحصل ذلك بطريقة ارتدادية، إذ عندما ينغمران معا في بناء إنسان مّا، فإنهما بطريقة غير مباشرة يعيدان بناء نفسيهما. فقالت إنها لم تشعر أبدا بذلك، لا فيما يخص ياسين معي، ولا فيما يخص الغالية مع أحمد مجد. ثم في مرة ثالثة سألتني عما إذا كانت مَي قد ملأت بعضا من الفراغ الذي خلفه ياسين. قلت لا. أبدا، واعترفت لها أن ياسين لم يختف تماما من حياتي. وأنه ظل يلازمني لسنوات طويلة ويشاركني في عدد من تفاصيل الحياة اليومية. وعندما رأيت الدهشة تلجمها تماما قلت إن المسألة ليست مجازية.. فقد كنت أراه فِعلا وأتحدث معه قبل أن يختفي مرة أخرى وإلى الأبد.

كانت بهية في هذه الفترة قد استقرت في الصورة الجديدة التي أصبحت عليها. صورة امرأة هادئة مرتاحة البال، زحفت عليها السمنة

تدريجيا فأصبح جسدها مطابقا تماما للوضع السائد، وشيدت حول نفسها سياجا من الاهتمامات المدروسة بعناية، كلها تصب في الأعمال الخيرية والمبادرات الاجتماعية والحفاظ على تراث الملحون. وما يتصل بذلك من سهرات البيوت والرياضات والفنادق وكل ما يسوق نحو الهالة التي تحيط بأحمد مجد مزيدا من الإنارة الباهرة. لكن لم يكن يبدو على بهية أي شغف بما تفعله. ولم يكن يتسرب إلى حديثها أي حماس، سوى ذلك الذي تبديه في الدفاع عن زوجها وعن فورة العقار كتعبير عن الصحة الممتازة للبلد، وقد رأيتها تفعل ذلك يوما في بيتها الجديد بمراكش فصعقت من الشراسة التي كانت تضعها في هذا الدفاع. وقلت لها بعد انصراف الضيوف، إنه لا شيء كان يستدعي ذلك، خصوصا وأن أحمد مجد كعادته كان يرد على المناوشات بسخريته اللاذعة واستخفافه بعقول خصومه. فأجابتني بعصبية إنها لا تفعل ذلك من أجله بل من أجل نفسها.

كانت مراكش كلها في هذه الأثناء تتحدث عن علاقة أحمد مجد بكاتبته الخاصة، حيث لم يعد يكتفي بالظهور معها في المطاعم والفنادق، بل صارت تلازمه في أسفار طويلة إلى الإمارات والسعودية التي عادت منها في المرة الأخيرة محجبة تتحدث عن تفاصيل عمرتها مع الحاج أحمد بنبرة خاشعة.

وكان بعض أصدقائنا مقتنعين بأن الأمر يتعلق بزوجة ثانية تتستر الأطراف المعنية عليها، لكن بهية لم تترك شيئا في حديثها أو سلوكها يشي بوجود هذه الزيجة، ثم حدث من حين لآخر أن جمعنا كسكس يوم الجمعة على مائدة واحدة مع كل أطراف الحكاية الواقعي منها والمتخيل، الظاهر والباطن، ولم يبد على أي واحد منا أنه كان يعرف تفاصيل أكثر من الآخر.

الفراشة

- 1 -

قال لي أحمد مجد إن فضيحة عقارية ستنفجر قريبا، يتعلق الأمر بالمشروع السكني الفاخر «النافذة الزرقاء» بمدينة تطوان، الذي شيدته مجموعة «السور الوطني» على أرض اشترتها من تاجر مخدرات معروف، وقد تبين بعد تدشين المشروع بالطبول والمزامير، أن الأرض في ملك الدولة وأن تمليكها للتاجر المذكور تم بتزوير وثائق عقارية الشيء الذي أدى إلى اعتقالات واسعة في صفوف الإدارة ودفع بالمحكمة إلى النطق بحكم واضح لصالح الدولة جعلت المنعش العقاري مجبرا على دفع ثمن الأرض مرتين، وجعلت فضيحة تدشين مشروع لعلية القوم على أرض مسروقة وضلوع أطراف متعددة في النصب والاحتيال والتزوير تنفجر في الساحة العامة.

قلت لأحمد مجد، لا يمكن إلا أن تكون سعيدا بذلك، فالفضيحة تخص أكبر منافسيك. لكنه رد هادئا إنه لا يتنافس مع أحد، وأن حياته وحياة أجيال من بعده لا تكفي لتدبير النجاح الذي حققه. ثم أضاف إنه يثير المسألة لشعوره بخُطورة هذه الصفقات الفاسدة على مستقبل الديمقراطية في المغرب، فلم أجد بدا من أن أجيبه ضاحكا بأن صفقة الأربع هكتارات وسط مراكش التي اشتراها من الدولة بثمن بخس زعما بأنه سيدفع مقابل ذلك ثمن إجلاء السكان المتسللين إليها، ثم بيعها بعد تحريرها بثمن أقل من ثمن السوق خمس مرات لجهة نافذة لم تجرؤ على أخذ الأرض

مباشرة من الدولة مقابل الحصول على أراض أخرى في مراكش ومدن أخرى بثمن رمزي، هي أيضا صفقة فاسدة.

لكن ذلك لم يحرك فيه شيئا بل أجابني، وهل ترى في أي جزء من هذه التركيبة، عقودا مزورة، أو تحايلا على القانون، أو شراء للذمم؟ هل تريد أن تجرم لأغراض سياسية غامضة عمليات البيع والشراء أو أن تمنع الذكاء الإنساني من اقتحام المجال العقاري؟!

قلت يائسا.. لا أريد شيئا من ذلك.. لا أريد سوى الإفلات بجلدي! عند ذلك ضحك مِلء رئتيه، وقال إنني آخر كائن في هذا البلد يعتبر أن كل ما يُفعل وما لا يفعل هو فقط للظفر بجلده!..

قلت، لست كذلك، ولكنني أتفهم أن أكون كما تدّعي، لأن هذه الطمأنينة العامة تزعجني. هذا الشعور بأن الجميع قد وصل إلى بر الأمان، وأن لا شيء يهدد غفلتنا هو شعور بليد ولا مكان فيه لأي شيء إنساني.

كان أحمد مجد في هذه الفترة ينجز عمارة حياته كما يقول، وهي عبارة عن مبنى ضخم جنب الشارع الرئيسي الجديد، حيث يفترض أن لا تزيد الأبنية على أربع طوابق لتستمر رؤية ما تبقى من الأطلس الكبير ممكنة من داخل المدينة، لكن أحمد مجد كان قد خاض حربا ضروسا من أجل الوصول إلى تسع طوابق، وكلفته هذه المعركة أن يقتني بثمن السوق أرضا مجاورة مكنته من زحزحة بنايته بضعة أمتار بعيدا عن الموقع الأول الذي كان يحجب رؤية الأطلس بشكل كامل.

كان أحمد مجد يقول، المدينة مدينة والجبل جبل.. لماذا يريد بعض العباقرة أن يشربوا قهوتهم في الشارع ويتجولوا بعيونهم النائمة في الأطلس الكبير؟ ثم اسمح لي يا أخي، لا أحد ينظر إلى الجبل وهو يمشي أو يسوق في الشارع، هذه مجرد خزعبلات سياحية تختزلها تلك الصورة

الغبية أن تستلقي تحت نخلة فارهة، وتَعُبَّ زهر البرتقال وتتفرج على ثلج الأطلس.. هراء.. لم يبق إلا أن تضيف طنجية لهذا المشهد ليخرج لك «الگلاوي» من تحت الأرض!..

وبالرغم عما قيل عن «العمارة»، استمر أحمد مجد في إنتاجها وفق تصوره المستفز زاعما أن ما ينقص مراكش هو بناية تخرجها من نكهة الماضي السحيق، وتضخ فيها نصيبا من الرعونة تكسر صرامة الحمرة والنخل والمظهر العام لمحطة صحراوية للقوافل.. لذلك كانت عمارته على شكل فراشة ضخمة يحتل الملهى الليلي طابقها التحتي الأول والمطاعم طابقها الأرضي، وقاعة الحفلات الضخمة، والمحلات التجارية الطوابق الخمسة الأولى بينما تتوزع الشقق الفخمة الطوابق الباقية منتهية بشقة مدهشة في مجمل الطابق التاسع تجعل الكتبيـة في كف من يتربع على شرفاتها الفسيحة.

في كل هذه الطوابق تبارت شركات أجنبية على إنجاز هندسة داخلية بلا ملامح، غير ملامح المواد والأشكال، وهندسة خارجية بهيئة فراشة محلقة، ما لبث المراكشيون أن أطلقوا بسببها على العمارة إسم بوفرطوطو، الذي أصبح إسما رسميا في مواعيد المدينة وخرائطها.

كان الناس يتعجبون من انبثاق هذا المبنى بشكله المستفز في قلب المدينة التي يحرس عتاقتها جيش من المحافظين والمخبرين والفضوليين.. لكن بعضهم فقط كان يعرف أن شقق الطوابق الأربعة العليا هي التي جعلت العمارة تنبت دون أن يراها أحد. وعندما كنت أسأل أحمد مجد عن أصحاب تلك الشقق الفاخرة، متظاهرا بالبراءة التامة، كان يذكر لي عددا من أثرياء الخليج وصانع عطور فرنسي ذا شهرة عالمية بالنسبة للطابق الأخير.ولكنه لم يكن يذكر لي مغربيا واحدا في الموضوع، فكنت أبتسم

لذلك، فيبتسم بدوره ويقول العمارة رمانة مغمضة، لا داعي للإلحاح!

في اليوم التاسع من شهر ماي من تلك السنة، نظم أحمد مجد افتتاح «الفراشة» وكان حفلا مثلما خطط له منذ سنوات يفوق كل ما يتخيله الناس عن الحفلات، حتى أن حفل إعادة فتح فندق المامونية الذي جرى في الثمانينات من القرن الماضي ووصلت أصداؤه حتى أبهاء السجن المركزي بالقنيطرة حيث كان يقضي سنوات السجن دون أن يخطر له على بال ما سيحدث بعد أقل من ربع قرن.. حتى هذا الحفل بكل أبهته لم يكن ليصل إلى عشر ما تخيله أحمد مجد لافتتاح عمارته الجديدة.

وسيذكر الناس لسنين طويلة كيف وقف مئات الشباب بنفس الزي التقليدي الأحمر، ونفس الطاقية المراكشية المعرقة على جانبي العمارة، وكيف غزت آلاف الفراشات سماء مراكش تقودها خيوط غير مرئية، وآلاف العصافير الملونة، وأسراب الحمام واليمام، وكيف نقلت مئات النوق البيض ضيوف الحفل من فنادقهم إلى قاعة الحفلات، وكيف نزل شلال من الماء الهادر من قمة العمارة حتى ساحتها الرخامية. سيتذكر الناس الجوق الفيلارموني الذي جاء من برلين، وعشرات المطربين والمطربات الذين أحيوا سهرة في الساحة المجاورة وفي خلفية المنصة التي يصدحون فيها تتجلى الفراشة الكبرى بشرفاتها الملونة المضاءة. وسيتذكر الناس على وجه الخصوص أنه لأول مرة منذ بدأت مراكش تحتفل وتسهر وترقص، طاف على المدينة من ألفها إلى يائها مئات الرجال والنساء يحملون صحون التمر المجهول، وكؤوس الحليب التي صنعها أحمد مجد خصيصا للمناسبة، وعليها إسم العمارة وموعد افتتاح سوقها الضخم، وصورة الغالية الصغيرة تحتها مباشرة عبارة «هذا من فضل ربي». خذ التمور والكاس فابور، كان يردد الموزعون وسط زِحام لم يهدأ حتى تباشير الفجر.

كان الحفل الرسمي قد انتهى في حدود منتصف الليل، عندما قلت لأحمد مجد وماذا سنفعل بعد هذا الصخب الدعائي؟. . قال سنسهر قليلا في شقة الأحلام في الطابق التاسع ضيوفا على صاحبها صانع العطور الفرنسي الذي أدّى ثمنها عدًّا ونقدا قبل أن يضع قدميه في المصعد.. قلت هل يمكن أن أعرف الثمن؟ أجابني ضاحكا وهل يمكن أن تشوف وتسكت؟!

في مدخل الشقة، كان هناك ما يشبه بهوا دائريا على شاكلة القباب الأندلسية تتوسطه خُصّة يجري الماء فيها من أفواه خيول متشابكة من الرخام الأبيض، وقد وجدنا مجموعة من الضيوف يتحلقون حول هذه التحفة ويتحدثون بإسهاب عن النحات البريطاني المعروف الذي ابتدعها خصيصا لهذه الشقة. فخيل لي أنني أعرف النحات من كاتالوكٍ أحضرته لي فاطمة من معرض لكبار النحاتين الأوروبيين جرى منذ سنوات بستراسبورغ. تأكدت على الفور من فاطمة التي كانت جنبي ففغرت فاها دهشة وهي تقول إن ثمن المنحوتة وحدها يفوق ثمن شققنا جميعا.. فعلقت ليلى على ذلك متأففة لا يوجد شيء أكثر سوقية من هذا البهو.. وهو ما كانت فيه محقة تماما. ولكن لم يكن ليمس ذلك من قريب أو بعيد واقع الحال، لذلك لم أفهم غضب أحمد مجد الذي وصلته العبارة وهو يفتح لنفسه ممرا بيننا. ومع ذلك حرصت في ما تلا من السهرة على أن أظل مرحا، ومتحررا من كل عدوانية مجانية، كان أكثر شيء إبهارًا في الشقة هو المسبح الذي ينتهي عند حافة الشرفة الكبيرة ويعطيك انطباعا واهما أن الماء يتدفق على الشارع، وقفنا، ليلى وأنا، طويلا نتأمل المسبح المضاء وهو يكشف عن جدارية ضخمة من الفسيفساء، كنا نتأملها بانبهار عندما اقترب منا مضيفنا السعيد قائلا إنها فسيفساء بيزنطية، تتبعني منذ ثلاثين

سنة من بيت إلى بيت وأظنها استقرت اليوم بصورة نهائية في هذا الفردوس المعلق. قالت ليلى:

-وأين كانت قبل ثلاثين سنة؟

-لا أعرف على وجه الدقة، وكيل أعمالي اشتراها من مزاد بريطاني، لذلك أتصور أنها كانت في مكان ما في الشرق. ثم سألنا عما إذا كان انعكاس الضوء على الفسيفساء لا يزعجنا من هذا الموقع، فسارعت ليلى إلى التأكيد أنه لا يوجد أي انعكاس على الإطلاق، فقال المضيف:

حسنا، ذلك ما كنت أريد أن أتأكد منه، فقد وضعنا غلافا واقيا زجاجيا على اللوحة، وكنت خائفا من أن ينتج عن ذلك انعكاس للأشعة.

قالت ليلى: أنا أحاول فقط أن أتخيل الفراغ الذي خلفه اقتلاع هذه التحفة من مكانها.

قال متوددا: إنه مثل أي فراغ آخر يا سيدتي، مجرد فراغ!

قضينا وقتا طويلا نزور المعرض الضخم الذي تقدمه الشقة، منحوتات من الشرق الأقصى، ومنمنمات إيرانية، وزجاجيات تركية، وأخلاط من أنسجة وجلود وأواني فضية ونحاسية، ولوحات كبار الاستشراقيين من بينها لوحة لدولاكروا وأخرى لماجوريل، اقترحت عليّ ليلى مازحة أن نسرقهما، قلت لاشك أن نظام حراسة إلكتروني قد وضع خصيصا لحماية هذه الكنوز التي لا يمكن أن تعيش في حياتها سوى سرقة واحدة!. وقد عاشتها.

في البار الفسيح المطل على الكتبية وضعت سقيفة خشبية كبرى ونباتات ضخمة. جلسنا ليلى وفاطمة وأنا حول طاولة صغيرة جنْبَ الكونتوار، على مسافة من صخب الضيوف الذين تشتتوا حول المسبح وفي الشرفات المحيطة بالشقة كنا نتحدث في أشيائنا الصغيرة، عندما

أحسست بنظرات تخترقني، أو إذا شئنا الدقة بحضور يخترقني. توقعت أن يظهر كائن ما على حين غرة، الشيء الذي أفزعني، وجعلني عاجزا تماما عن الحركة وأنا أفكر بالفرسيوي ووالدتي وبزليخة. سألتني ليلى عمّا بي.. قلت، هل يوجد أحد خلفي، أو في الجانب الآخر من الكونتوار يراقبني؟. قالت إنها لا ترى أحدا..

رفعت عيني نحو الجانب الأيمن حيث توجد الثلاجات، ورفوف الفناجين والكؤوس، وهناك رأيته واقفا في وضع يطل منه على المدينة، بنظرته الحالمة، وعنقود العنب الحجري على كتفه، بيده المكسورة، وقامته المراهقة بكل قتامة الگرانيت المُطلة من القرن الواحد قبل الميلاد، قمت مرتعشا وتقدمت منه، فحصت قدمه اليسرى فوجدتها مبتورة من أربعة أصابع، هي التي ما تزال هناك في قاعدة التمثال بمدخل وليلي. صرخت منفعلا: إنه باخوس، باخوس وليلي. تحلق حولي عدد من الضيوف، وجاء أحمد مجد مكفهرا، وتمسكت بي ليلى، وراحت فاطمة تفحص التمثال، وتأخذ له صورا، أما أنا فقد أصبت بشيء لا أعرف ما هو، مزيج من الفرح والجنون والخوف. صرخ أحمد مجد في وجهي.. باخوس باخوس، وماذا بعد؟. قلت، لا شيء، يجب أن نأخذه، هذا كل ما في الأمر. اقترب مضيفنا من جوقتنا وسألنا دون أن تفارق البسمة وجهه مـاذا في الأمر؟ قالت فاطمة مجرد لقاء غير متوقع مع شخص نعرفه، قال الفرنسي:

ـ أحب دائما أن أكون سببا في لقاءات غير متوقعة!

أشارت فاطمة إلى باخوس قائلة، إنه صديقنا منذ حوالي ربع قرن أي منذ اختفى من بيت عائلته في وليلي.

لم يعلق على الفور، لكن وجهه ارتجّ بقشعريرة تدريجية وراح يشرح لسيدة جنبه، خصائص هذا الباخوس المراهق، الذي لا يعَدُّ إنجازا فنيا

خارقا، رغم ما يكون في التناسب بين سن الفتى وهشاشة حركاته من شعرية تكاد تخرج المادة من تقشفها. مع ذلك فقد أحببته من أول نظرة، كان ذلك بفرانكفورت بألمانيا. يجب أن أقول أنني لم أنفق ثروة هائلة في الحصول عليه.. من هذه الناحية لن أجازف إذا أكّدت أنه من أرخص القطع في مجموعتي.

لم نغادر الشقة إلا بعد عراك طويل، كنت أصر من خلاله على البقاء إلى حين حضور الشرطة وتحرير محضر بالعثور على باخوس. وكان الفرنسي وأحمد مجد وعدد من الناس لا أعرفهم، يؤكدون أن لا داعي لإفساد هذه الليلة، فالرجل لا ينكر شيئا ولا يهرب من شيء، ونحن كلنا رأينا باخوس، ولو أننا لا نعرف عنه خيرا ولا شرا، وماذا يضير أن ننتظر طلوع الشمس وانصراف الضيوف، ونهاية الحفل فنفعل ما يجب أن نفعله بدون تهويل.؟.

وقال أحمد مجد، ماذا يهمك تحديدا، باخوس أم الفضيحة؟

قلت: هما معا. ثم أضفت لكي أكون صادقا: تهمني الفضيحة أولا وقبل كل شيء.

أخيرا جررت قدمي من السقيفة إلى المسبح ثم إلى البهو ثم إلى المصعد، غير قادر على الإفاقة من حالة المَابَيْن التي وقعت فيها. فقد بدا لي أني عثرت على باخوس ولم أعثر عليه، فرحت لذلك ولم أفرح، فوجئت به ولم أفاجأ.

فكرت أن أتصل بالفرسيوي، ثم قلت في نفسي، وماذا سأجني من ذلك؟!

ربما نجحت في تقويض أسطورته بهذا الشأن، وماذا بعد، أليس من الأفضل أن يستمر في الاعتقاد بأنه يضحك على الجميع. وهل هناك شيء

أقرب إلى الحقيقة من الكذب نفسه، ما دام كلاهما يدل على الآخر..

كان الناس أمامي يدخلون المصاعد المزدحمة، وعندما يصبحون كتلة واحدة من الرؤوس والاعتذارات، ينغلق الباب، وتبتلعهم هوة غامضة، وكنت على وشك استخلاص عِبرة مّا من هذه الصورة الموحية، عندما دفعت بي ليلى إلى الهوة.

فاستسلمت لهبوط لذيذ، تمنيت أن لا ينتهي أبدا، إلى أن انفتح الباب على مشهد صاخب، تبينت في بؤرته فاطمة تنزف من أنفها وتصرخ، ولم أفهم إلا بعد لأي أن شخصين غامضين تلفقاها وهي تخرج من المصعد وانتزعا منها آلة التصوير بعد اعتداء صاعق..

ذهبنا لمخفر الشرطة فورا حيث صرحت بعثوري على تمثال باخوس المسروق منذ ربع قرن، وبحضور شهود ذكرت أسماءهم واحدا واحدا، وصرحت فاطمة بتعرضها لاعتداء ولسرقة مصورتها الرقمية وأكدت أن المبرر المعقول لهذه السرقة في مكان فخم ليس هو الكسب الزهيد لهذه العملية ولكن لأنني صورت باخوس في شقة الطابق التاسع بحضور أبرز ضيوف تلك السهرة، وبحضور صانع العطور الأكثر شهرة في العالم.

لم تعد لي أي رغبة في الحصول على شيء من وراء هذه الزوبعة، كنت فقط أريد أن أرجع إلى غرفتنا في بيت أحمد مجد، وأن أحمل مَي بين ذراعي، كنت أستحث ليلى للتوجه بسرعة نحو البيت مؤكدا أنني لا أريد شيئا، لا أريد قضية، ولا انتصارا، أريد فقط أن أحضن مَي. وقد جعلني هذا التأجج المفاجئ فريسة سهلة لخوف مدمر، فانقبض قلبي وتصورت أن لا أجد مي في فراشها، أو أن أجدها تسبح في بركة من الدم، داهمتني النوبة وأنا أغالب هذا الخوف.. لا أعرف لماذا تنتهز النوبة بالذات حالة الخوف لتهجم علي.

أخذت ليلى تنسج حبل الكلمات التي يفترض أن أتنفس من خلالها، وتلقي به في اللجة التي بدأت تبتلعني، بدأت أمد يدي للامساك بالحبل لكن يدي كانت تَعْوَجُّ وترتد إلى الخلف، وعندما حاولت باليد الثانية أن أعيدها للوضع الطبيعي، جمدت هي الأخرى حول صدري.

فأصبحت مغلولا تماما، بينما ليلى مستمرة في الحديث عن مَي التي خطت خطوتها الأولى أمس، بدون مقدمات، وقفت ونظرت صوبي، فقلت لها، تعالي.. تعالي نحو ماما، فخطت خطوة ثم خطوتين ثم كل الخطوات الأخرى التي أوصلتها إلي.. دون حتى أن تبتسم ولا أن تصرخ، كأنها تفعل شيئا تفعله منذ زمان، ثم رأيت وجها يطل من نافذة السيارة.. ورأيت حديقة وشخصا يجري مع كلب أو يهرب منه.. ثم لم أعد أرى شيئا سوى ضوء أبيض، ضوء فسيح أبيض.. أخذ في الانقشاع تدريجيا إلى أن بدأت الأشياء تخرج منه ثم الأصوات، ثم رأيت مي تمد يدها الصغيرة نحو وجهي، وفي اللحظة التي لمستني فيها فهمت كل شيء.

استدعتنا الشرطة في اليوم الموالي وأخبرتنا أنها لم تجد في الشقة أي أثر لتمثال روماني. قلت للضابط، إذاً نستحق أن نقدم للعدالة بتهمة إبلاغ كاذب. قال متلطفا لا نرى داعيا لذلك.. ليست هناك شكوى ضدكم.

ابتسمت ببلاهة في الوجوه المحيطة بي فأخذتني فاطمة من ذراعي، وتوجهت بي نحو الشارع القريب. كنت أشعر بانزياح شيء ثقيل عن كاهلي، فربما توجست أن يُصبح باخوس في حالة عودته المظفرة، قضية يجب أن أُدبرها، في علاقة مع أشياء كثيرة تتجاوزني. حسنا. الأفضل لنا جميعا أن يعود إلى جحره أليس كذلك؟ سألت فاطمة، استدارت نحوي وسألتني فقط بعينيها الباكيتين عما أقصده. قلت من الطبيعي أن تحدث أشياء من هذا النوع في نهاية سهرة معقدة، فنرى أشياء وأشخاصا لا يراهم

أحد سِوانا. ثم تكبر المسألة، وتصبح قضية لها خلفيات متشابكة..

قالت فاطمة: إنها مجرد سرقة.. لماذا تحاول أن تجد لها أجنحة؟

قلت: في نهاية الأمر، كنت قاب قوسين من تسجيل انتصاري الوحيد على الفرسيوي.. لكنني لم أنجح، وستصبح رِوايتُه عن باحة المسجد القروي هي الأقرب للاحتمال!

صعدنا السيارة، فسارعت فاطمة إلى مسح وجهها، وتحفزت كما تفعل عندما يتمكن منها الغضب، ثم قالت بصوت لا أثر فيه لأي تردد:

لن أعود أبدا إلى هذه الأرض السعيدة، لا أستطيع أن أقيم في مكان لا أفهمُه.

وقد تمنيت في قرارة نفسي أن لا أصدقها.. ولكنني لم أنجح في ذلك، ثم سرعان ما ارتحت لكونها لن تعود لأسباب لا علاقة لها بي تقريبا.

عندما رجعنا إلى بيت أحمد مجد وقلت لليلى ما حصل كان رد فعلها أن بدأت تجمع حقائبنا بسرعة وتصميم. ولم نحتج للحديث في الموضوع. وضعنا الحقائب في السيارة وانصرفنا. ألحّت علي أن تسوق بنفسها، فأذعنت حتى لا يفسد مزاجها، لكنها رجتني وأنا أستقر في المقعد الخلفي مع مَي أن لا أعود لقيادة السيارة أبدا.. عدني، أتوسل إليك أن لا تفعل ذلك إطلاقا.. قلت لها صادقا.. لا يمكن أن أتنازل عن هذه الآلة الشعرية، ثم إذا لم تقتلني النوبة وأنا أسوق، فإنها ستقتلني وأنا أفعل شيئا آخر.. ما الفرق؟!

ـ الفرق هو أنك لن تكون هنا لأكرهك.

ساقت ليلى بطريقتها الخاصة المتأنية والمنضبطة، بينما رحت ألاعب مي، وألقنها عددا من أصوات الطيور والحيوانات، وأشخص لها أدوارا مضحكة لرسوم متحركة لا يعرفها أحد سوانا، وكان هذا يجعلها تبذل

جهدا جسديا كبيرا لتسيطر على انفعالاتها، وبعد أزيد من ساعة، كانت قد تعبت، وبدأت تفرك عينيها بقبضتي يديها، لكنها لم تستسلم، وركزت كل جهودها على إنامتي، حيث جعلتني في وضع يسمح لي بذلك، ووضعت كما تفعل أمها معها وجنتها على رأسي، وأخذت تعبث بأصابعها في شعري وتلح علي بأنصاف كلماتها أن أنام، وعندما كنت أتحرك للإفلات من هذا الواجب، كانت تتأفف، مثل أم حقيقية، وتسرِّع حركات أصابعها في رأسي.. قالت ليلى إننا على مشارف سطات فأجابتها مي: شــت، شت.. فكان آخر شيء سمعته هو ضحكة ليلى قبل أن أستفيق وأسمع صوتها مرة أخرى وهي تقول إننا قد وصلنا.

وضعت مي في فراشها.. وساعدت ليلى على ترتيب أمورها قبل أن أصعد إلى شقتي. وعندما دلفت إلى الفضاء الفسيح المضاء بالمدينة.. تنفست عميقا وقلت إنها فعلا شقة خاوِيَّة.

– 2 –

لا أحد يستطيع شيئا لأحد. هكذا لخصت الوضع وأنا أستيقظ منهكا لسبب لا أعرفه. في هذه المرحلة من حياتي أو في هذه اللحظة من صباح اليوم، يتهيأ لي أنني سجين حالات لم يكن لي فيها يَدٌ أبدا. ولست قادرا على الفكاك منها.. حتى وأنا أتوفر على كل رَغبة الدنيا في فِعل شيء ما فإنني لا أستطيع أن أفعله. لا أستطيع شيئا لفاطمة. لا أستطيع شيئا للفرسيوي، لا أستطيع أن أنقذ باخوس، ولا أستطيع أن أذهب إلى هافانا. لا أستطيع أن أهرب مع ليلى إلى جزيرة بعيدة.. ولا أستطيع أن أتخلص من فكرة الهروب كوسيلة وحيدة لبدء حياة جديدة.

قلت كل هذا لليلى، فردت صارمة. قبل بضعة أشهر لم تكن تستطيع التفكير في مسكن جديد.. وها أنت تعيش فيه، وبالطريقة اليابانية السخيفة التي حلمت بها. وقبل ذلك لم تكن تستطيع أشياء كثيرة ثم حدثت أحيانا دون أن تبذل جهدا خارقا لكي تحدث، قلت مثل ماذا؟

قالت مثل علاقتنا.. كان يلزم أن تتقاطع أمامك حَيَوَاتٌ متعددة لتعثر على طريق تقودك إليّ؟

سألتها مغتاظا:

– وأنت؟!

قالت.. أنا كنت أعرف دائما ما أريد!

وقد بَدَت لي هذه الجملة كتعبير أمثل عن سعادة الكائن..

أن تستيقظ، أولا تستيقـظ، وتستطيع أن تحدد بالضبط ما تريد، بدون إضافات عشوائية، ولا تُلوم، أن تقول إنني أرغب في النهوض الآن والذهاب إلى حديقة مّا، والمشي في أثـر إحساس أكيد، بأن السكينة توجد حتما حيث ينتهي صف الأوكاليبتوس.

لِسنوات طويلة حملت ياسين على كتفي، وكلما وضعت رأسي على الوسادة قررت دفنه، واستعرضت في العتمة مراسيم الجنازة المؤجلة، أحمل النعش وحديٍ وأمضي نحو الحفرة التي ما إن أطل فيها حتى تبدو لي بلا قرار وما إن أنزِل فيها النعش حتى يخرج منه ياسين ويجري في مقبرة فسيحة بشواهد من لحم ودم.

هتف لي أحمد مجد، كان في وضع بئيس وهو يبحث عن كلمات نستأنف بها علاقتنا كأن شيئا لم يحدث، وقال: إن بهية مريضة جدا وسيأخذها إلى باريس للعلاج. فلم ينفذ ذلك إلى دواخلي، ولم أستضحه الأمر، ولم يساورني قلقٌ بخُصوصها، أحسست أن شيئا ما يحدث لشخص بعيد، وأنني مهما حصل لن أستطيع القيام بشيء منقذ. فارتحت لذلك وأدركت أن العجز مريح في نهاية الأمر، لأنه يخلصك من الإحساس بالذنب، ويجعلك دائما في مقام الضحية.

اتصلت مرارا بفاطمة لأخبرها بمرض بهية، لكنها كانت لا تجيب، ولم تتّصل بي فيما بعد. قلت ربما تختفي هي الأخرى كما اختفى الفرسيوي، وكما اختفى إبراهيم الخياطي، وكمـا اختفى عصام.. فداهمني من جراء ذلك خوف شديد، فاتصلت بليلى، وقلت إنني أريد أن أراها فورا، وأنني خائف من أن تختفي. كانت مشغولة، فاتفقنا على لقاء في المساء، ولم يمنعني ذلك من أن أظل اليوم كله مثقلا بفكرة سوداء، أن تختفي ليلى هي الأخرى لسبب أو لآخر. وعندما قلت لها ذلك عندما التقينا، مررت

يدها على وجهي وقالت إنني فقط حزين لما يجري حولنا.. وأن الخصومة مع أحمد مجد فتحت بابا للخوف لابد أن نغلقه بسرعة! سرني كثيرا أن تقول ذلك، وسرني أن تقوله من أجلي، حتى وهي تعرف أن أحمد مجد لا يستحق هذا العناء، وأردت أن أعلق على الأمر فرجتني أن لا أفعل، فأكلنا بسرعة قبل أن نذهب إلى عرض للرقص الحديث بالمعهد الفرنسي..

كان العرض سريعا متوترا، ذا إيقاع رياضي عالٍ جعل الحمولة كلها تقع على أكتافنا ونحن نغوص في مقاعدنا تحت ضغط ذلك التفاني الجسدي الذي يلعب بالعنف والإغراء.. قلت لليلى ونحن نتمشى بعد العرض. الكلمات هي أفضل ما يعبر به الإنسان، في الجسد أو الحركة هناك دائما شيء حميمي، أو مدى محدود، يمنع التعبير من ارتكاب حماقات غير متوقعة، قالت: في العنف أو الحب نستطيع ذلك. أبديت موافقة غير متحمسة وتابعت السير وأنا أشعر بشيء ساخن يصعد من أحشائي، ويغمرني بنوع من الغياب المادي، اعتبرته في البداية إيذانا بحدوث نوبة جديدة، ثم سرعان ما تبين لي أن جزءً من الكوريغرافية التي شاهدناها قبل قليل قد استمر في مصادرة جسدي، فأصبح مأخوذا في زوبعة عنف داخلية.. وعندما صعدنا إلى السيارة وساقت ليلى غير مهتمة بما يحدث لي، سمعت ياسين يُسِرّ لي بصوت واضح وصارم: الآن.. الآن

قلت ماذا؟

كرر بتصميم: الآن!

صرخت مغتاظا: ماذا الآن؟

ردت ليلى مرتاعة: ماذا الآن، ماذا بك؟

وركنت السيارة مضطربة..

قلت وقد خرجت من الحالة:

- لا شيء.. لا شيء، أظن أنني تعبت.. هذا كل ما في الأمر.

استأنفنا الطريق وقد استعادت ليلى هدوءها، وراحت تبرر الاضطراب الذي أصابني، باستبطاني لمشهد العنف الذي كان في العرض، حيث أدّت حركات بطيئة صافية حول تبادل الإغراء واللذة إلى انبثاق مُفاجئ لشهوة القتل.

قلت: نعم، نعم.. ربما يكون الأمر كذلك.

وكمُواساة استثنائية، اقترحت ليلى أن ننام في نفس المكان، الشيء الذي بدا لي تتويجا طيّبا لهذا اليوم العصيب.

وها هي الآن في البَيَاض الناصع للفراش الذي يغمره ضوء مصباح بعيد تضع يدها على صدري وتنام متكومة على نفسها في وضع جنيني. ما هو الحب؟ قلت لنفسي، لسنوات طويلة لم أكن أستطيع تحديد شعور مرتبط بهذه العاطفة.. أنا الآن أنظر إلى وجهها مشرقا بنوم هادئ، وأقول لعل الحب هو فقط أن تكون قرب امرأة في الوقت المناسب.

على مائدة الإفطار قالت ليلى:

- يجب أن تزور بهية في أقرب وقت ممكن.. ليس أحمد مجد من سيشعرها بالسكينة.

قلت: لا أحد يستطيع شيئا لأحد!

قالت ليلى محتدة: لا أحب أن أبدأ اليوم بمزاج سيئ!

في الطريق إلى مراكش أتيح لي أن أتأمل من نوافذ القطار أمكنة أعرفها منذ سنوات، حقولا جرداء ومربعات صبار وأشجار أوكاليبتوس عجفاء متفرقة.. لم يتغير شيء في هذه المشاهد الفقيرة التي تلمح فيها من حين لآخر شخصا يعبر اليباب بطمأنينة من يقيم في الفردوس. ذات يوم ستمر الأوطوروت في هذا الشِّعر القاحل، فيكون عليك ابتكار مشهد آخر لتضعه

في نوافذ القطار. أما الأوطوروت فستذهب حتى أكادير فيصبح السفر منها إلى طنجة يستغرق ثمان ساعات عوض يومين كما كان في السابق. سنصبح بلدا صغيرا نقطعه من الشمال إلى الجنوب في أقل من يوم واحد!

استقبلتني بهية هادئة عندما وصلت. لم يكن يبدو عليها أثر مرض قاتل، أو قلق مدمر مرتبط به.. جلسنا في الحديقة وراحت تتحدث بافتتان عن الحرب التي تدور بين زوجها ومنافسه، وكان آخر فصولها الأرض التي فتحت مؤخرا للتعمير بطريق الجبل، والتي كانت رهنا مسجلا لدى إحدى البنوك، قبل أن يطير بها المنافس الشرس في أغرب صفقة عرفتها مراكش واستعملت فيها وسائل رهيبة من الضغط والتدليس والتناور.

كانت بهية تعرف أدق تفاصيل ما تسميه بالفضيحة الجديدة وتجتهد في استخلاص ما يجب استخلاصه من تحليل متشائم حول أوضاعنا العامة التي لا يبدو عليها أنها ستشفى من هذه الأمراض الفتاكة.

قلت مداعبا: لكن الآلة تدور جيدا، فيما أتصور.. ليس هناك أعطاب، ولا أسمع إلا عن الثروات الضخمة التي تتحقق هنا وهناك.. ولم أسمع حتى الآن عن إفلاس جرى أو يوشك أن يقع!

قالت بهية مرحة:

الإفلاس مثل العمليات الإرهابية.. لا يكون هناك أي شيء في الأفق يدل عليه، ثم فجأة تسمعه في نشرة سريعة!

ثم سألتني عما إذا كنت أعرف عن مرضها. هززت رأسي بالإيجاب وقلت: إنه مجرد مرض مثل أي مرض آخر!

بدا عليها التأثر لأول مرة. وتحدثت عن الغالية الصغيرة.

- لا يقلقني أن أتركها وحيدة، ولكن يؤلمني أن لا أستمتع بصحبتها لوقت أطول!

وقالت إنها لا تلاحظ أي اندفاع عاطفي من جانبي تجاه البنت.

ـ أنت لا تحبها كثيرا!

دافعت عن نفسي مدعيا أنني أعتبرها طفلتنا. لكن لم يبد عليها أي اقتناع، وحاولت أن تخفف من حرجي مؤكدة أنها تتفهم ذلك، وأنها لا تلومني، ثم خلصت إلى القول بأن الطبيعة البشرية معقدة إلى أبعد الحدود.. وأنها بشكل مفارق، لا ترى منطقيا في كل ما يحدث لها سوى هذا المرض. لأنه الشيء الوحيد المنسجم تماما مع شرطي الإنساني.

واعترفت بهية دون انفعال مبالغ فيه، أنها تجلس كل يوم في هذا الجزء من الحديقة وتبكي. لا تفعل ذلك لشيء محدد ولكنها تفعله بحرقة مبهمة، ليس فيها ما هو جلي سوى الدمع. وكلما سألت نفسها لماذا أبكي.. بكت أكثر دون أن تعثر على شيء تفهم به بكاءها.

ثم قالت، لم أحصل أبدا على الحياة التي كنت أحلم بها عندما كنت صغيرة!

قلت: كل الناس لم يحصلوا على الحياة التي حلموا بها.

أجابت، لم أكن أتصوّر ذلك. كنت مقتنعة أنني سأحصل بالضبط على الحياة التي حلمت بها.

حاولت أن أُفهمها أن الحياة تكون أفضل عندما تحتفظ بكل قدرتها على مفاجأتنا، فردت ضاحكة:

ـ أما من ناحية المفاجأة فقد أخذت نصيبي وزيادة.. تصور أن أتزوج شخصا يعشق الأوبرا والنحت، لأجده ذات يوم يملأ جدران البيت بصور المجمعات السكنية التي أنجزها، وحفلات التدشين وتوقيع اتفاقيات التمويل..

- 3 -

ظهرت فاطمة من جديد في هاتف ليلي مساء هذا اليوم، لكنني لم أتبين في حديثها سوى شذرات من رثاء ملتاع لحياتها وبكاء متشنج يجعلها تبدو أكثر سكرا مما هي عليه بالفعل، وقد وجدت في نفسي القدرة على تجاهل أزمتها، ومواجهتها بنوع من العنف.

- لماذا هذا التباكي السخيف؟ أنت بصحة جيدة، وقادرة على الاستمتاع بالموسيقى والمسرح والسينما، وتشتغلين شغلا تحبينه، وتعيشين في عاصمة أوروبية، ويمكنك أن تضاجعي أي رجل تختارينه.. ماذا تريدين من الحياة أكثر من هذا؟ هل تظنين أنها سخية مع الجميع كما هي معك؟!

أعاد لها غضبي قليلا من الهدوء، فانتهزته لإخبارها بمرض بهية وعندما بدا لي أنها ستستأنف نوبتها قلت لها بصوت مرتفع: لقد قضيت معها جزءً من هذا اليوم وأنها بحالة جيدة ربما أفضل من حالتنا.

ثم ألحت فاطمة على أن أزورها في مدريد، فقلت سأفعل ذلك، أنا أيضا أحتاج إلى مسافة تسمح لي بإعادة ترتيب هذا الركام. بدا لي أنها تجاوزت أزمتها تماما ونحن نتحدث عما سنفعله، وعندما أنهينا المكالمة كنت ما أزال متوترا عندما رنت رسالتها «شكرا، أحبك!».

سهرت في مطعم إيطالي صغير غير بعيد من قبور السعديين، كان الأصدقاء الذين استضافوني منشغلين كثيرا بما يروج حول اعتقال شبكة من تجار المخدرات يهيمنون على أجواء المدينة، فقال أحدهم إن ذلك سيجر

حتما إلى شبكات الدعارة، وإلى ما يدعى بالسياحة الجنسية وربما تغلق كثير من دور الضيافة بسبب ذلك. وبما أننا على مقربة من الانتخابات العامة فإن المستفيد الوحيد من هذه الإنجازات الأمنية سيكون هو التيار الديني، وعند ذلك ستقع مراكش بكل كنوزها السحرية في كماشة الطالبان!

لكن صديقا آخر على اطلاع بخبايا الأمور أكد أن التيار الذي سيستفيد فِعلا هو تيار البزنسة الذي نظم نفسه كقوة سياسية واجتماعية ستساوم بالمداخيل التي توفرها، والشغل الذي تخلقه والرواج الذي تنشره والأجانب الذين تسعدهم، على مقاعد مريحة في المشهد السياسي.. قبل أن يضيف، لا أحد يمكنه مُقاومة التيار الديني سوى هؤلاء! في كل مدينة كبرى سيوجد زعيم جديد بهذا الوجه، وإذا لم يوجد سيتم صنعه، إلى أن يتم تعميم هذه السلعة المباركة على مجموع التراب الوطني.

وقال أحد الأصدقاء من الأفضل أن نسلم المدن الكبرى للإسلاميين وبذلك نوقع معاهدة صلح مع الإرهاب! فضحكت لقوله، وقلت لا علاقة لهذا بذلك فالإرهاب يشتغل لحسابه الخاص، وقلت إذا حدث هذا التسليم فستصبح مدننا منكوبة نفسيا لا يسليها سوى التفجيرات!

ثم ما لبثنا أن انصرفنا عن هذه المناقشة المضرة بالمعنويات، واتفقنا على كون بلادنا تتوفر على عباقرة يعرفون كيف يدبرون الأمر دونما حاجة إلى أمزجتنا الفاسدة. وعندما حلَّ منتصف الليل ذهبنا على استحياء لنتفرج في أحد فنادق المدينة على مخنث مشهور من الدار البيضاء جاء لإحياء حفلات رقص شرقي بمراكش وسط اهتمام جماهيري كاسح لم يظهر له اثر إطلاقا في الصحافة والإعلام!

أفقت على صوت أحمد مجد يخبط على باب غرفتي بإلحاح غير معهود. وعندما فتحت له، كان يلبس سحنة كابية ويقول إن حالة بهية قد

تدهورت فجأة، وأنه سيأخذها إلى باريس.

التقينا في وسط الدار، كانت بهية مستعدة للخروج، مبتسمة، تداعب الغالية الصغيرة، وتمرر يدها من حين لآخر في خصلات شعرها. خمنت أنها تتألم، فلم أقو على الكلام. أخذت فنجانا من الطاولة، ولم أنتبه من شدة تأثري أنني كنت أسكب القهوة جانبا. ثم قال أحمد مجد بدون معنى:

- يجب أن لا نتأخر على الطائرة!

فسبقتهما نحو الباب وأنا أتمنى أن يطلبا مني البقاء هنا لبعض الوقت. ربما كان من الأفيد أن أبقى مع الغالية الصغيرة.

هكذا قالت بهية وهي تقبلني، رجعت إلى طاولة الإفطار ورحت أتأمل الغالية وهي تحضر شريحة خبز بالزبدة، بنفس حركات والدتها المتوترة المستعجلة، ثم وهي تقضم منها أجزاء صغيرة متلاحقة، لها عينا أحمد مجد، واستدارة وجه ياسين، وفي ملامحها مرحٌ متواري خلف تعبير صارم، تساءَلْت في نفسي عما إذا كان هذا آخر إفطار لي في الدار الكبيرة، وتألمت لذلك. وتساءلت عما إذا كانت الفجيعة ستكون هي نفسها عندما يموت شخص حتى ولو لم تعد لنا معه علاقة مباشرة. فاجأتني نوبة بكاء أحسست بها صاعدة من أحشائي، فانسحبت إلى الحمام وخنقتها هناك تحت الماء البارد وأنا أفكر في طريقة أتنفس بها خارج الدار الكبيرة.

في طريقي إلى محطة القطار كلمت ليلى، فلم تكن لطيفة معي على الإطلاق قالت: إنها حكاية خلف ظهرك.. لا يمكن أن تعود للغوص فيها من جديد، كما لو أنك لم تغادرها أبدا. إذا كنت قد غيّرت حياتك فقد غيّرتها وانتهى الأمر، لماذا تصر على أن تجرجر كل شيء إلى الأبد؟!

قلت مسالما: ولكنني لا أجرجر شيئا.. هناك فقط شيء مؤلم لا يمكن أن أستقبله بحياد.

فردت عليّ غاضبة بأنني أمشي ورأسي كله إلى الخلف كأنني كائن مقلوب إلى الماضي!

حاولت أن أجد مخرجا من هذه النرفزة فلم أستطع. عند ذلك سألتني عما إذا كنت قضيت الليلة في الدار الكبيرة، فأكدت لها ذلك، فقالت:

- كنت متأكدة أنك ستبيت هناك. إنه شيء مقرف وسوقي ولكنك لا تستطيع أن تفعل غيره!

سألتها عن مَي فوضعت الهاتف بين يديها وتركتنا نتخاطب بأصواتنا وكلماتنا الأولى دون أن نعرف كيف ننهي هذه المكالمة.

وأخيرا ذهبت إلى مدريد، لم أكن لأذهب إليها في ظروف أسوأ من هذه. بهية خاضعة للعلاج الكيماوي، وليلى غاضبة مني ومن كل شيء، وحياتي معلقة لا أعرف على ماذا.

قضيت أياما سعيدة مع فاطمة، استمتعنا فيها بليل مدريد، وبجلسات عشاء طويلة تحدثنا فيها بدون انقطاع، فكان لذلك أثر طيب على معنوياتنا كأننا خضعنا لعلاج جماعي. تحدثنا عن كتب كثيرة وأفلام ومؤلفات موسيقية، حفرنا في قضايانا الصغيرة وذاكرتنا، وعثرنا على تفاصيل لم نفكر فيها أبدا، وعلى كنوز لم نلبث أن وضعناها في صدارة مشاعرنا، ولم ننتبه للوقت الذي كان يمر كعادته سريعا إلى أن التهم الأسبوع الأول من مقامي فاتصلت بليلى مستطلعا جوها النفسي، فوجدته ما يزال مكفهرا لم ينفعني معه حديث عن المدينة ولا عن مطاعمها ومسارحها، ولم ينفعني معه حتى العرض الذي قدمته بقضاء ما تبقى من عطلة الربيع هنا مع البنتين.. كان رفضها حاسما وفظًا فأنهينا الحديث تحت سحب كثيفة.

فيما تلا ذلك من أيام، حاولت استرجاع الدفء لعلاقتنا بمبادرات متنوعة صبورة دون أن أفلح في ذلك. وعندما ضقت ذرعا بهذا الوضع

سألتها ذات يوم عما إذا كانت ما تزال تحبني. فقالت إنها لا تحب حتى نفسها!. وهممت بتتبع هذا الخيط لكنها سدت كل المنافذ، وأكدت لي أنها لا تريد الحديث إطلاقا في هذا الموضوع.

كنت أفكر طول الوقت في هذا التباعد الذي حصل بيننا، وأسعى لإيجاد منفذ أعبر منه نحو العالم الذي بنيناه بكثير من الشغف والجهد، ولكنني كنت دائما أُواجه إصرار ليلى على تغليف كل شيء في صمت غامض. تحدثت مع فاطمة في الموضوع، فقالت ربما حدثت أشياء أخافت ليلى.

قلت مثل ماذا؟

قالت: لا أعرف على وجه التدقيق، لكنني متأكدة بحدسي أن شيئا ما فعلته أو لم تفعله قد أرعبها!

لم يرقني أن تعتبرني فاطمة مرعبا لهذا الحد، الشيء الذي دفعني إلى استرجاع كل تفاصيل علاقتي بليلى بحثا عن اللحظة القاتلة. كيف أحببتها، كيف عشت معها انفصاما مريعا بين زمنين، كيف نسجت خيوط هذه الحكاية من ماض مبهم وحاضر مرتبك. نوباتي، علاقتي بياسين، عملي، مخاطراتي، عائلتي، الفرسيوي.. ديوتيما.. بهية..عصام ومهدي وفاطمة.. . لم أتبين شيئا لم يكن هو أيضا سببا مباشرا أو غير مباشر في بناء قصتنا.

قالت فاطمة وقد رأت انهيار معنوياتي فجأة: سترى، إنها مجرد أزمة عابرة، لا تنس أن السن أيضا يكيل ضربات موجعة والنساء يتلقين ذلك ببالغ القسوة. بلعت صوتي وتذكرت بارتياع أن عودتي إلى شقتي في الرباط ستكون امتحانا عسيرا لقدرتي على البقاء على قيد الحياة.

ثم تذكرت كل اللحظات الجميلة التي جمعتني بليلى. وأدركت أنني إذا لم أعد لأمارس الحب معها في أقرب وقت فسأموت من الحزن. وعند ذلك ركبت رقم هاتفها وقلت لها ذلك، فقالت محتدة: يجب أن تعود أولا!

قلت سأعود فوراً.

قالت: لكني مع ذلك أخبرك.... لقد أصبحت متخشبة تماما!

ولم أقل لها إنها أعذب قطعة خشب في الدنيا.لم أقل لها إلى أي حد سيكون العالم موحشا بدونها.. لم أقل لها إنني لسبب لا أفهمه أتوقع شيئا سيّئا لا أعرف ما هو.

في مساء هذا اليوم احتجت إلى استرجاع تلك الروح التي أعقبت مكالمتنا، فجاءني صوت ليلى متناوما ورجتني أن أتصل بها في ما بعد، لأنها منهكة وتريد أن تأكل بسرعة وتنام. تأزمت بسبب هذه المكالمة السيئة، واعتراني غضب مفاجئ من نفسي، لأنني لم أعرف كيف أحافظ على هذه الفرصة الأخيرة في حياتي، ولأنني بشكل ظالم تماما أتعرض لاضطهاد المرأة التي تنازلت لها عن مراكش وتبنيت معها مَي، وقرأت رغم أنفي خمس مرات رواية لسراماغو، من أجلها فقط. وعندما اشتد بي الغضب خالجني شعور بديهي بأنني أستحق أفضل من هذا الوضع، لكن بما أنه لم يكن هناك وضع أفضل فقد عدت لتعنيف نفسي وقلت إن كل ما يحصل لي هو بسبب التعاسة التي ورثتها أبًا عن جد، والتي لابد أن تلازمني حتى النهاية.

وهنا حصل لي ذلك!

كيف أشرح الأمر؟ ربما يكون من الأنسب أن أفعل ذلك مستعينا بمثل يوضحه. لنتصور شخصا يقف على ضفة نهر كبير، وقد ألقى بسنارته في الماء الهادئ، فجأة ينجذب الخيط فيحس الشخص برقصة السمكة ومجيئها الوشيك بكل ما يعد به عنف حركاتها، يحس بمقاومتها، وبغضبها، بإذعانها ورفضها، بانتفاضاتها المفاجئة، ثم بانسيابها، كأنها وليست سنارته هي التي قررت أن تسبح نحوه، هاهي الآن قد وصلت، طفت فوق الماء،

قفزت في حركة صاخبة كأنها تقول إنها لم تأت ميتة.. ثم ها هي الحركة كلها تنسحب ليرتخي الخيط ويصبح جثة هامدة فوق صفحة الماء. وهاهي كل تعاسة الدنيا تهجم على الشخص وتمضغه قبل أن تلقي به حطاما على الضفة. ماذا سيفعل الشخص، ماذا سيفعل بكل هذا اليأس.. فجأة يتطلع إلى النهر منسابا وإلى قصب ينثني في الريح، ويرهف السمع لصوت أوراق تتحرك في شجر قريب ويدرك باقتناع مبهج أن هذا هو أفضل ما حدث له منذ فترة طويلة وأن إفلات السمكة هو الشيء الأعمق لذة في حياته وأن هذا اليوم المشمس الذي ما يزال فيه نهر وسماء وأشجار هو بالضبط نصيبه من الحياة التي لن يكون له فيها نصيب آخر، ولو كان له فإن كل يأس الدنيا سيهجم عليه لأنه لن يحصل على يوم مشمس ونهر وشجر.

هكذا بالضبط!

تبين لي أن ابتعاد ليلى بهذا الشكل المباغت المفجع المدمر هو أفضل ما يقع لي. ماذا أريد من الحكاية؟! أن نقضي ما تبقى من العمر في مناوشات مضنية لنعرف كيف نفلت من مخالب الشيخوخة؟ أن أنذر نفسي لاختناق السمكة؟ أن نفصل على ما نعتبره مقاسنا حياة ستصغر على أجسادنا لا محالة فنضطرّ إلى تمزيقها؟!

ماذا أريد أكثر مما أدركت، تلك الارتعاشة الأولى، واستجابة الخيط، وخفقان الجسد كله وهو يستقبل جسدا متمنعا، واللذة التي تذهب حتى حدود القتل، والسكينة التي يمنحها الألم.. ثم ماذا بعد؟ هل من الضروري أن نفسد المستحيل بفتات من الممكن؟. . .

مشيت في شارع لا أعرفه، وعندما أدركت تيهي أمعنت فيه، وقلت لفاطمة التي كانت تكلمني في الهاتف لا أعرف أين أنا.. ولا أريد أن أعرف. إذا وصلت إلى مطعم يعجبني فسأكلمك. وعندما جلسنا أخيرا إلى

طاولة في مطعم صاحب أمضت فاطمة أزيد من ساعتين للعثور عليه، كنت فعلا على أحسن ما يرام، كنت منشرحا بحالتي، سعيدا أنني أفلت من موت محقق في حالة انقلاب علاقة على ظهرها بسبب المبالغة في السرعة! قلت ذلك لفاطمة التي كانت مغتاظة بسبب المطعم الضائع في حي خطير. فقالت ما دمت أتحدث عن حادثة فسأقول لك ما يقال عادة في هذا المقام، انتظر حتى يبرد الدم، وتتأكد أن عظامك سليمة ولا تشكو من نزيف داخلي!. .

ضحكت للتشبيه وأمطرت فاطمة بسيل من النكت والحكايات الساخرة، وأكلت وشربت كما ينبغي لرجل سعيد، وفي نهاية سهرتنا قلت لها وأنا أستعرض عضلاتي.

- هل تأكدت الآن من ذلك؟ لا يوجد أي كسر!

وعدنا إلى البيت. فما إن دلفت إلى المصعد، حتى اجتاحتني قشعريرة ثلجية، فاستلقيت على الفراش مرتجفا بينما راحت فاطمة تدثرني قلقة وأنا أرجوها أن تذهب لتنام. ربما تكون نزلة برد لأنني مشيت طويلا في برد قارس.. هو كذلك سأعطيك شيئا لمعالجة النزلة.. ذهبت فاطمة فقلت في نفسي، إنه جسدي يؤدبني، لماذا أجازف بادعاء النجاة وأنا ما أزال مجرد قطع نازفة في علاقة مقلوبة؟ ربما أكون حزينا لحد لا يسمح لي بالبقاء على قيد الحياة. سأموت فورا. لا أستطيع أن أتحمل ثانية واحدة فكرة أن أعيش دون ليلى. من اليوم الأول كنت أعرف أنني معها التقيت بالأبدية.

ثم أحسست بآلام فظيعة في كل جسدي دون أن استطيع تحديد مصدرها المباشر، قبل أن أدرك أن روحي هي التي سقطت فريسة ألم لا يطاق، وفي هذه اللحظة أحسست أنني أغادر مختنقا كل شيء وأغيب دون أن يخف ألمي، كنت أريد ليلى في ذلك الفراش المبتل بعرقي، وأريد أن تقول لي إنها تحبني إلى الأبد، كما لا تحب أي شخص آخر في الدنيا. كنت أريد أن

تقول لي مهددة إنها ستخِرج لي من التلفون وتقول إنها تكرهني شريطة أن أكون متأكدًا جدا أنها لا تعني ما تقول..

فتحت عينيّ على غرفة مضاءة بنور النهار، كانت فاطمة قريبة من الأريكة وكان يبدو أنها عائدة من مكتبها وقلقة جدا من وضعيتي.

انتزعت نفسي من الفراش وسألتها عن الساعة فقالت إنها تجاوزت الثانية بعد الظهر. فتوجهت نحو الحمام معتذرا عن كل ما تسببت فيه من إزعاج.

قالت فاطمة: لم تتوقف عن الأنين طوال الليل.. هل تتألم من شيء؟

قلت: نعم يؤلمني كل شيء، يؤلمني خصوصا وحتى الموت أن أفقد ليلى.

- ولكنك لم تفقدها.

- أحس بشيء سيئ في نبرة صوتها.

قالت فاطمة إنني أثير أعصابها بمراهقتي المتأخرة، فغضبت غضبا شديدا لقولها. فأسرعت إلى إقفال الحمام مخافة أن أفعل شيئا طائشا.

عند ذلك قالت وهي ترفع صوتها تدريجيا مع انهمار الماء:

- يجب أن تعرف أولا ما حصل!

وعندما لم أجب بشيء قالت: سأذهب. أنا آسفة.

-هيأت حقيبتي وحجزت بطاقة العودة على الأنترنت. وعندما كنت أبحث في الشارع البارد عن مقهى لم يشرع بعد في تقديم وجبة الغذاء، تلفنت لليلى، فعلت ذلك بسرعة كمن يلقي بنفسه في الماء، فجاءني صوتها ودودا هادئا وقالت إنها مشتاقة جدًا لي، وأن عليّ أن أعود سريعا، إذ لا معنى إطلاقا لهذا السفر ولهذه المدريد. ووجدتني أتحول تحت تأثير نبرة صوتها الجديدة إلى شخص منهك لا يريد شيئا سوى الخلود إلى الراحة والاستمتاع بما توفره الحياة من فرص سلام مع النفس ومع الآخرين.

- 4 -

قُبَيْلَ مغادرتي لمدريد تم الإعلان في الصحف الإسبانية عن اكتشاف علاقة بين أحد المعتقلين المغاربة من مجموعة اليوسفية ومجموعة تفجيرات مدريد، وجرى نقاش واسع مرة أخرى عن تنظيم القاعدة المغاربي وعما إذا لم يكن مقدمة لتحضير حرب إرهابية على الضفة الشمالية للمتوسط.

وكنت مع فاطمة في صالات المطار، نتحدث بشكل فاتر عن هذه الأجواء كما لو كنا نهرب من الحديث عن أشيائنا الخاصة، عندما تقدم مني شخص أحسست أنني أعرفه دون أن أتعرف عليه، حياني بحرارة وقال إنه ابن بلدتي، ولإعطاء دلائل قاطعة على ذلك راح يذكر لي شخصيات بومندرة كما لو كانت نجوما ساطعة في المشهد الإنساني، متوقفا بالخصوص عند الفرسيوي، وعندما ذكر اسم والده اتضح لي تماما ذلك الشبه الذي لم أخطئه منذ اللحظة الأولى، فصافحته من جديد، وتمنيت له أن يقضي عطلة سعيدة في تلك البلدة التي لا علاقة لها بالسعادة.

سألتني فاطمة بعد انصرافه عما إذا كان لباسه الأفغاني لم يزعجني، قلت إنه اليوم أيضا لباس قومي. فضحكت ورجتني مرة أخرى أن أهتم بنفسي، وأن آخذ ما تعطيه الحياة لي متجنبا أن أعكر مزاجها بمطالب لا تنتهـي، لأن الحياة مثل المرأة لا تحب ذلك. كم يلزم من الوقت لتفهموا هذه القاعدة البسيطة؟!

قلت محتجا: ألا تستحيين من استعمال نفس النصائح التي أغدقتها عليك منذ بضعة أسابيع؟!

عانقتني طويلا ونداء الإركاب يستر بضجيجه نحيبها. وعندما دخلت البوابة رفعت يدي عاليا دون أن أستدير ومشيت نحو الطائرة مستسلما لشعور لا يقبل التفسير هو أنني أنا أيضا لا أحب حتى نفسي!

عندما استقرت الطائرة في سرعتها المثلى تقدم مني من جديد ابن بلدتي وسمح لنفسه باقتحام وضعي الخاص بسيل من التعاليق السخيفة حول الهجرة، والعيش في الغرب وأعداء الإسلام الذين لا يُعدون ولا يحصون، وكنت أجيبه بجمل أوافق بها على أشياء لم تخطر لي على بال، فقط ليقنع من صحبتي ويذهب إلى حال سبيله، لكن يبدو أنه استحسن ردود فعلي وتجشم عناءً لا يوصف ليتحرك ويعود كلما احتاجت المضيفة ممرا لخدماتها، إلى أن اهتدى لتقديم طلب وقح لجاري بتبادل المقاعد فاستجاب له بطيبة تدعو للاحتقار، واضعا مزاجي بكل أعطابه الطارئة والمزمنة تحت رحمة الرجل.

خلال تلك الساعة التي استغرقتها الرحلة حتى الدار البيضاء جرت الأمور بسرعة خارقة. فقد حدثني بدون مقدمات عن ياسين، وقال إنه يعرفه، إلتقاه مرة واحدة في باريس، ولكنه شخص لا يُنسى.

سألته: وهل أنت على علم بما حدث له؟

قال: طبعا وإلا لما حدثتك عنه.

تحفزت كل طاقتي الذهنية فحاصرته بمئات الأسئلة عن ياسين متأكدا أن مصادفة استثنائية وضعت أمامي إمكانية أخيرة للعثور على حقيقة ما جرى. كان صوتي يعلو كلما قال أجوبة غامضة أو غير مكتملة، وَ وَجَدتني أوجه له أسئلة تخصه، ولماذا جاء إلى مدريد، وهل هي مصادفة أن نلتقي،

هل كان يعرف أنني أعود على نفس الطائرة؟!

وقد حصل له اضطراب كبير جراء هذا التحقيق المفاجئ، فلم تعد له تلك الثقة التي كان يحدثني بها قبل قليل، وحتى سحنته لم تعد لها تلك القوة والجبروت المنسجم مع الهندام والملامح الصارمة. وكانت الطائرة قد شرعت في النزول صوب مطار الدار البيضاء، عندما أمسك بتلابيبي وتوسل إلي أن أتركه وشأنه، قائلا إنه انساق فجأة وقدم لي نفسه، وما كان ينبغي له أن يفعل، ثم لم يقاوم فكرة الحديث عن ياسين، غير متوقع إطلاقا أن تؤدي إلى ما أدت إليه، وإلا فالمفروض أن لا أكلمك أصلا، أن لا أكلم شخصا أعرفه ولو كان من الصين..

الآن أرجوك أن تهدأ، أنا لم أعرف ياسين الذي حدث له ما حدث، عرفت ياسين لا أقل ولا أكثر. أنا أقدر أن لا يهمك شيء في الدنيا أكثر من معرفة التفاصيل التي ذهبت به.. طيب هل تريد أن نطوي هذا الموضوع بطريقة ذكية؟ طيب خذ رقم هاتفي، سأنزل غدا إلى مراكش اتصل بي هناك، ربما استطعنا مقابلة صديق لياسين كان قد سافر معه. أرجو أن تفهمني، لست على علاقة بالموضوع، حذار أن تمضي بك الأفكار بعيدا، وتتصور أنني في موضوع من هذه المواضيع، أنا أحاول فقط أن أساعدك، لأننا التقينا بعناية إلهية لا يعلم حكمتها إلا الله. لماذا تنظر إلي هكذا؟ ربما تعتقد أن جهة مّا رتبت هذا اللقاء؟ كيف يمكن لجهة ما مهما أوتيت من دهاء أن ترتب حركاتك وسكناتك في انسجام تام مع حركاتي وسكناتي. حاول أن تتذكر تفاصيل سفرك، وحاول أن تعثر على ما يمكن أن يكون تفصيلا مدبرا. قلت كأنني أحدث نفسي:

– الحياة كلها حكاية مدبرة!

– ماذا؟ تقصد أن كل شيء تحكمُه مشيئة ربانية؟ هو كذلك بالفعل، لو

تعلم فقط أين كنت أمضي قبل أن أقرر هذه الوجهة؟

نظرت نحو المدرج، تحيط به نباتات عالية، فشردت لحد جعلني أتصور أن الطائرة ستقلع نحو مدريد. أحيانا يبدو لي أن الحياة تستحق أن يعاد الاستماع لبعض مقاطعها بإرجاع الأسطوانة إلى الوراء، ثم لما تراجعت سرعة الطائرة واستدارت يمينا نحو المحطة، تتالت مشاهد مختلفة في ذهني بينما كان جاري يستعد لمغادرة الطائرة وهو يقول مرتبكا:

- لا تنسى أن تكلمني.. صدفة خير من ألف ميعاد؟ كان يمكن أن لا نلتقي أبدا! كان يمكن أن يموت أحدنا دون أن يعلم بوجود الآخر!

قلت في نفسي: وكان ذلك سيكون أفضل بكثير من هذا اللقاء المريب!

هتفت لليلى عدة مرات فلم تكن ترد. وطرقت باب شقتها مساءً فلم تكن هناك. وفي وقت متأخر من الليل اتصلت بي لتقول إن بنتها تقضي جزء من العطلة مع أبيها في مراكش، وأنها اضطرت لتأخذ مَي وتقيم هناك قريبا منها.

قلت بنوع من البلاهة: لقد عدت!

- أعرف. أنا أيضا سأعود بعد يومين! تعرف مَي لا تطيق الآن فراق أختها. هنا يحدث لنا أن نخرج جميعا كما في هذا المساء، شيء يكاد يكون لطيفا لولا تصنع «السيدة الأولى»!

قلت لليلى: سأجيء غدا إلى مراكش.

ردت محتدة: لا ينقص سوى أنت! اسمع، لا يمكنني أن أراك هنا في كل الأحوال!

قلت بدوري محتدا: ولا أنا يمكنني أن أراك، سأكون في معمعة أخرى!

كانت بهية قد فقدت شعرها تحت تأثير العلاج الكيماوي، لكنها سيطرت على ذلك بأناقة مدروسة، وبدا لي أنها تتماثل للشفاء، بل وأكثر من ذلك استعادت كل ثقتها في الانتصار على الداء. وعندما كنا نتناول وجبة الغداء قالت إنها كلمت إبراهيم الخياطي في الهاتف، لأن ذلك أصبح ممكنا في السجن ضمن مسطرة محددة، فأدخل أحمد مجد بسرعة فائقة هذه الحكاية ضمن إنجازات المرحلة. ثم تحدثنا طويلا عما يتوجب عمله وقد حددت أولى جلسات المحاكمة بالنسبة لإبراهيم الخياطي. فقال أحمد مجد في ختام ذلك:

– سنطلب له السراح المؤقت، ثم نرى ماذا سيحصل في ما بعد.

عادت بهية للحديث عن مكالمتها مع إبراهيم، وأسرت لي ونحن نأخذ القهوة انه يرغب في الحديث معي لأمر في غاية الأهمية يخص ياسين.

اهتز قلبي بقوة، وكدت أقول لبهية عن موعدي مع ابن البلدة بعد زوال اليوم، لولا أن تدخل أحمد مجد ليقول لي من الأفضل أن تزور إبراهيم وتحدثه مباشرة عوض استعمال الهاتف.

خرجت من الدار الكبيرة لأذهب إلى موعدي في مقهى النهضة، لكنني ما إن صعدت إلى الطاكسي حتى انتبهت إلى أن ساعة كاملة تفصلني عن موعد الرابعة. فقررت أن أتمشى قليلا قبل أن أجلس في المقهى، وأثناء ذلك فكرت في رسالة إبراهيم، وتساءلت ما الذي يمكن أن يقوله لي عن ياسين. تصوّرت أن يكون قد التقى في السجن بشخص يعرفه، أو تلقى معلومات من شخص يعرفني. تصورت أن يكون أحد بصدد استعماله في قضية لها علاقة بأصدقاء ياسين، ثم تساءلت كيف تتزامن بالصدفة كل هذه الأشياء التي تحدث متفرقة، إحداها في سجن سلا والأخرى انطلاقا من مطار مدريد، وهل يمكن أن تكون هناك علاقة بين الحكايتين، بل كيف لا

تكون هناك علاقة بينهما؟!

عند ذلك خمنت أن لقائي مع ابن بلدتي سيكون أكثر فائدة لو جاء بعد الحديث مع إبراهيم الخياطي، فربما عثرت عند هذا الأخير على شيء يسعفني في هذا اللقاء، لكن الاتصال الهاتفي مع إبراهيم لم ينجح رغم كل الجهود التي بذلتها بهية، وقد اضطررت إلى التأخر عن موعدي بربع ساعة تقريبا وانا أحاول استنفاذ كل المحاولات لربط هذا الاتصال. وعندما وصلت المقهى لاهثا لم أجد أحدا هناك، فجلست مكتئبا أنتظر نصف ساعة أخرى، ثم قمت متثاقلا وغادرت المكان مفضّلاً أن أعتقد أنه مر من هنا ولم يجدني في الوقت المناسب.

في الساعة السابعة مساء، كنت قد هاتفت مرارا وتكرارا ابن بلدتي دون العثور على شيء سوى علبته الصوتية، وفكرت ألف مرة بليلى، وتسكعت لأكثر من ساعتين دون وجهة محددة، واقتنعت بأن أفضل ما تبقى لي من مصائر في هذا اليوم العصيب هو أن تدهسني سيارة وتنتهي هذه الركاكة. وفي هذه اللحظة بالذات تلفنت ليلى، سمعت صوتها عاليا على الخط.

- قل لي، أرجوك، أتوسل إليك، قل إنك في مراكش.

قلت: إذاً نلتقي فورا!

وقد احتجت لوقت لا بأس به للدخول في هذا اللقاء، لا أقصد فقط تلك الترتيبات المادية المنهكة التي لا تنجزها أبدا إلا بأنصاف حلول، ولكنني أقصد اللقاء نفسه، تلك اللحظات الأولى التي لا تعرف هل ستبدأ فيها شيئا أم ستستأنفه، ثم تلك اللحظات الأخرى، حيث يكون عليك أن تخضع كل حركة لاختبار دقيق لتفهم ما يعود إليك كاملا غير منقوص، وما يكون قد تضاءل أو زاد عن حدوده المألوفة، أو أصبح ببساطة حركات شخص آخر. كنا في غرفة إقامة سياحية هادئة، وكانت تصلنا من حين

لآخر همهمات أشخاص يشربون حول المسبح. مارسنا الحب بحركات خجولة كما لو كنا نفعل ذلك لأول مرة، ولكن باستغراق خاشع كأننا نعتذر عن شيء حصل لنا أو مِنَّا، وفي لحظة ما من إلتذاذنا، اعترتني رغبة قوية في فعل شيء أكثر من الحب، شيء يجعل ليلى تتسرب عبر أنفاسي ومسامي إلى كل جزء من وجودي وتستقر فيه إلى الأبد لذة لا نهائية.

كنت أقبلها وأنظر عميقًا في عينيها وأتبع ذبذبات هذه الرغبة إلى منتهاها، ولم أنتبه في فورة هذا الوجد إلى أنها كانت تبكي، ربما لأنها فهمت كل ما كان يجيش بداخلي، وربما فقط لأنها وجدتني مرة أخرى بعد تيه عابر!

جاءتني مكالمة «الشخص المعلوم» ونحن على مشارف منتصف الليل، قال إنه يعتذر عن التأخير الذي حصل له في موعدنا، لأن صديق ياسين يسكن بعيدا. وكنت متيقنًا أنني سأعتذر له بدوري، وأؤكد له أنني لم أعد أرغب من هذا اللقاء أصلاً، عندما بادرني بتحديد موعد آخر غدًا في الساعة العاشرة صباحا في مدخل فندق نادي البحر الأبيض المتوسط. وافقت مضطرًّا، وأنا أشعر أنني بعدما حصل لي مع ليلى هذا المساء لم أعد في حاجة لأي شيء. وعندما سألتني ليلى عن الموضوع، عرضت عليها الحكاية متعمّدا أن أشحنها بقدر من الدعابة والسخرية، لكنها اكفهرّت فجأة وسألتني عمّا إذا لم أكن قد أدركت كل المخاطر الكامنة في علاقة من هذا النوع.

- تصور، تلتقي صدفة شابا في مطار مدريد، يصبح صدفة وسيطا في لقاءٍ مع صديق محتمل لياسين، ألا تشم في هذا أي نوع من الاستدراج إلى شيء ما؟

قلت: ليس لي أي سبب معقول لأتوقع ذلك!

ثم سمح لنا النوم باستئناف شيء لا علاقة له بهذه الأجواء ولساعات

طويلة في ما يبدو لم يستطع أي حلم ولا تَقَلُّب ولا حركة طائشة، لم يستطع أي شيء أن يفصل بيننا حتى غمرنا ضوء النهار مشتبكين في غلالة مضطربة.

وأنا أتهيأ للخروج سألتني ليلى:

- ماذا تنتظر من هذا اللقاء؟

قلت: لا شيء! فقط أريد أن أسمع من شخص يعرف ياسين كيف جرت تلك الحكاية. كيف اعتنق هذه القضية، وكيف عاش عوالمها، كيف تعرض لما تعرض له، وكيف تعاملوا مع جثمانه، وماذا فعلوا به. أريد أن أسمع كل هذه التفاصيل وغيرها، وأن أمتلئ بها، وأمتلئ بالحقيقة التي تمثلها. إذا حدث هذا فسأعيش حدادا حقيقيا وينتهي الموضوع!

قالت ليلى وهي تأخذ مني مَي وتذهب بها إلى الغرفة الأخرى:

- لا أعرف أي موضوع سينتهي.. ولكنني لست مطمئنة على الإطلاق!

بكت مي بعصبية بالغة جعلت ليلى تؤنبها وترجعها إليّ ملقية بها تقريبا على صدري، الشيء الذي رفع حدة بكائها، فعادت ليلى من جديد لتأخذها، وقد روعها الندم على تصرفها فأصبحت أكثر طفولة من البنت!

انتظرت حتى هدأت هذه الزوبعة الصغيرة فاقتربت من ليلى ورجوتها أن لا نتخاصم، لأنني لا أطيق ذلك، ولأنني أريد فعلاً أن أخرج من هذا النفق.

قالت ليلى:

- ولكنك لن تخرج منه إذا بقيت تذهب وتجيء داخله!

قلت:

- ليس الأمر كما تتصورين، إنني أرى ضوءًا بعيدا ولكن لا أقوى على

الوصول إليه.

بدأت ليلى تجمع أغراضها استعدادا للعودة إلى الرباط، فاغتنمت فرصة انشغالها بذلك لأقول:

- سأذهب إلى موعدي ثم ألحق بكم.

قالت وهي تدفن وجهها في الحقيبة المفتوحة:

- إذا لم تخبر الشرطة قبل ذهابك فلا تلحق بنا!

وقفت في باب الغرفة متألما من هذه الجملة الزائدة، ثم أدرت ظهري للجلبة التي أحدثتها مي وهي تحاول اللحاق بي، ومشيت واثقا من أنني سأصل الضوء الذي يتراءى لي في النفق.

- 5 -

وصلت إلى جامع الفنا نصف ساعة قبل موعدي، فتوجهت نحو مدخل من مداخل المدينة القديمة، ومشيت في هدوء صباحها قبل أن تفتح كل الدكاكين، وتمتلئ الأجواء بالنداءات والصياح.

كنت مهتزا بشيء لا أستطيع تحديده، مزيج من توجّس لما سيأتي، وألم لما جرى، وكان ذلك، عكس ما يُتَوقع، يجعلني خفيفا متحررا، أتفرس في وجوه العابرين متأكدا تقريبا أنهم لا يرونني كأنني أصبحت مجرد طيف يتفقد أحوال المدينة. رأيت شخصا قميئًا أسمرًا يشاغب على بائع الزيتون مؤكدا له أن لا أحد سيقبل على شراء هذه السلعة الحامضة في هذه الساعة المبكرة من النهار، وسمعت البائع يقول له بهدوء: لو كان يعرف متى تنصب الطنجية لما فتح فمه بهذا الحمق.. فابتهجت لهذا الحوار الذي لا تبدو ضرورته بديهية ومع ذلك فإن الدرب كان سيكون موحشا بدونه. ثم خرجت سيدة من زقاق فرعي وهمهمت بشتائم لم أتبينها قبل أن تلحق بها فتاة لم يمهلها الوقت لتكمل لباسها، فانهالت على رأسها ويديها تقبيلا وهي تسترضيها بكلام يلين الحجر.. وبذلت جهدا كبيرا لألتقط شيئا من الحكاية دون أن أفلح، ثم أصابتني كل هذه الرقة المندلعة في مدينة نائمة، بحزن شديد، كأنني أطمع في نصيب منها ولا أناله. ثم وجدتني وجها لوجه أمام طفل يبدو أنه رآني وسألني: ماذا كان يعني الرجل؟

قلت: أي رجل؟

قال: الذي كان يطل من السطح.

- وماذا قال؟

- قال هل وصل صاحب الأمانة؟

- وماذا يهمك من الأمر؟

- لا شيء، نريد أن نفهم شيئا في هذا الصباح!

واصلت مسيري مستلطفا فضول الطفل، ثم عدت أدراجي حتى لا أخطئ الموعد.

كانت هناك حافلتان قرب فندق نادي البحر الأبيض المتوسط، وكانت تغطي واجهته تقريبا لافتة كبيرة عن المهرجان الدولي للسينما، وغير بعيد عنها هيمنت على المشهد شاشة كبرى ومنصة بدت ضخمة في الساحة الخاوية. مسحت بنظرة سريعة مدخل الفندق وجوانبه فلم أعثر على ابن بلدتي. حاولت أن أتخيل ملامح الشاب الذي كان صديق ياسين، فلم أتوصل لشيء، ولمحت من بعيد شخصا يتردد في مشيته أمام الفندق فتوقعت أن يكون هو، لكنني عندما اقتربت تقدم مني وسألني عن الطريق إلى باب الجديد.

لم يظهر الشاب في موعده، ولا حتى بعد موعده بأكثر من ساعة.

آلمني ذلك، وتساءلت عما إذا لم أكن قد وقعت فريسة لِعَبث مراهقين قساة، لعلهم الآن يتفرجون علي من مخابئهم. وتذكرت الشاب العابث الذي تركني أعتقد أنني أباه من علاقة قديمة، فقلت ربما ابتداء من سن معين نُصبح مواد صالحة للعبث ومحركة له. وفي اللحظة التي كنت فيها مستعدا لتحمل عبث الدنيا مقابل أن أرى الشابين يصلان لإنقاذي من هذا الصباح المسدود، رأيت الشخص. كان واقفا قبالة الحافلتين بقميصه الباكستاني و«طاقية الحج» المتسخة، والجاكيت النَّايْلُك المزور، والحذاء

الرياضي من نفس الصنف. خمنت أنه هو، شاب المطار المتأثر بفاجعتي، والمستعد لربط اتصالي بخيط يوصلني إلى ياسين، لا لشيء سوى لأنه هو أيضا ابن «بومندرة» ويود أن يفعل هذا الخير معي. بل مع الله أولا. ولا هدف له من ذلك سوى التقليل من تعاسة العالم وخساراته. ولكن أين هو الصديق المنتظر، حجر الزاوية في هذه الحكاية، ومبرر وجودها أصلا، لماذا لم يصل حتى الآن؟ هل يكون توجس خيفة من هذا اللقاء الغريب، وماذا يخيفه؟

ربما هو الآخر دارت في مخه فكرة الشرطة كما دارت في مخ ليلى وسيكون على حق، وحتى بغض النظر عن هذا الاحتمال، ليس هناك من علاقة ممكنة بيننا لا تكون قائمة على الخوف، سنخاف من بعضنا إلى الأبد.

استدار الشخص فجأة، فأدركت أنه ليس هو، وانتبهت إلى قميصه الباكستاني منتفخا قليلا من الجانبين عند خاصرته مِمّا يجعل ذراعيه في وضع مبتعد عن جسده، كأنه يهم برفع شيء عن الأرض، وانتبهت إلى تعبير وجهه الشرس كما لو كان خارجا لتوه من مشاجرة عنيفة، ثم انتبهت أخيرا إلى أنه يتأملني. وعندما هممت بالاقتراب منه مفترضا أن يكون «الصديق» الذي أنتظره، وقد بعثه ابن بلدتي وحيدا لأسباب أجهلها، استدار كما تفعل الأجسام الآلية، وتوجه نحو الشارع خلف الفندق، فلم أجد شيئا آخر أفعله أفضل من المشي خلفه معتقداً أن في هذا الاستسلام شيئا قدريا لا مناص منه. كنت أمشي خلف الرجل وأفكر بليلى، وقد بدا لي ذلك في غاية الغرابة أن لا أفكر بياسين وبه وحده. أخذت هاتفي وبعثت لها برسالة قصيرة «لم يأت أحد للموعد، أحبك».

كان الرجل يمشي الهوينا باتجاه الكتبية، مما اضطرني إلى اللحاق به

سريعا، ثم التريث ريثما يبتعد، ثم اللحاق به، وكانت ساحة الكتبية قد بدأت تمتلئ بالعابرين والباعة والمتسكعين، وتعدد الناس الذين يشبهون صاحبي فصرت أبذل جهدا مضنيا للاحتفاظ به، وفي لحظة ما توقف عند بائع كتب في الهواء الطلق، وأخذ يتصفح كتبا قديمة ومجلات استرعت انتباهي أنها نسائية بالأساس، وعندما استأنف سيره كانت الساعة قد قاربت منتصف النهار والشمس قد أصبحت ثقيلة الوقع، وعند ذلك رأيته يتجه نحو باب الجديد، فتذكرت أن شابا سألني عن هذه الوجهة قبل قليل، هل يكون على علاقة به؟ ولماذا يكون على علاقة به؟ ثم لاحظت أن الرجل قد رفع من سرعة مشيه فأسرعت بدوري الخطى حتى وصلنا إلى فندق المامونية، وهناك في مدخله الرئيسي رأيته ينحني أمام نافذة سيارة أجرة ويتحدث مع سائقها، ثم رأيته يعبر الشارع نحو حديقة تابعة للفندق، فوقفت أنتظره دون أن أكون متأكدا من عودته، ودون أن أكون متأكدا من أنني سأتبعه من جديد. إلى أن خرج فجأة وانحرف يمينا ليخرج من بوابة السور ويعبر الشارع نحو رصيف الفنادق الكبرى. عند ذلك تعقبته مسرعا وقد نبتت فكرة شيطانية في رأسي جراء تلك الطريقة الغريبة التي يرتدي بها قميصه، إذ تساءلت عما إذا لم يكن يتهيأ للانفجار بحزام ناسف في مكان ما، وأنه يبحث عن تجمع هام للأجانب ليقوم بما عليه القيام به. وما أن أصبحت هذه الفكرة واضحة في ذهني حتى اختفى الشخص، فجريت بكل قواي في الرصيف الطويل إلى أن اعترضني أول مدخل نحو منطقة الفنادق، فأخذته مسرعا وأنا أفكر بفندق الذي وصلته ولم أجد الشخص في مدخله ولا قريبا منه ثم انتقلت إلى فندق السعدي ثم إلى فندق كامبنسكي ثم إلى الأطلس، وفكرت أن أكلم ليلى وأطلب منها أن تُخطر الشرطة باحتمال وجود شخص سيفجر نفسه عما قريب في فندق ما، لكنني خفت

أن أروعها بشيء لا أساس له من الصحة، ثم ما لبثت أن اقتنعت بيني وبين نفسي أن الشخص قد توجه حتما إلى قصر المؤتمرات وفندق المرديان حيث يتجمع ضيوف المهرجان ورواده، وفي هذه الساعة فإن أغلبهم سيكون مستغرقا في إفطار طويل بعد سهرة طويلة ونوم لا يقل طولا، أو على مائدة الغداء حيث يعرض أشخاص نصف عراة أجسادهم للشمس وللأطباق الخفيفة التي يتناولونها بحركات فاترة ليزيدوا من خفتها.. انتقلت إلى الرصيف الآخر وانطلقت نحو مثلث الموت كما تخيلته وأنا لا أعرف ماذا سأفعل لو وصلت ووجدت الشخص متأهب لفك حزامه القاتل.. ومرة أخرى فكرت في الاتصال بليلى أو بهية أو أحمد مجد لكنني لم أستطع تركيب أي رقم وأنا في تلك الحالة من العياء والهلع، إلى أن وصلت إلى باب القصر لأجد هدوء الظهيرة مستقرا كأنه هنا منذ سنوات. كنت غارقا في عرقي أبحث بعينين زائغتين عن الرجل البطيء الخطو الذي لا يرتدي جوارب مع حذائه الرياضي ولا يستطيع إسبال ذراعيه بشكل طبيعي، ربما بسبب الحزام الضخم أو شيء من هذا القبيل.. لكنه لم يكن هنا، ولا في أي مكان يمكن أن ألتقي فيه بوجهه وقد داهمته صفرة تلك اللحظة الوشيكة، عند ذلك رجعت أدراجي نحو حدائق الزيتون المتاخمة لفندق المامونية. كنت أريد أن أبتعد عن الأمكنة التي يحتمل أن ألتقي فيها بشخص أعرفه، وكنت أريد أن أرجع إلى نقطة البدء، حيث كنت على موعد مع شخص لا أعرفه كان سيطلعني على تفاصيل من تلك الفترة الغامضة التي ابتلعت ياسين. من الذي رتب هذه المواعيد المستحيلة؟ لماذا وجدت نفسي أتبع رجلا لا علاقة لي به، ولا أعرف عنه ما يسمح لي بتوقع كل هذا الشر منه؟ وصلت إلى حدائق الزيتون منهكا، فدخلت إلى ظلالها الرطبة ومشيت على غير هدى أفكر بما سيحدث لي لو صعدت إلى

سيارة أجرة وسمعت في نشرة أخبار سريعة خبر انفجار انتحاري بلا وجه ولا إسم وإسفار الحادث عن مجزرة. اقشعر بدني كله وأنا أتذكر أنه كان بإمكاني أن أدل عليه الشرطة فتطوقه في مكان غير آهل. وفي لحظة ما وأنا ذاهل من هذا الاحتمال أحسست بشيء ثقيل وراء ظهري، كما لو يكون أنفاسا متلاحقة فاستدرت مذعورا دون أن أجد أثرا لأي كائن يتبعني، ثم التفت يمينا وشمالا، فلمحت جسما يتنقل بين الأشجار، وعندما تحركت بسرعة لأدركه، تهيّأ لي أنه ياسين، يجري خلف شخص ما. جريت بدوري خلفه، وصرخت باسمه مناديا كلما لاح لي، لكنه لم يكن يستجيب ولا يتوقف، فغاظني ذلك، مثلما غاظني أن يخون عهده لي بالذهاب إلى الأبد، فاستشطت غضبا، وتعقبته بسرعة أكبر زادت من سرعة مراوغاته. لماذا يعود في هذه اللحظة؟ ولماذا يفتعل هذه المطاردة السخيفة؟ وهل يكون هو من ينظم هذه الحكاية في كل تفاصيلها؟ وإلى أي شيء يريد استدراجي؟. وتساءلت عما إذا لم يكن ياسين يدبر لي أمرا بإيعاز من جهة ما، ومن تكون هذه الجهة؟ وتذكرت السيناريو الذي تصورت به ياسين بعد نعيه حيّا، يُذوِّبُ هويته في مقتل وهمي، ليظهر فيما بعد، بهوية أخرى، ومخطط آخر، فارتبت في ما يحدث حولي، وارتعبت من أن يشارك ياسين تحت بصري في حادث دموي، وأكون أنا نفسي ضحية له.

رجعت مرة أخرى إلى حدائق الزيتون بحثا عن الشخص الذي حسبته ياسين، واستعنت بآخر ما تبقى لي من قوة لأطارد طيفا يظهر ويختفي، ثم انتابني خوف شديد من أن يكون الطيف مكرا شيطانيا هدفه تحويل انتباهي، وإشغالي بمطاردة كاذبة، بينما شخص آخر يهيء ضربته بإحكام. وفي غمرة هذه الحيرة العارمة، تناهى إلى سمعي صوت رخيم يترنم بآيات قرآنية، وقد بدا لي هذا الصوت مألوفا، قريبا سمعته غير مرة حتى الآن،

ولكنني لم أنجح في تحديد صاحب الصوت ولا الظروف التي سمعته فيها. ثم تذكرت إبراهيم الخياطي، ماذا يعرف عن كل هذا؟ هل كانت لديه رسالة من ياسين حول مواعيد مراكش؟ وقلت في نفسي هذه هي الحلقة المفقودة، هناك شيء لم يصلني، هناك شيء أخطأ طريقه نحوي. هناك خيط رابط بين كل هذه الأحداث المتباعدة لم أتبينه حتى الآن مما جعلني في قلب حكاية لا أفهمها ولا أتحكم في ما يخصني من فصولها.

وصلت إلى نهاية الحدائق وها أنا الآن أمام البوابة الحديدية التي تفضي إلى المنارة. لا أحد غيري خرج من ظلال الزيتون. وإذا لم يكن ياسين سوى رؤيا من صنع حيرتي؟ وإذا لم يكن الشخص الذي أتبعه مجرد صورة أخرجتها من دواخلي وأطلقتها في المدينة؟.

وكنت على وشك التسليم بهذه الافتراضات اليائسة، عندما رأيته في نهاية الممر الداخلي للمنارة يمشي ببطء شديد، مشية رجل مجهد، ضجِر وقانط. توجهت مرة أخرى نحوه وأنا أحاول أن أؤكد لنفسي أنه ليس هو، ولا يشبه الشخص الذي ضاع مني، وبدا لي أن قميصه لم يعد منتفخا كما كان وذراعيه مسبلتين على جنبيه في وضع طبيعي، وكل ما هنالك أنه يمشي معتدا بعضلاته القوية، لكنني ما أن اقتربت منه حتى غيرت رأيي، وعندما صرنا على بعد بضع خطوات من الصهريج تأكدت أنه هو، وأن شيئا ما تحت قميصه يجعله يمشي مثل شخص آلي!

ثم رأيته يقترب من حافة الصهريج، ويرفع عينيه نحو الشمس ثم يستدير ليستقبل القبلة، ويشرع في الصلاة دون أن ينزع حذاءه، كأنه في الحرب، فكان هذا التفصيل بالذات هو ما تحول في داخلي إلى طاقة هوجاء، لم أعد أستطيع معها أن أتعرف على نفسي، ولا على ما كنته حتى هذه اللحظة، ولا أن أتذكر شيئا آخر غير كلمة سمعتها من ياسين قبل شهور ونحن نعود،

ليلى وأنا، من عرض راقص. الآن.. الآن.. الآن!

الآن قلت لنفسي. وانطلقت مثل سهم نحو الشخص الذي كان يصلّي بخشوع مغمض العينين، لأجمعه بين ذراعيَّ وأندفع به نحو الصهريج.

وفي تلك اللحظة الحاسمة، التي انفصلنا فيها عن الأرض استدار الشخص برأسه كاملا نحوي، فرأيت في لمح البصر خلف اللحية الكثة والنظرة الحادة وجه عصام، مرعوبا كما لم يكن أبدا في حياته، كان ذلك قبل أن تأخذنا غيمة بيضاء باردة في دويها الهائل!.

الفهرس

صدر للمؤلف

❖ صهيل الخيل الجريحة (شعر)

منشورات اتحاد كتاب المغرب. بغداد 1978

❖ عينان بسعة الحلم (شعر)

المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت 1982

❖ يومية النار والسفر (شعر)

المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت 1983

❖ سيرة المطر (شعر)

النشر العربي الإيفريقي الرباط 1988

❖ مائيات (شعر)

المعارف الجديدة الرباط 1994

❖ يوم صعب (قصص)

الفينيك الدارالبيضاء 1991

❖ جنوب الروح (رواية)

دار الرابطة الدارالبيضاء 1996

❖ **سرير لعزلة السنبلة (شعر)**

الهيأة العامة لقصور الثقافة القاهرة 1998

❖ **حكايات صخرية (شعر)**

دار توبقال الدارالبيضاء 2006

❖ **أعمال شعرية (شعر)**

دار توبقال الدارالبيضاء 2000

❖ **قصائد نائية (شعر)**

دار الثقافة الدارالبيضاء 2005

❖ **أجنحة بيضاء في قدميها (شعر)**

دار النهضة العربية بيروت 2007



نبذة من السيرة

* ولد في زرهون { بومندرة } سنة 1951.
* بدأ نشر قصائده في مطلع السبعينات.
* ترأس إتحاد كتاب المغرب.
* مارس الصحافة وترأس تحرير عدد من المجلات والملاحق الثقافية.
* تحمل مسؤوليات سياسية ونقابية مختلفة.
* خاض تجارب انتخابية متعددة قادته إلى تحمل المسؤولية في بلدية الرباط. ثم في مجلس النواب من عام 1997 إلى عام 2007.
* عُيِّن وزيراً للثقافة في حكومة التناوب سنة 1998، ثم وزيراً للثقافة والإتصال سنة 2000، ثم وزيراً للثقافة من عام 2002 إلى عام 2007.
* نشر أعمالا مختلفة في الشعر والقصة والرواية وتُرجمت له أعمال شعرية الى الإسبانية والإيطالية، كما ترجمت قصائده إلى الفرنسية والروسية والهولاندية وغيرها.

الأعمال الصادرة

* صهيل الخيل الجريحة شعر 1978
* عينان بسعة الحلم شعر 1982
* يومية النار والسفر شعر 1983
* سيرة المطر شعر 1988
* مـــائيـــات شعر 1994
* سرير لعزلة السنبلة شعر 1998
* حكايات صخرية شعر 2000
* قصائد نائية، شعر، 2006
* أجنحة بيضاء في قدميها، شعر، 2008
* يوم صعب قصص 1991
* جنوب الروح رواية 1996

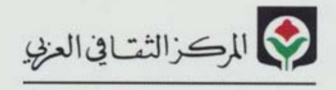
محمد الأشعري

القوس والفراشة

أنا يوسف الفرسيوي وهذا أبي، أنجبني من ألمانية رقيقة، لم تجد طريقة أقل سوءً لإنهاء حكايتها المضطربة سوى الإنتحار، في يوم مفتوح للصيد، قضته مع والدي تصيد الحجل والأرانب في الغابة الحرشة، حتى إذا أشرفت الشمس على المغيب، رتبت الطرائد والمعدات والألبسة وسلات الأكل، وعلب المشروبات، بعنايتها المعهودة التي تفجر أعصاب والدي، ثم صعدت إلى المقعد الأمامي، وربطت حزام السلامة في نفس الوقت الذي أرخت فيه عنان بتهوفن من تسجيلها الأثير.

في طريق العودة طلبت من والدي أن يمر من الطريق الجبلي الذي يطل في قسمه الأول على المدينة وفي ما تبقى منه على الأطلال.

قالت بوداعة إنها تود أن ترى غروب الشمس. فاستجاب لها الفرسيوي على غير عادته، بدون نقاش ولا مماحكة، مما جعله يؤكد غير ما مرة بعد وقوع الحادث، أنها وحدها الإرادة الإلهية كان يمكن أن تطمس بصيرته لهذا الحد، فلا يلاحظ أنها لأول مرة في حياتها تعبر عن هذه الرغبة، وأنه أبدا، لم يقف معها على مرتفع، ولا على منخفض، ليرى شمسا من شموس الله، تغرب أو تشرق أو تفعل بنفسها ماتشاء...!



الدار البيضاء: ص.ب 4006 (سيدنا)
بيروت: ص.ب: 113/5158
www.ccaedition.com
markaz@wanadoo.net.ma

